

الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية

حول العالم

بين الإستعمار والإستغلال

تأليف

دكتور / السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة أسبوط سابقاً

مركز الاسكندرية للكتاب

٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة

الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨





الكشوف الجغرافية

البرتغالية والأسبانية

بين الاستعمار والاستغلال

تأليف

دكتور : السيد يوسف نصر

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة اسيوط سابقا

الإسكندرية

٢٠٠٧

مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة - سوتير (سابقا)

تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨ - ٠٣ - الإسكندرية

alexbookcenter@yahoo.com

الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية

تأليف الدكتور/ السيد يوسف نصر

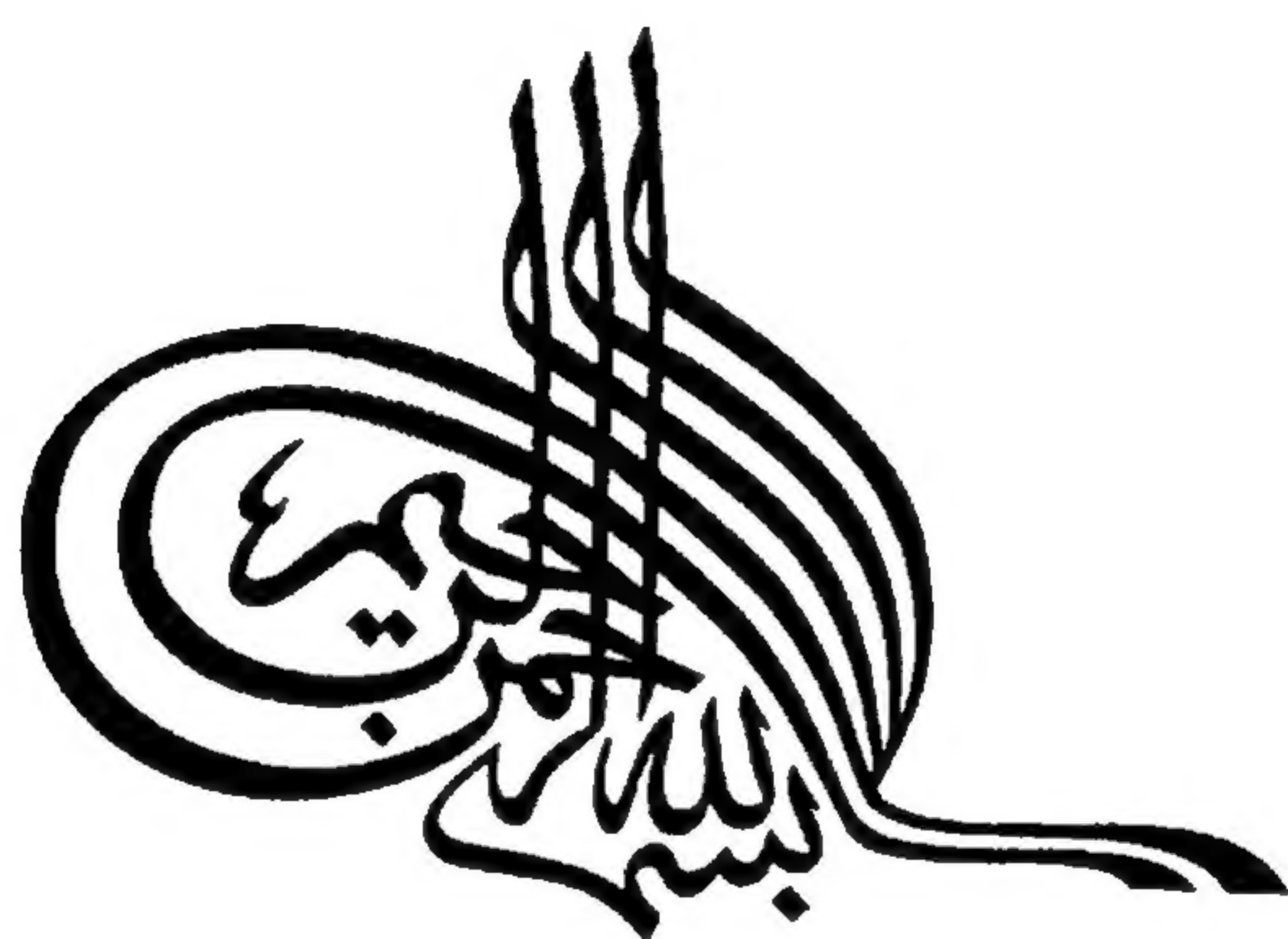
رقم الإيداع ٢٠٠٧/٨٧٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N – 977-388-153-9

الناشر مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ ش د. مصطفى مشرفة – الأزاريطة

تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨



مقدمة

من المعروف أن بلاد الشرق هي من البلدان التي تحتوى على سلع ذات أهمية كبيرة تتمثل في التوابل بكل أنواعها ، والحريير والذهب والفضة والقطن والأرز والعطور والعقاقير . وكانت هذه السلع تنتج في جنوب شرق آسيا في الصين والهند وأندونيسيا وبقية الجزر الأخرى في شرق آسيا ، ثم تنقل هذه السلع بحرا حتى تصل إلى رأس البحر الأحمر أو إلى رأس الخليج الفارسي ، ومن تلك المنطقتين تنقل هذه السلع مرة أخرى بواسطة القوافل إلى أوروبا عبر الطرق البرية حتى تصل إلى شواطئ البحر المتوسط . وهناك تكون السفن الإيطالية في انتظارها ، ثم تقوم تلك السفن بنقلها إلى مدن إيطاليا الشمالية .

ومن هناك تنقل بالطرق البرية إلى الأسواق الأوروبية . وكان العرب والإيطاليون يحققون أرباحا طائلة من جراء العمل في هذه التجارة كوسطاء ، وقد أدى ذلك بالتالي إلى ازدياد سعر هذه السلع الآسيوية بالنسبة للأوروبيين الغربيين . فكان هؤلاء الوسطاء هم الذين يتحكمون في سعر الشراء أو البيع . لهذا كانوا يستنزفون الذهب الأوروبي^(١) .

لكن لما نهضت دول أوروبا علميا ، اهتمت هذه الدول بالصناعة ، خاصة صناعة البارود والأسلحة ، وبناء السفن ، إضافة إلى اهتمامها بفن الملاحة ، ورسم الخرائط وعلم الفلك ، وبإقامة المصانع التي غطى إنتاجها كل احتياجات المستهلك الأوروبي ، وأصبح لدى هذه الدول فائض في تلك السلع الإنتاجية المختلفة، التي تمثلت في صناعة النسيج والزجاج والمصنوعات الجلدية ، والمواد الغذائية المعلبة ، والسماك المجفف وغيرها . ومن

^(١) Norman A Graebner, Gilbert C Fite and Philip L. White: A history of the American People. U. S. A , 1975 , PP . 11-12 .

الجدير ذكره أن الإنسان في أوروبا كان يتمتع بالحرية الشخصية ولا يزال، التي مكنته من تحقيق كل أهدافه العلمية والإنسانية .

بعد أن أصبحت دول أوروبا متقدمة إلى حد ما في الصناعات الإستهلاكية المختلفة ، وفي مجالات العلوم العديدة ، وفي فنون الملاحة وفي امتلاكها للسفن وللقوات البحرية والبرية ، كان لزاما عليها البحث عن معرفة بلدان العالم القديم المجهول ، التي كانت لا تزال غير معروفة بالنسبة للأوروبيين . وكان من هذا العالم المجهول الأمريكتين وأواسط قارة إفريقيا وشرق وجنوب شرق آسيا ، وبعض جزر المحيط الهادى والأطلسى . ومن أجل هذا كله ترسخت فكرة الكشف الجغرافية في الأذهان الأوربية ، التي كان الهدف منها معرفة المناطق المجهولة . وكان من أهداف الكشف الجغرافية :

١- الحصول من هذه المناطق المجهولة على المواد الخام غير المتوفرة في البلدان الأوروبية واللازمة لمصانع أوروبا ، والتي تتمثل في القطن ، والأرز ، والكافو ، وجوز الهند ، والتوابل والمعادن الثمينة المختلفة .

٢- تحويل هذه المناطق إلى أسواق لتصريف المنتج الصناعى الأوروبى الزائد عن حاجة السكان المحليين .

٣- البحث عن المعادن الثمينة الموجودة بوفرة فى تلك المناطق غير المعروفة ، التي عجز حكامها عن البحث عنها واستغلالها لصالح شعوبهم .

٤- تكوين الإمبراطوريات الشاسعة ، وبسط الهيمنة الإستعمارية الجديدة بواسطة حماية قوة عسكرية أوربية كبيرة ، تمكنها من تحقيق طموحات الشعوب الأوربية النشيطة ، الحرة غير المكبوتة وغير المستعبدة .

بعد أن انتهى الاوربيون بصفة عامة من مرحلة الكشف الجغرافى - التى غلفوها بثوب المعرفة الجغرافية ونشر المسيحية- بدأوا في استعمار هذه المناطق المكتشفة حديثا ، وفرضوا هيمنتهم عليها وإلى ما شاء الله .

وعندئذ يمكن تعريف الاستعمار بالقول : الاستعمار يقع من دولة قوية متقدمة ، متحضرة تمتلك من وسائل القوة ما يمكنها من فرض هيمنتها على دولة أخرى أو إقليم أو جزيرة فى محيط ، أو قارة مجهولة كالأمريكتين أو قارة متخلفة يسكنها شعب متخلف فقير مستعبد من قبل حكامه - الذين عجزوا عن استغلال موارد بلادهم- عندئذ تقوم هذه الدولة المتقدمة علميا وصناعيا وعسكريا باحتلال هذا الإقليم المكتشف حديثا باستخدام القوة العسكرية ، وبسط هيمنتها عليه ، واستغلال ثرواته إلى جانب استغلالها لأبنائه كعبيد .

بعد هذه المقدمة الموجزة ننتقل إلى الحديث عن الكشف الجغرافية البرتغالية حول سواحل افريقيا ، التى وصل البرتغاليون إليها ، ومن بعدها وصلوا إلى الساحل الغربى للهند . ومن الجدير ذكره الإشارة إلى الدور الأسبانى فى هذا المجال الذى تركز على ما يعرف بالعالم الجديد (الأمريكتين) . وكان الهدف الأساسى لكل من البرتغاليين والأسبان ، الوصول إلى مصادر تجارة الشرق ، المتمثلة فى التوابل وفى غيرها من السلع المهمة . ومن المعروف أن طرق الوصول إلى تلك المناطق المراد كشفها التى توجد بها التوابل المتنوعة كانت تختلف من دولة إلى أخرى ، فإذا كان البرتغاليون قد اتجهوا نحو الشرق ، نجد أن الأسبان اتجهوا نحو الغرب ؛ أى اتخذوا طريقهم إلى الشرق عن طريق الغرب .

معوقات الكشف البرتغالية:

تعتبر الكشف الجغرافية بصفة عامة مظهراً من مظاهر عصر النهضة الأوروبية التي بدأت في القرن الخامس عشر الميلادي^(١) والتي قامت على أسس أدبية وفنية وعلمية والتي نتج عنها نهضة صناعية في البرتغال ، شملت بناء السفن ورسم الخرائط ، وصناعة البوصلة ، والإسطرلاب . وكان كل ذلك نتيجة من نتائج هذا العصر ، ولكن لماذا تأخرت حركة الكشف الجغرافية في البرتغال حتى مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ؟ الإجابة على ذلك تكمن في الآتي :

قلة المعلومات الجغرافية لدى البرتغاليين ، فكل ما كان متوفر لديهم في ذلك الوقت ، لا يزيد عن كونه معلومات خاطئة في معظمها ، إضافة إلى تخلفهم في علم الفلك ورسم الخرائط وكذلك في التخلف العلمي الذي ساد أوربا كلها في العصور الوسطى ، التي إقتصرت العلم فيها على ما يعرف بالفنون السبعة Seven Arts والتي تمثل النحو اللاتيني ، والفلك والحساب والبلاغة والمنطق ، والهندسة والموسيقى^(٢) . ومن عوامل تأخر الكشف الجغرافي البرتغالي كذلك عدم امتلاك البرتغاليين لوسائل المواصلات البحرية المتطورة ، التي تمكنهم من الملاحة في أعالي البحار ، ومنها أيضاً الحياة في مجتمعات مغلقة أي أنه لم يكن هناك أية اتصالات إنسانية The personal contact بين البرتغال وغيرها من دول شعوب العالم وبخاصة العالم الإسلامي^(٣) ، فقد ترتب على ذلك عدم وجود أية معلومات جغرافية عن أفريقيا وآسيا باستثناء ما حصل عليه البرتغاليون من التجار الإيطاليين لما لهم من علاقات تجارية متميزة مع بلاد الشرق . ولكن لم يستمر هذا الوضع طويلاً .

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، جزء ١ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، ص ٥ .

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، النهضة والحضارات والنظم ، جزء ٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٣٣١ .

(٣) د. عبد العزيز الشناوي : أوربا في مطلع العصور الحديثة جزء ١ ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

أسباب بدء البرتغاليين لكشوفهم الجغرافية:

- تطور الحياة الاقتصادية في البرتغال من تجارة وصناعة وزراعة ، الأمر الذى أدى إلى زيادة الطلب على المعادن الثمينة خاصة معدنى الذهب والفضة ، بصفتهما وسيلتا التبادل التجارى الوحيدتان والمتعارف عليهما فى ذلك الوقت . ومن المعروف أن مصادر الذهب والفضة كانت قليلة فى العالم فى تلك الفترة ، ولم تكن تفى بحاجة التجارة الدولية ، لذا أصبح من الضرورى البحث عن مصادر أخرى جديدة لهذين المعدنين الثمينين .

- تطور صناعة بناء السفن فى البرتغال ، بحيث أصبحت هذه السفن على درجة من القوة والمتانة ، بما يكفل لها القدرة على مواجهة العواصف والأنواء ، بل التوغل فى أماكن مجهولة من المحيطات ولمدد طويلة ، ولمسافات أبعد من الشواطئ .

- انتشار أفكار جديدة حول كروية الأرض خاصة بعد ظهور كتاب إيلي Elle الذى صدر عام ١٤١٥م . فبعد أن قرأه الناس اعتقدوا بوجود بحر واحد تقع على شاطئيه كل من أوروبا وأفريقيا وآسيا . وكانت هذه الأفكار هى بداية الإنطلاق للمغامرات التى تمت فى تلك الفترة ^(١) .

- سيطرة العثمانيين على الشرقين الأدنى والأوسط ، وتحكمهم فى الطرق الرئيسية التى تمر منها السلع التجارية الشرقية إلى أوروبا ، وهذه السلع هى التوابل والعنبر وماء الورد والعقاقير الهندية والصمغ والأقمشة الحريرية والسجاجيد ، والأحجار الكريمة والعاج ، التى كانت تعرض جميعها فى البندقية لبيعها للتجار الألمان ، والإنجليز وغيرهم ^(٢) .

^(١) د . عبد العزيز الشناوى : نفس المصدر ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ .

^(٢) George Fadlo Hourani : Arab Sea Faring in the Indian Ocean in ancient and early Medieval times. New York. 1975. P. 51 .

- محاولة البرتغال ومعها بعض الدول الأوربية التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة ، التي كانت تفرضها سلطات الممالك في مصر والشام ، عند عبور تلك السلع التجارية لأراضيها ومنها إلى إيطاليا .

- ضرب أوروبا للإحتكار ، الذي كان يمارس من جانب كل من جمهوريتي البندقية وجنوة الإيطاليتين لتجارة الشرق .

- رغبة بعض التجار من رعايا دول أوروبا من غير الإيطاليين في النزول إلى ميدان التجارة الشرقية ، والحصول لأنفسهم على جزء من أرباح تلك التجارة .

- البحث عن المعادن الثمينة كالذهب والفضة خاصة بعد أن أشيع عن وجودهما في ساحل غرب أفريقيا . ومن الجدير ذكره أن قوة الدولة في هذه الفترة كانت تقاس بقدر ما تمتلكه من هذين المعدنين ، ولا تقاس بكبر المساحة أو كثرة عدد سكانها .

- زيادة المعلومات الجغرافية نتيجة لرحلة ماركو بولو Marco Polo إلى أواسط آسيا الذي عاش في الفترة ما بين ١٢٥٠ - ١٣٢٣ م ^(١) .

وللإستزادة يمكن قراءة هذا النص الخاص بماركوبولو :

“ Marco Polo 1250- 1323, the most noted of these travels,taken into the service of kubliakhan the Tartar Emperor of China. For about twenty years he served his royal master , exploring not only China but also parts of central and South Eastren Asia .

Shortly after his return to Vince , Marco Polo wrote an account of his travels .His book tells the vast wealth of Eastern Lands and also a great Ocean which Washes the Eastren -Shores of India and China . Thus there grew up among the trading Peoples of Europe the desire to see for themselves the wonders of the East ^(٢) .

^(١) فيج دي جى : تاريخ غرب أفريقيا ، ترجمة د . السيد يوسف نصر ، انظر ف ١ .
^(٢) George Guest : The Marsh of Civilization . London , 1977 . p . 102

يتضح من هذا النص أن ماركو بولو زار الصين ووقف على أحوال هذه البلاد ، وكتب عنها تقريراً أوضح فيه مدى ما تتمتع به هذه البلاد من ثروات كانت أوربا فى ميس الحاجة إليها. وفضلاً عن ذلك فإن هذا التقرير جعل البرتغاليين يرغبون فى زيارة تلك البلاد بأنفسهم ؛ لأنهم لم يكونوا على علم بها كما أنهم كانوا يرغبون فى مشاهدة مظاهر الحياة فى آسيا .

- ومن العوامل التى شجعت البرتغاليين على القيام بحركة الكشف الجغرافى هذه ، العامل الإستراتيجى الذى يكمن فى جزيرة أو فى مضيق أو فى ممر مائى ، أو فى دولة أو منطقة . وندلل على ذلك بموقع مصر المتميز الذى جعلها عرضة للغزاة عبر التاريخ ، ونشير هنا إلى ما ذكره جلوب باشا :

"To the British governor , sir Hudson Lowe,he said,that'Egypt was the most important country in the world ^(١) .

ويعنى ذلك أنه ينسب إلى حاكم إنجليزى - يدعى السير هدرسون لوى قوله : " إن مصر من أعظم وأهم بلدان العالم " .

- ومن العوامل أيضاً محاولة البرتغال التخلص من أعداد السكان الزائدة ، وذلك عن طريق تهجيرهم إلى تلك المناطق المكتشفة حديثاً ، فتخلص بذلك من البطالة التى أصبحت عبئاً ثقيلاً تعاني منه تلك الدولة الصغيرة .

- ومن العوامل أيضاً التقدم العلمى فى البرتغال فى ذلك الوقت الذى يعود إلى النهضة العلمية التى شملت كل أوروبا خاصة فى أعقاب انهيار النظام التعليمى الكنسى ، بما اعتراه من تخلف ، بحيث لم يعد هذا النظام التعليمى الكنسى قادراً على مسايرة متطلبات العصر ^(٢) .

^(١) John Glubb Pasha: The Middle East Crisis , Great Britain , 1969 , p . 30 .

^(٢) د . عبد العزيز الشناوى ، مصدر سابق ، ص ص ٦-٥ .

بعد هذا العرض يمكن القول بأن البرتغال لم تكن من أسبق بعض الدول الأخرى في مجال الكشف الجغرافية ، بل كانت هناك كشف جغرافية وقعت في الأزمنة الغابرة ، وإن كنا لم نلمس نحن نتائجها ، إلا أن كتب التاريخ احتفظت في صفحاتها بتلك الكشف وبنائجها .

الاستكشافات السابقة على الكشف البرتغالية في العصر القديم :

من المعروف أن الفينيقيين سبقوا البرتغاليين والأسبان وباقي الدول في مجال الكشف الجغرافية . فقد أشار المؤرخ الإغريقي هيرودت Herodotus بالقول بأن الفينيقيين قاموا برحلة كشفية تجارية حول ساحل أفريقيا الشمالية عام ٦٠٠ ق . م . وكان هدف هؤلاء التجار الفينيقيين البحث عن المعادن الثمينة ، علاوة على قيامهم بتأسيس مراكز تجارية Post trade على طول السواحل الغربية لأسبانيا وفرنسا ، وأسسوا أيضا نفس تلك المراكز في الطرف الجنوبي لإنجلترا حيث أقاموا علاقات تجارية معها ، شملت بصفة خاصة تجارة القصدير والذهب ^(١) . إلى جانب الفينيقيين كان يوجد هناك الإغريق ، فقد قام أحد مغامريهم ، ويدعى بثيوس الإغريقي ، Pytheus a Greek عام ٥٠٠ ق . م . ، على رأس بعثة كشفية من مرسيليا متتبعا الساحل الجنوبي لفرنسا حتى وصل إلى منطقتي أوركنيس Orkneys والأيس Ice Land وهما منطقتان أسكتلنديتان ساحليتان تقعان في شمال المحيط الأطلسي ^(٢) . وتتميز الأيس لاند بأنها جزيرة متناثرة السكان . وفي تلك الأثناء لاحظ بثيوس حركة المد والجزر التي كانت لافتة للنظر في المحيط الأطلسي ، أكثر منها في البحر المتوسط . ففي تلك المنطقة شاهد بثيوس أيضا الضباب الكثيف الذي يخيم عليها ، والذي كان يعيق تحركه .

وفي نفس تلك الفترة ، أبحر المغامر الإغريقي أيوثيمنس Euthymenes ، من أثينا ومر من خلال أعمدة هرقل The pillars of

^(١) Stella Davies: Exploring the world .London, 1968, p. 60 .

^(٢) The New Oxford Encyclopedic Dictionary. Bay books.In association with Oxford Uni. Press . part2 pp . 832 , 1188 .

Hercules مضيق جبل طارق - ثم توجه من بعدها نحو الجنوب ، وطبقا لما ذكره بلنى Pliny - المؤرخ الرومانى - فإن أيوثيمنس ، قد وصل إلى ما يعرف فى الوقت الحاضر بالسنگال .

لم تقتصر الجهود الكشفية فى التاريخ القديم على كل من الفينيقيين والإغريق بل ظهر على المسرح القرطاجيين ، الذين كانوا أمة بحرية تجارية منافسة للرومان . ففى عام ٤٤٣ ق. م أرسل القرطاجيون ستين سفينة كان على متنها عدد من البحارة ، الذين قاموا بتأسيس ثلاث مدن ساحلية ، كانت إحداها تعرف بالموجدور Mogador ، التى تقع فى منطقة سيراليون Siralean . وفى أعقابهم جاء النورمانديون ، الذين قاموا بطردهم ، وبذلك انهارت الإمبراطورية القرطاجية البحرية The Carthagean Sea Empire حيث دمرت مدنها الإفريقية وتلاشت من الذاكرة . وبذلك انتهت المعرفة الدقيقة بالطرق التجارية إلى الضياع ، التى كان الناس يحافظون عليها فى ذلك الوقت ، حتى أن البحارة لم يعودوا يبحرون من خلال أعمدة هرقل ، لأن الرومان كانوا قد أسسوا طريقا آخرأ بدلا منها ، يمر عبر فرنسا ، ويصل إلى القنال الإنجليزى . ومن بعد ذلك يصل إلى بريطانيا المستعمرة الرومانية . وفى تلك الفترة كانت الممتلكات الرومانية فى أفريقيا تمثل المنطقة الساحلية الشمالية من القارة فقط ^(١) .

إضافة إلى ما سبق تشير المصادر التاريخية إلى أن مغامرا إنجليزيا أسكتلنديا - يدعى ماتشام Macham كان قد أبحر من انجلترا إلى أسبانيا ، ومعه سيدة وصفت بأنها كانت محبوبته ، ويقال إنها هربت معه خوفا من انتقام أهلها . ويقال أيضا أن سفينة " ماتشام " قد خرجت عن مسارها بسبب هبوب عاصفة رعدية أبعدتها عن مسارها فجنحت فى جنوب خليج بسكا The Bay of Bisca الذى هو جزء من المحيط الأطلنطى الشمالى ، ويقع بين الساحل الشمالى لآسبانيا والساحل الجنوبى لفرنسا ، ويشتهر بالعواصف

الرعدية ^(١) . وفي تلك الأثناء أصيبت السيدة البريطانية بدوار البحر ، وأصبحت غير قادرة على تناول الطعام ، لذلك ذهب ماتشام وبصحبه هذه المرأة إلى شاطئ جزيرة - تقع في مواجهة ساحل الماديرا - ومكثا بها مدة من الوقت لكي تسترد تلك المرأة صحتها . ومع ذلك أصيبت هذه المرأة بالهزال والنحافة ، بسبب ما عتراها من فكر .

عندئذ قرر ماتشام وبعض أفراد بعثته اتخاذ هذه الجزيرة موطنًا لهم . أما البقية من أفراد تلك البعثة ، فقد اتجهت إلى بريطانيا ، ولم يسمع عنهم أي شيء . وبعد فترة من الوقت ماتت هذه السيدة ، وبنى ماتشام لها كنيسة صغيرة في الجزيرة لتدفن فيها ، ونقش على جدار تلك الكنيسة اسميهما وقصتيهما ، عندئذ لم يعد ماتشام قادرا على البقاء في هذه الجزيرة خاصة بعد وفاة زوجته فصنع بمساعدة بحارته قاربًا من جذع شجرة ، وبواسطته اتخذوا طريقهم إلى ساحل أفريقيا ، الذي كان يبعد عن الجزيرة حوالي ٤٠٠ ميل . وفي تلك الفترة كان هذا الجزء من أفريقيا مسكونًا بالمورز Moors ، وهو الاسم الذي يستخدم بشكل غير دقيق للتعريف بالمسلمين . وهناك أوصل المغاربة ماتشام وبحارته إلى ملك المورز ، الذي تأثر بشجاعتهم ، واهتم بهم وأرسلهم بالتالي مع حاجبه (الياور في العصر الحديث) إلى أسبانيا ، ومنها إلى بريطانيا ^(٢) . هذا عن كل الجهود التي بذلت في مجال الكشف الجغرافية قبل قيام البرتغاليين بحركتهم الكشفية واسعة النطاق . وهذا ما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل عن كل الجهود الكشفية البرتغالية التي بدأت من البرتغال مرورًا بسواحل أفريقيا، ثم وصولًا إلى الهند .

من المعروف أن البرتغال دولة صغيرة تقع في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية ، ويحدها من الشرق أسبانيا ومن الغرب المحيط الأطلسي ، وشمال مضيق جبل طارق . وتضم البرتغال

^(١) The New Oxford Encyclopedic dictionary. Op. cit . Uni . press. Part 1. P . 148.

^(٢) Stella Davies : op .cit . pp. 60-62 .

كلا من جزر الماديرا والأزورس^(١) . وقد نشأت هذه الدولة من اتحاد كونتية أبورتو مع الكونتيات المجاورة لها عام ١٠٥٩ م . عندئذ تكونت دولة البرتغال من هذا الاتحاد . وكان من أشهر حكام كونتية أبورتو، الفونسو الأول ، الذي عاش في الفترة ما بين ١١١٢ وحتى ١١٨٥ ، والذي تولى حكم البرتغال عام ١١٣٩ م . وفي عام ١١٤٧ م ساهم هذا الملك وبمساعدة أسطول صليبي - كان على متنه جماعة من الإنجليز الفلمنكيين والألمان - في طرد المسلمين من لشبونة ، التي أصبحت منذ ذلك الحين عاصمة لدولة البرتغال . وقد خاضت البرتغال صراعاً طويلاً ضد مملكة قشتالة . وكثيراً ما كان هذا الصراع ينتهي بالصلح . وفي عهد الملك الفونسو الثالث - الذي حكم في الفترة ما بين ١٢٤٨ م ، ١٢٧٩م - تمكنت البرتغال من بناء المدن الصغيرة والكبيرة ، وشجعت التجارة والصناعة والزراعة والصيد ، ومن الجدير ذكره أن الصراع بين مملكة قشتالة ومملكة البرتغال لم يتوقف طوال هذه الفترة ، ومع ذلك تمكن البرتغاليون من المحافظة على بلادهم ، وذلك بفضل جهود الملك جون الأول ملك البرتغال - الذي عاش في الفترة ما بين ١٣٨٣ م ، وحتى عام ١٤٣٠ م - والذي أنجب الأمير هنري الملاح الذي كان له أكبر الأثر والفاعلية في حركة الكشف الجغرافي البرتغالي على امتداد ساحل أفريقيا الغربي ، وحتى السنغال^(٢) .

^(١) Jonahan L. Goldman and Andrew N. Sparks : Webster, s New world , student,s Dictionary, Macmillan . U. S. A . New York, 1992 . p. 686 .

^(٢) The Medieval and Renaissance World . London ,1979 . p. 307 .

الفصل الأول

الكشوف الجغرافية البرتغالية
في مطلع التاريخ الحديث

الفصل الأول

الكشوف الجغرافية البرتغالية فى مطلع التاريخ الحديث

فى عهد الملك جون الأول بدأت البرتغال حركة الكشوف الجغرافية لسواحل غرب إفريقيا، وسرعان ما عادت هذه الحركة الكشفية على البرتغاليين بثروة طائلة وشهرة واسعة^(١) ولكن لنا أن نتساءل بالقول، لماذا اهتمت البرتغال بهذا الدور الكشفى دون غيرها من دول أوربا فى ذلك الوقت؟ الإجابة على ذلك تكمن فى أن البرتغال كانت قد تمتعت بالأمن والاستقرار، وبثحرر الإنسان فيها من القيود التى كان من الممكن أن تشل وتعطل تفكيره ونشاطه فى تلك الفترة .

ففى مطلع عصر النهضة حدث انتعاش ذهنى شامل ما لبث أن ظهرت آثاره واضحة فى القرن السادس عشر الميلادى ، وفى هذا القرن ظهرت الدولة الحديثة وقامت حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا ، التى حررت عقل الإنسان من الشل ، بل فكت قيوده . وقد نتج عن هاتين الحادثتين العظيمتين حروب طاحنة ، كان الهدف منها توسع هذه الدولة الحديثة على حساب غيرها داخل القارة الأوروبية، وعرفت هذه الحروب باسم الحروب الإيطالية . ويرجع سبب هذا الصراع أيضا إلى رغبة هذه الدولة الحديثة فى التوسع خارج أوربا ، وذلك عن طريق القيام بحركة الكشوف الجغرافية. وكانت هذه الدولة الحديثة ، قد انشغلت أيضا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بصراع دينى عنيف ترتب عليه أولا ، إنتشار حركة الإصلاح الدينى فى أوربا ، وثانيها إنتعاش الكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى . وحاولت هذه الدولة الحديثة أيضا القضاء على أى انقسام دينى، خوفا من أن ينبثق عنه إنقسام سياسى^(٢).

(١) د. عبد الفتاح سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، التاريخ السياسى جزء ١ ، الاتجلو المصرية القاهرة ١٩٨٣ ، مصدر سابق ، ص ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا الحديث ، من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ، ص ٥ .

ورغم كل هذه الأحداث التي سادت أوربا قاطبة إلا أن البرتغال ظلت في منأى عن كل هذه الأحداث الأوربية فدفعها ذلك للقيام بحركة الكشف الجغرافى التاريخية، التي نقلت العالم إلى مرحلة جديدة، كان في مسيس الحاجة إليها. بعد ذلك، ولمدة قرن من الزمن، قام البرتغاليون بحركة الكشف الجغرافية على طول السواحل الإفريقية الغربية والشرقية خاصة بعد طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا- أسبانيا والبرتغال في الوقت الحالى- الذين تعقبهم البرتغاليون حتى الشمال الغربى من أفريقيا^(١).

جهود الأمير هنرى الملاح Henry the navigator :

كان هنرى المعروف بالملاح الإبن الأصغر لملك البرتغال . وكان يأمل فى إيجاد طريق يصل إلى الشرق ، وذلك بالدوران حول أفريقيا وصولاً إلى الهند والصين عن طريق البحر، لكي يتمكن البرتغاليون من المشاركة فى التجارة الشرقية الثرية التى تمتعت بها كل من فينيسيا وجنوة، وبعبارة المصدر :

“Prince Henry, who is known in history as the navigator, was younger son of the King of Portugal. He hoped to find a way around Africa to India and China by sea “ so that Portugal might gain a share of the rich eastern trade that Venice and Genoa enjoyed .^(٢)

كان الهدف من قيام دولة البرتغال بهذا الدور الكشفى هو البحث عن طريق جديد، كى يصل إلى أماكن تجارة الشرق . وكان الأمير هنرى المعروف فى التاريخ بهنرى الملاح هو الإبن الأصغر لملك البرتغال جون الأول، الذى أمل فى إيجاد طريق بحرى يمر من حول أفريقيا ليصل البرتغاليون من خلاله إلى الهند والصين .

وبهذا العمل سيشترك البرتغاليون فى التجارة الشرقية الغنية التى كان يهيمن عليها الفينيقيون والجنوبيون^(٣) . وعندما وصل

^(١) Eugene C . Baker and Others : The building of our nation . New York . 1948 . pp. 15,17 .

^(٢) Eugene C. Baker : Ibid. 16-17 .

^(٣) Ibid . pp. 15 ,17 .

الأمير هنرى الملاح إلى شمال أفريقيا ، احتل البرتغاليون سببة ومليلة الواقعتين على الساحل الشمالى الغربى من مراکش . وفى نفس الوقت ، كان هناك اتجاه من جانب هنرى الملاح يتمثل فى الوصول إلى مملكة الحبشة ، وبذلك يقطع الطريق أمام وصول المسلمين إلى جنوب الصحراء الكبرى ، ولكن هذا المشروع لم يتم لعدة أسباب منها :

- عدم توفر وسائل المواصلات البرية التى تمكن البرتغاليين من اختراق الصحراء الكبرى ، فكما هو معروف تعتبر الصحراء الكبرى من أكبر صحارى العالم إتساعا The greatest desert all over the world . فهذه الصحراء تتميز بمناخها القارى الشديد الحرارة ، وبدروبها المجهولة الوعرة .

- قلة المعرفة الجغرافية لدى البرتغاليين عن الصحراء الكبرى فى تلك الفترة ، فكيف يعبرونها وهم لا يعرفون عنها شيئاً؟!!

- عداء قبائل الطوارق الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى والذين كانوا سيرفضون السماح للبرتغاليين بالمرور من خلال بلادهم . لهذا توقف مشروع هنرى الملاح ، فاتجه به بعد ذلك نحو سواحل غرب أفريقيا؛ ويقال أن السبب وراء ذلك هو حرمان سكان الشمال الإفريقى من الإتجار مع سكان منطقة غرب إفريقيا ، ولكنه فشل فى ذلك أيضا بسبب علاقة الترابط القوية والمودة التى تربط بين السكان العرب فى شمال القارة والزنوج فى غربها . لهذا وجه الأمير هنرى الملاح جهوده صوب الهند مصدر التوابل المطلوبة للبرتغال، إضافة إلى زيادة مساحة الإمبراطورية البرتغالية ، وكذلك زيادة تجارتها ^(١) .

وهنا نشير إلى الخطوات التى اتخذها الأمير هنرى الملاح صاحب أكبر مشروع كشفى عرفته أوروبا فى ذلك الوقت . فعندما أوكل إليه والده جون الأول تنفيذ هذا المشروع الكشفى ، اتخذ هنرى الملاح عدة خطوات كان منها :

^(١) Baker B. J. N. L : A history of Geographical discovery and explorations. New York, 1967 . p. 63 .

- تأسيس مدرسة للبحارة فى مدينة ساجرس Sagres ، الواقعة فى الطرف الجنوبى الغربى لدولة البرتغال لتضم المدرسين ورسامى الخرائط والفلكيين بحيث يقومون بتعليم الدارسين فن الملاحة وقيادة السفن .^(١)

- حصوله على مجموعة من الخرائط والمراجع التى كان من الممكن الإستفادة منها فى إنجاح مشروعه الكشفى (من أراشيف بعض الدول) .

- حصوله على بعض المعلومات من كل ربان سفينة عائد من رحلة بحرية .

- إعداده لعدد من السفن الكبيرة الحجم ، التى تتناسب مع هذه المهمة . وبعد إنجاز كل هذه المهام بدأت الرحلات البرتغالية الكشفية فى الإنطلاق مع الساحل الغربى لإفريقيا .

قبل هذا الوقت لم تكن هناك أية مغامرة على طول الساحل الإفريقى ، فيما وراء الصحراء القاحلة ، لأن الساحل الإفريقى الغربى كان محروما من الموانئ ، ولأن البحارة كانوا مثبطين الهمة ، بسبب الإعتقاد السائد فى هذا الوقت ، بأن منطقة غرب أفريقيا كانت مرعبة وخالية من السكان وبعبارة المصدر :

“Before this time no one had ventured along the coast of Africa beyond the desert region of Sahara. The country was forbidden , there were no ports , and sailors were discouraged by the general belief that the torrid region was uninhabitable .”^(٢)

كشف البرتغال لساحل غرب إفريقيا :

عندما اكتملت استعدادات البرتغاليين بدأوا فى تسير حملاتهم الكشفية بمحاذاة الساحل الغربى لأفريقيا ، وفى عام ١٤١٨ ، أرسل البرتغاليون أيضا بعثة كشفية إكتشفت جزر الماديرا والكنارى . وفى عام ١٤٣٩ م ، أرسلت بعثة برتغالية أخرى نجحت فى كشف جزر الأزورس . وفى عام ١٤٤١ م ، أرسل

^(١) George Shattel : Decision in United states history . Lexington , 1975 , p . 13 .

^(٢) James Henry and others : History of Europe, Ancient and Medieval, New York, 1929, pp. 444, 446.

البرتغاليون أيضا بعثة كشفية تمكنت من الدوران حول رأس
البلانكو ، وتمكنت هذه البعثة من كشف جزيرة أرجوين .^(١)

وفى عام ١٤٤٥ م ، أرسل البرتغاليون بعثة كشفية نجحت
فى استكشاف رأس الفيرد Verde Cape ، ومصب نهر السنغال .
وفى عام ١٤٦٠ م مات هنرى الملاح راعى حركة الكشف
الجغرافية ، ولكن حملات البرتغال لم تتوقف بعد موته . وكان
هنرى الملاح قد ترك لبلاده أسطولا بحريا يعمل عليه بحارة
مدربون متحفزون لقهر البحار والمحيطات ، ومكن هذا الأسطول
خلفاء هنرى الملاح من مواصلة تلك المهمة التاريخية ، فبعد وفاة
هنرى بسنتين أى فى عام ١٤٦٢ م ، وصل البرتغاليون إلى نقطة
أختيرت لى تكون الميناء الخاص بهم .^(٢) وفى عام ١٤٦٢ م ،
أرسل البرتغاليون بعثة كشفية أخرى وصلت إلى خليج غينيا ، وبعد
ذلك ، وصلت البعثة إلى غانا ، وهناك حصل أعضاء هذه البعثة
على بعض المعادن الثمينة مثل الذهب ، كما حصلوا على عدد من
الأفارقة الذين أركبواهم على متن السفن البرتغالية لبيعهم فى
أوروبا ، وقد حقق البرتغاليون أرباحا طائلة من جراء تجارتهم فى
الرق ، مما أغرى بعض المغامرين البريطانيين من أمثال جون
هوكنز John Hokins ، وفرانسيس دريك Francis Drake من ممارسة
تلك التجارة ،^(٣) وكان البرتغاليون قد أنشأوا بعض المحطات
التجارية على طول سواحل أفريقيا الغربية لبيع سلعهم فيها
والحصول منها على السلع الأفريقية .

ذكرنا أن رحلات البرتغاليين لم تتوقف بعد موت هنرى
الملاح ، ففى عام ١٤٨٤ م ، إكتشف ديجو كام Diego Cam مصب
نهر الكنغو ، وهناك نزل البرتغاليون إلى أرض الكنغو بحجة نشر

^(١) د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ، الحضارة الإسلامية ، ج ٦ ، القاهرة
١٩٨٣ م ، ص ٤١٨ .

^(٢) Baker B: A history of Geographical discovery and exploration, New York, 1967. p
65 .

^(٣) Look at the book of the British seamen in the sixteenth century .

الدين المسيحي ، وكان هذا في الواقع غير حقيقي ، فقاموا بالتجول في هذه البلاد لمعرفة أماكن مناجم الذهب والفضة ، فكثيرا ما كانوا يسألون الناس عن الأماكن التي حصل الوطنيون منها على الحلي ، ولما تبين لملك الكنگو نواياهم الخبيثة قام بطردهم من بلاده .^(١) وبعد أن إطلع ملك البرتغال على تقارير ديغو كام التي تشير إلى مملكة يملكها ملك يدعى أوجاني Ogane ، الذي تقع مملكته على مسافة بعيدة جدا من الساحل ، أرسل بعثتين كشفيتين ، تذهب إحداهما إلى مملكة الملك الكاهن - فيما يبدو ملك الحبشة - لأن الحبشة هي الدولة الوحيدة المسيحية في أفريقيا في ذلك الوقت . وبعد وصول هذه البعثة إلى الحبشة إتجهت إلى الهند ، وفي عام ١٤٨٧ م ، غادرت البعثة الأخرى البرتغال إلى مصر ، وكانت تحت قيادة كوفيلهام ، ومن مصر وصلت إلى الهند عن طريق البحر . وفي عام ١٤٨٨ م ، أيضا أرسلت بعثة أخرى ، خرجت من برشلونة ، وكانت تحت قيادة بارثلميو دياز ، ومرت هذه البعثة في طريقها إلى الكنگو ، حيث النقطة التي توقف عندها ديغو كام ، وهي نقطة بداية كشف بارثلميو دياز ، الذي استمر في مسيرته حتى وصل إلى رأس العذاب The torment cape أو رأس العواصف the stormy cape . وفي عام ١٤٨٨ م ، وبعد مصاعب ومخاطر جمة تمكن بارثلميو دياز من الدوران حول رأس العواصف ، وسار مع ساحل شرق أفريقيا ، ولكنه واجه عدة مصاعب كان من أهمها: تمرد أطقم السفن ورفضهم مواصلة المسير أكثر من تلك المسافة بسبب صعوبة الإبحار ونقص المواد الغذائية التي قاربت على النفاد. وشدة العواصف التي تهب من الشرق ، والتي استمرت عدة أسابيع بحيث جعلت السفن تتأرجح أثناء سيرها مما جعل البحارة في حالة من الفرع والخوف .^(٢)

إنتشار مرض الأسقربوط الناجم عن سوء التغذية الذي لم يكن معروفا جيدا للبحارة في تلك الفترة من الزمن . فقد ظهر

(١) لا فينا دابلر ووليام برون : الحكام العظام في أفريقيا في الماضي : ترجمة د . السيد يوسف نصر ، الانجلو المصرية ، ١٩٩٠ ، ص ص ٥٢ - ٦٦ .

(٢) Baker B. : op. Cit. pp. 65-66 .

المرض بسبب النقص في الفيتامينات التي كان من الممكن الحصول عليها من الفاكهة الطازجة والخضر ، حتى لو فرض وعرف سبب هذا المرض ، فإنه من الصعب أيضا الحصول على الفاكهة والخضر اللازمتين والكافيتين لرحلات بحرية طويلة كهذه ، وفي ظروف إبحار في القرن الخامس عشر . وكان من مخاطر هذا المرض أنه يحدث خراجات (دمايل) في الفم واللثة Gums ، ونتج عن ذلك خلخلة في الأسنان ، بل ألم شديد بحيث تصبح الأسنان مؤلمة عند تناول الطعام ، خاصة عندما يتناول البحارة الأطعمة التي يحملونها معهم ، والتي تتكون من بسكويت صلب ولحم بقرى مملح وجاف ، إذن فلابد وأن يصاب الأفراد بالألم . وفي الواقع ، فإن هذه الأطعمة هي التي كانت على متن السفن ، ولا يوجد سواها . وكان من نتيجة هذا المرض إنتشار الكسل والخمول بين أفراد البعثة . فكان أي مجهود يوكل إليهم يصبح عبئا ثقيلا ، مما دفع بارتليميو دياز إلى استخدام القسوة مع أفراد الأطقم، فكان يعلق البعض منهم في عوارض أشرعة السفن كعقاب لهم ، وكان يقوم أيضا بجلد البعض الآخر . وفي ظل ظروف كهذه إستعصى على بارتليميو دياز مواصلة السفر، وأضطره ذلك إلى العودة إلى البرتغال في شهر ديسمبر عام ١٤٨٨ م بعد أن طاف حول سواحل أفريقيا مسافة قدرت بـ ١٢٦٠ ميل ، دون أن يحقق الهدف المنشود في الوصول إلى الهند مصدر التوابل في العالم^(١).

الإعداد لحملة فاسكودي جاما :

بعد فشل رحلة بارتليميو دياز ، وقبل إرسال بعثة فاسكودي جاما، قررت حكومة البرتغال الحصول على المعلومات اللازمة لأي بعثة ترسل إلى بلاد الشرق . ومن أجل تحقيق هذا الهدف أرسلت حكومة البرتغال في عام ١٤٨٨ م ، مجموعة من اليهود ، الذين كانوا يعيشون في البرتغال في رحلة استطلاعية إلى مصر . وكان أفراد هذه البعثة متخفين في زي برتغالي . وأما عن اختيار ملك البرتغال لليهود للقيام بهذه المهمة ، فلأنهم كانوا ملمين باللغة

العربية ، ويمكنهم التعامل بسهولة مع الشرقيين بعامة والعرب بخاصة . وكان على رأس تلك المجموعة الفونسو دى بيفا Alfonso de paiva ، وبيرو دى كوفيلهام Pero de Covilham . وعندما وصلت هذه المجموعة إلى مصر ، استقلت سفينة عربية من ميناء السويس إلى عدن ، ومنها بطريق المحيط الهندي إلى الهند . وهناك تمكن هؤلاء اليهود من الوقوف على أحوال تلك البلاد وجمعوا الكثير من المعلومات المفيدة عن كافة النواحي ، ثم عادت تلك البعثة إلى مصر . وفى أثناء وجودها فى مصر تقابلت مع مجموعة أخرى من اليهود ، كانت قد قدمت من البرتغال أيضا لنفس الغرض . وكان من ضمن أفراد تلك المجموعة الثانية إبراهيم دى بيا Ibraham de pia ويوسف لاميجو Youssef Lamigo . وكان من أهداف تلك المجموعة والمجموعة السابقة عليها ، جمع المعلومات اللازمة للبرتغاليين . وانضمت المجموعتان فى مجموعة واحدة وسافر الجميع مرة أخرى من السويس إلى زيلع - الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى - ومنها إلى الحبشة ثم إلى هرمز ، ثم عادت هذه البعثة بعد ذلك إلى مصر ، ومنها إلى البرتغال .

ومما لا شك فيه أن هاتين المجموعتين الإستطلاعيتين حصلتا على الكثير من المعلومات المفيدة التى يمكن الإعتماد عليها فى إرسال أى بعثة كشفية برتغالية . وقد تمكنت هاتان المجموعتان من الحصول على خرائط عربية خاصة بالمحيط الهندي ، وحصلتا أيضا على معلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية ، فضلا عن البيانات الخاصة بتجارة التوابل الشرقية ، من حيث حجمها ونوعيتها . وقدمت تلك المجموعة هذه المعلومات إلى حكومة البرتغال فى لشبونة للإستفادة منها . وبعد حصول حكومة البرتغال على تلك المعلومات ، قررت إرسال حملة كشفية أخرى بقيادة فاسكو دي جاما .^(١)

^(١) Stella Davies: Exploring the world . London . 1968. pp. 58 , 60-66 .

بدأت حكومة البرتغال فى الإعداد لإرسال حملة كشفية أو بعثة أخرى إلى الهند على الرغم من فشل حملة بارثليميو دياز فى الوصول إلى تلك المنطقة . فى عام ١٤٩٥ م ، قررت البرتغال إعداد أربع سفن ، أشرف على بنائها بارثليميو دياز مما له من خبرة سابقة فى مجال الملاحة البحرية . فقد ساهم البيت الملكى بجزء كبير من تمويل تلك السفن ، إضافة إلى ما قدمه بعض الأشخاص العاديين من تمويل . وتميزت هذه السفن بأنها من النوع المسطح والمربع المؤخرة ، كما كانت مقدمتها مسطحة وعريضة ، وسميت تلك السفن بالأسماء التالية :

السفينة سنت جبريل Saint Gabriel ، والسفينة سنت روفائيل Saint Rophael والسفينة برىو Berio ، والسفينة سنت مارى Saint Mary . وقد لصق على مقدمة السفينة سنت جبريل صورة القديس الحارس ، وعملت تحصينات قوية فى مؤخرة ومقدمة كل سفينة ، كما زودت كلا منها بغرفتين للمراقبة : إحداهما فوق الصارى الأمامى ، والأخرى فوق الصارى الرئيسى . وكانت هذه الغرف مخصصة للمراقبة وإطلاق النيران ، بخاصة عندما تتعرض السفن للخطر .

بعد أن تم تصنيع تلك السفن زودت بالأسلحة المختلفة التى كان منها السيوف swords ، والرماح Javelins أو البيكس Pikes ، وبالسهم المقوسة Cross bows ، والقنابل grenades ، وبقدور البارود Powder pots ، كما زودت تلك البعثة بكمية من الذخيرة . ومن الملاحظ أن هذه السفن لم تحو أسلحة نارية صغيرة small fires Arms وكان على متنها عدد من البحارة والضباط . وننوه هنا إلى أن كلا من السفينة الأولى والثانية حملتا ١١٨ بحارا^(١).

إضافة إلى هذا كله ، فقد زودت هذه السفن بالإسطرلاب Astrolabe - آلة بدائية تستخدم لتسجيل الأماكن ومواقع النجوم -

^١ Baker B . op. Cit . pp. 66 .

وبالبوصلة البحرية Mariner's Compass ، التي كانت اختراعا جديدا في ذلك الوقت ، وزودت تلك الحملة الكشفية أيضا بالرصاص الرنان ، الذي كان يستخدم في قياس أعماق الماء الذي تسير السفن فوق سطحه ، لأن الساعات التي كانت تستخدم لقياس عمق المياه في ذلك الوقت لم تعد مجدية . وزودت البعثة أيضا بالخرائط والجداول ، التي جمعتها كلية الأمير هنري الملاح .

وبالنسبة للمواد الغذائية ، فقد زودت البعثة بكمية من الدقيق Flour والعدس tentils ، والسردين sardines والسّمك الجاف Codfish والبرقوق الجاف dried plums واللوز Almonds والبصل Onions والثوم garlic واللحوم المجففة dried meat وزيت الزيتون Olive oil وبكمية من الزيت Wine وبالجبن Cheese وبالبهارات spices . وكما هو واضح فإن هذه المواد الغذائية قد تميزت بالتنوع . وتشير المصادر إلى أن هذه البعثة كان في إمكانها الحصول على بعض المؤن الغذائية في حالة ما استدعى الظروف ذلك من المحطات العسكرية البرتغالية التي كانت قد أسست على طول الساحل الغربي الإفريقي أثناء رحلة بارثليميو دياز وغيره . وتقرر أن توزع هذه الكميات على البحارة على النحو التالي :

- رطل ونصف الرطل بسكويت جاف مصنوع من الدقيق والماء لكل بحار في اليوم .
- رطل لحم جاف لكل بحار في اليوم .
- مكيالان ونصف المكيال من الماء (لتران ونصف اللتر) لكل بحار في اليوم .
- نصف لتر من النبيذ المخلوط بالخل والزيت يوميا لكل بحار . وعلاوة على ذلك فقد زودت تلك السفن الأربع بكمية من السلع التجارية - كان من المعتقد أنها ستكون مفيدة في المقايضة Bartering مع السكان الأفارقة والهنود - التي تتمثل في القبعات Hats والطواقى Caps والخرز الزجاجي glass beads ، والأحواض basins (الطشط النحاس) ، والأجراس الصغيرة

little bells ، والحلقان Rings ، والأساور Bracelets التى صنعت من
الصفائح Tins .

وتقرر أن يرتدى ضباط البعثة دروعا من الصلب، بينما
ارتدى البحارة سترا بدون أكمام Darkins ، فضلا عن ارتدائهم
للدروع الصدرية Breast Plates . وفى خضم تلك الإستعدادات التى
تسير على قدم وساق ، من أجل إنجاز متطلبات هذه الحملة
الكشفية، مات الملك جون الثانى ، الذى كان مسئولاً عن إرسال
تلك البعثة، وخلفه فى حكم البرتغال الملك " عمانويل " الذى قرر
أن يزود البعثة بكافة المعلومات اللازمة لإنجاحها حتى لا تصاب
بالنكسة كبعثة بارتليميو دياز . ومن أجل تحقيق هذا الغرض حاول
الإتصال ببعض البحارة الإيطاليين للحصول على أية معلومات
خاصة بطرق الشرق وسلعه ، ولكن ذهبت محاولاته سدى ،
فاضطر أن يأمر أحد رعاياه من اليهود - ويدعى زاكوتو Zacoto -
ليعرف له الطالع ، فأخبره هذا اليهودى بحسن الطالع ، وطلب هذا
الكاهن اليهودى من الملك الاستمرار فى إعداد تلك البعثة وإرسالها.

وبعد أن تم إنجاز كل متطلبات تلك البعثة تقرر أن يكون
على رأسها فاسكو دى جاما Vasco de Gama ^(١) . الذى ولد عام
١٤٦٠م ، والذى كان عمره آنذاك ٣٦ سنة . وفى عام ١٤٧٩ م ،
رسى هذا الأسطول الصغير فى ميناء لشبونة مستعدا لبدء هذه
الرحلة الكشفية. وكان من الواضح أن العمل على متن سفن كتلك ،
يبدو قاسيا ، بل مروعا ، ربما لأن هذه السفن لم تكن قد صنعت
بشكل مريح ، بل كان يغلب عليها طابع الخشونة والبدائية ، ولكن
رغم ذلك ، بدأ هذا الأسطول الصغير فى صورة شجاعة ، ونشرت
أشرعته التى بلغت مساحتها ٤٠٠٠ م ، ورفرف من فوق الصاري
الرئيسى لكل سفينة العلم الملكى البرتغالى The Royal Standard Of
Portugal كما رفرف أيضا من فوق غرف المراقبة علم القبطان

(١) كان فاسكو دى جاما ينحدر من أسرة عريقة . وتتميز بصفات منها أنه لا يعرف الخوف كما كان حاد
للمراح وشديد القسوة ، وخاصة عندما يعارضه حد الإتصاص . وكان ظموحا معروفا . يعامل الناس على
حسب معاملتهم له ، ولكن حينما يغدر به أحد كن يعاقبه بنفسه ويؤثر أن يهتز له صمير

الذى عرف Crow's Nest ، الذى كان يتميز بلونه القرمزى . وقبل أن تبدأ البعثة رحلتها إلى الهند ، أعد لها إحتفال توديع رسمى مهيب ، فاتخذ البحارة ومعهم المودعون طريقهم على طول الشارع الرئيسى للشبونة فى هيئة موكب إلى الكاتدرائية . وكانوا جميعا على الترتيب التالى :

فاسكو وشقيقه باولو ، كانا فى مقدمة قباطنة البحر ، ومن بعدهم مباشرة الملك عمانويل والملكة ، ومن خلف الملك والملكة سار النبلاء والتجار ، ومن خلفهم سار الجنود ، ومن بعدهم أطقم السفن ، وأخيرا سار الدجرادوس والكهنة Degrados and priests . وكان الجميع ذاهبين للصلاة فى الكنيسة من أجل إنجاح الرحلة ، ومن التحلل من الخطايا والذنوب ، وليشاركوا فى إقامة القداس Holy Communion . وقد زينت شوارع لشبونة بالزهور ، واحتشد الناس على جنبات الشارع وهم فى حالة من الفرح والبهجة ، وعلقت اللافتات الحريرية على شرفات المنازل ، كتعبير عن البهجة والسرور والفرح ، لهذا الحدث الكبير الذى سيعود على البلاد بالنفع والفائدة^(١) .

بدء حملة فاسكو دي جاما الكشفية إلى الهند :

فى ٢٥ من شهر يوليو ١٤٩٧ م ، بدأ الأسطول الصغير فى الإبحار نحو الجنوب محاذيا لسواحل غرب إفريقيا ، أى أنه سار فى نفس الخط الذى سارت فيه بعثة بارثليميو دياز . وكانت تلك السفن تتوقف فى المحطات البرتغالية الموجودة ، على طول الساحل الإفريقى الغربى للتزود بما تحتاجه من مؤن ومياه عذبة ، وكانت هذه المحطات قد أنشئت بمعرفة البرتغاليين الذين قاموا برحلات سابقة وفى إحدى تلك المحطات حاول الأسطول الصغير الرسو من أجل الحصول على المياه العذبة ، لكن المواطنين الأفارقة اشتبكوا مع البحارة ، مما دفع فاسكو لاستخدام الأسلحة النارية ضد هؤلاء الناس ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة ، ويدل ذلك

^(١) Stella Davies : Ibid, 73 -74 .

على رفض الأفارقة للتعامل مع هؤلاء الغرباء . وبعد أن سارت السفن مسافة نحو الجنوب نزل بعض الجنود المسلحين للحصول على المياه العذبة مرة أخرى ، فقابلهم الأفارقة بصداقة ومودة ، إذن يمكن القول بأن الأفارقة يختلفون في معاملتهم مع البرتغاليين . عندئذ وزع عليهم الجنود البرتغاليين الهدايا المتمثلة في الطواقي والأجراس والأساور ، لهذا صاح الأفارقة فرحا وابتهاجا بهذه الأشياء ، وبعد ذلك قدم الزنوج - في مقابل هذه الهدايا - وليمة قدموا أثناءها لأفراد البعثة الفاكهة ولحم الخنزير والدجاج . كما زود هؤلاء الأفارقة رجال البعثة بالمياه العذبة وبكمية من المواد الغذائية المتمثلة في لحم الخنزير المجفف ولحم الدجاج .

بعد ذلك واصلت البعثة المسير نحو جنوب إفريقيا . وكان بارثليميو دياز قد حذر أفراد البعثة بأن يبتعدوا عن منطقة التيارات القوية . وفي تلك الأثناء تسربت مياه البحر إلى داخل السفن من خلال الشقوق الخشبية ، مما اضطر البحارة لاستخدام المضخات ليلا ونهارا لتجفيف قيعان السفن . ونتيجة لهذا العمل ، فقد تعب أفراد الأطقم من جراء هذا العمل ، وروعوا من الخوف لدرجة أنهم كانوا على حافة التمرد واضطروهم ذلك إلى مطالبة فاسكو دي جاما بالعودة إلى أرض الوطن . وفي هذه الأثناء فكر بحارة السفينة بربو في التآمر ضد قائد تلك السفينة - المدعو كيولهو Coelho - وذلك بحبسه في إحدى غرف السفينة ثم يتولون هم قيادة السفينة إلى أرض الوطن ، عندئذ يتجنبون محاولة الدوران من حول منطقة الرأس التي دارت بعثتهم من حولها عام ١٤٩٨ م^(١) ، ولكن عندما علم كيولهو بذلك تظاهر بالتعاطف مع البحارة ، ودعاهم للتشاور ، وأخبرهم بأنه سيذهب إلى سفينة فاسكو دي جاما لمقابلته ، ومحاولة إقناعه بالعودة إلى أرض الوطن ، وليخبره أيضا ببداية تمرد البحارة ، وعندما سمع فاسكو ما قصه عليه كيولهو وعده بأنه في حالة استمرار الجو في عدم الاستقرار ، فإنه سيتخذ قرارا بالعودة إلى البرتغال ، وكل ما طلبه فاسكو من كيولهو هو أن يؤمنه

^(١) Wallace W . At Wood : the Groth of nations . U.S.A . 1994 .p. 27 .

البحارة فقط من غضب الملك ، وذلك بقيامهم بالتوقيع على بيان يشير إلى استحالة التقدم أكثر من ذلك ، وقد وافق طاقم السفينة "بريو" بسعادة على هذا الشرط . ومن الواضح أن فاسكو كان يضلل البحارة حتى لا يفكروا في القيام بالتمرد ، وحتى يتمكن من وضع خطة للقضاء على ما يمكن أن يحدث في المستقبل من تمرد .

وكان مخبر السفينة "بريو" قدم أسماء خمسة بحارة من قادة المتمردين لقائدها كيولهو ، فدعا كيولهو هؤلاء الخمسة المتمردين على الفور للصعود على متن السفينة سنت جبريل - وهي سفينة فاسكو دي جاما - لمناقشة آرائهم أمام فاسكو دي جاما . وعندما رآهم فاسكو دي جاما ، وقف إلى جانب الممر الذى سيدخلون منه إلى كبينة سفينته ، ولما دخلوا جميعا أغلق فاسكو الباب عليهم ، وبعد ذلك قام أفراد طاقم سفينته ، بطرح الخمسة المتمردين أرضا ، ثم قيدوا أيديهم وأرجلهم بالسلاسل وتركوهم وحالهم . وبعد ذلك واصل فاسكو الإبحار بسفينته حتى أصبح بمحاذاة سفينة كيولهو ، وأخبره بما حدث لهؤلاء البحارة المتمردين حتى يخبر كيولهو بالتالى زملائهم بما حدث ، وأضاف فاسكو فى قوله: إنه ليس بحاجة إلى الجبناء الذين فى إمكانهم العودة إلى أرض الوطن ، إذا شاءوا ذلك ، ثم واصلت البعثة الإبحار إلى الهند لتحقيق هدفها المنشود .

لم يحدث أى تمرد بعد ذلك ، فبرغم أن بحارة السفينة "سنت روفائيل" كانوا فى حالة من البؤس ، إلا أنهم لم يقوموا بأى تمرد . وكان باولو Paulo شقيق فاسكو دي جاما قد زار المساجين على متن السفينة "سنت جبريل" وزار أيضا طاقمى كل من السفينة "بريو" وسفينة المؤن . ويعتبر باولو الرجل اللين الذى يتعامل مع البحارة بلطف، فكان قد طلب من الجميع أن يشكروا الله على أنهم لا يزالون على قيد الحياة ، وإن كل هذه المشاكل ستنتهى نهاية طيبة . وبعد تجوال باولو على متن السفن إطمأنت نفوس البحارة ، خاصة بعد أن وعدهم بأنه سيتعطف فاسكو دي جاما بأن

يصفح عن المساجين ، وأن يفك أسرهم . بهذه السياسة اللينة نجح باولو في القضاء على ظاهرة التمرد التي كادت أن تدب في صفوف البحارة من حين لآخر .

وصول حملة فاسكو دي جاما إلى شرق أفريقيا :

بعد فترة من الوقت دارت البعثة من حول رأس العذاب The cape of Torment كما كانت تسمى في ذلك الوقت ، أو رأس العواصف The Stormy Cape التي سميت فيما بعد برأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope ، وفي تلك الأثناء كانت كمية كبيرة من المواد الغذائية قد فسدت بسبب تسرب الماء المالح إليها ، كما تحطمت براميل المياه العذبة بسبب اهتزاز السفن أثناء هبوب العاصفة . وقد عان الكثير من البحارة من مرض الإسقربوط ، وكان الجميع منهكا حتى أن أفراد الطاقم الذين ظلوا مخلصين لفاسكو دي جاما طوال الرحلة أصبحوا بعد ذلك كسولين وسلبيين ، وفي حالة نفسية يائسة .

وواجه فاسكو دي جاما في تلك الأثناء بعض الصعاب التي منها صعوبة العثور على إيجاد ميناء ترسو فيه السفن ، مما اضطره ذلك إلى الإبحار في مصب نهر يوجد على ساحل المحيط الهندي الغربي في جنوب أفريقيا ، كي يرسو بسفنه فيه ، وسمى فاسكو دي جاما هذا النهر بنهر الرحمة The River of Mercy ، وسمى الأرض الواقعة بجواره إقليم ناتال (أى أرض الميلاد) . فكلمة ناتال هي الكلمة المشتقة من الكلمة اللاتينية نتاليس Natalis ، التي تعنى يولد ، فهذا اليوم الذى دخل فيه فاسكو هذا النهر كان يوم عيد الميلاد . وقد حمل فاسكو المرضى إلى الشاطئ لمحاولة معالجتهم ، وهناك صلى البحارة صلاة شكر لله ، والتقوا مع عدد قليل من الأفارقة البدائيين الخجولين ، ووزعوا عليهم بعض الهدايا من خرز وأساور وحلقات وحصلوا منهم على بعض الفاكهة والأطعمة .

من المحتمل أن يكون هؤلاء الأفارقة من شعب البوشمن Bushmen - الذين يعيش أحفادهم في الوقت الحاضر في صحراء كلهارى - وأحضر هؤلاء الأفارقة الطعام للبحارة المصابين بالهزال ، كما أنهم أعطوا فاسكو الكثير من الفاكهة البرية والأعشاب التى يمكن إستخدامها فى علاج المرضى . وكانت البعثة قد صادفت بعض الصعاب التى منها فقدانها لمائة بحار ، ومنها أيضا مهاجمة مرض الإسقربوط للبحارة من حين لآخر ، ومنها كذلك ميل سفينتان على جنبهما مما اضطر فاسكو دي جاما إلى تفكيك سفينة من السفن لاستخدام أخشابها فى إصلاح السفينتين الأخريين . وفى نفس الوقت أصلحت البراميل وملئت بالمياه العذبة، كما جففت المستودعات ، وتم التخلص من الكميات الزائدة من الطعام بإلقائها فى البحر . وحصل فاسكو على مواد غذائية جديدة من الوطنيين الأفارقة . ويمكن القول أنه بنهاية شهر فبراير عام ١٤٩٨ م ، تقلص عدد سفن الأسطول الصغير إلى ثلاث سفن، كانت قد بدأت الإبحار فى مياه المحيط الهندى . وبعد فترة من المسير إقتربت تلك السفن من حدود الحضارة العربية . فقد وصلت تلك البعثة إلى حدود سوفالا Sophala المحطة العربية التجارية الواقعة فى أقصى جنوب القرن الإفريقى .

سوفالا

هى إحدى مدن إفريقيا الشرقية ، فكانت مدينة سوفالا هذه تضم من المظاهر الحضارية قدرا كبيرا ، مما جعل البرتغاليين يندهشون لرؤيتها ، ففى بعض الجوانب كانت هذه المظاهر الحضارية تفوق ما يمكن مشاهدته فى البرتغال . فقد شاهد البرتغاليون المنازل العالية المبنية من الأحجار . وكانت شبابيك تلك المنازل مطعمة بالزجاج الملون الجميل ، ورصفت أرضيات المنازل بالقرميد المنقوش . وزودت المساجد فيها بأرشات عالية ، وبأعمدة مرتفعة . وشاهد أفراد البعثة واجهات المحلات المطلية

بالنحاس المشغول ، التى كانت تحوى السيوف المصنوعة من الصلب والمزينة بالزخارف . وكان من السلع التى تباع فى هذه المحلات المجوهرات الفضية والذهبية والحريير . وزاد إندهاش البرتغاليين أكثر عند مشاهدتهم للتوابل المتنوعة الموجودة بكثرة فى سوفالا ، وتأكدوا من أن وجودهم فى تلك المدينة سيمكنهم من التعرف على الجهة التى تأتى منها هذه السلع التابلية التى يرغبون فى الحصول عليها ، والتى جاءوا من أجلها . ورحب تجار سوفالا بالبرتغاليين ، وأقاموا لهم وليمة إحتفاء بقدمهم ، كما أعدوا لهم عرضا راقصا ، وأطلع تجار سوفالا على عينات من التوابل التى كان البرتغاليون قد أحضروها معهم ، ولكن تجار سوفالا أخبروهم بأن كل الأنواع التى أحضروها معهم موجودة لديهم بما فى ذلك السكر ، الذى كان يعتبر حتى ذلك الحين من التوابل . فكانت هذه التوابل تستورد من أقصى مكان فى الشرق عن طريق الهند ، فمراكب العرب المحيطية المعروفة بالدوس Dhows كانت تذهب بانتظام من زنجبار إلى فاليقوط ، حيث كان يوجد هناك مستودع لتجارة الشرق الأقصى ، فكان التجار العرب يشترون ما يرغبون فى شرائه من التوابل ، ويعودون بسفنهم وهى محملة بتوابل الشرق . وقد سجل كاتب البعثة بأن الناس فى سوفالا كانوا خليطين من الزنوج والعرب المولدين ، وكان الجميع يدينون بالعقيدة الإسلامية ، فبوصول البعثة إلى سوفالا ، تكون قد وصلت إلى جنوب العالم الإسلامى المعروف للأوربيين فقط عن طريق البحر المتوسط .

بعد أن مكثت البعثة مدة قصيرة فى سوفالا ، غادرتها فى اتجاه الشمال نحو موزمبيق ، كان ذلك فى شهر مارس من عام ١٤٩٨ م ، وبذلك تكون البعثة قد قضت شهرين فى عرض المحيط قبل وصولها إلى موزمبيق ، ومرة ثانية هاجم مرض الإسقربوط البحارة ، ولكن كان باولو شقيق فاسكو يقوم بتمريض المرضى بإخلاص ، بل كان يجلس معهم ليخفف عنهم الألم ويريحهم فى ساعاتهم الأخيرة من عناء المرض . وكان يجرى لهم بعض

العمليات الجراحية ، فكان باولو يقوم بقطع الأجزاء المريضة من الجلد البشرى المصاب بالغرغرينة Gangreened Fish فى محاولة منه لإنقاذ حياتهم ، ومع ذلك مات منهم ثلاثون بحارا ، وبقي على قيد الحياة ١٢٠ شخصا من جملة العدد الأصلي البالغ ٢٥٠ بحارا .

عندما اقتربت البعثة من ميناء موزمبيق شاهد أطقم السفن البرتغالية قاربا وطنيا صغيرا يعرف بالسنبوك ، فنادى أفرادها على بحارة هذا المركب ، ولكنهم خافوا وقفزوا من على متنه وهم فى حالة من الرعب والجنون بسبب رؤية البحارة البيض بزيهم الغريب ، وسبحوا فى المياه حتى وصلوا إلى الشاطئ . وكان على متن هذا القارب تاجر يتحدث العربية ، ويعرف باسم - دافانا Davana - الذى نادى البرتغاليون عليه فرد هذا التاجر الموزمبيقى على البرتغاليين بعربية طليقة ، وبعد ذلك أحضر التاجر على متن السفينة سنت جبريل ، وعرف عنه بأنه أول شخص ذكى ومتعاون ، ويتحدث الهندية والإفريقية إلى جانب العربية . وبعد ترجمة حديث دافانا بواسطة اليهودى المدعو زاكوتو Zacoto أو المسيحى الجديد - الذى كان مرافقا للبرتغاليين ، والذى كان يتحدث أيضا عدة لغات منها العربية - وافق دافانا على إصطحاب البرتغاليين فى رحلتهم ، وعلى القيام بدور الدليل والوسيط فى آن واحد .

موزمبيق :

موزمبيق من مدن شرق أفريقيا ، فعندما وصلت بعثة فاسكو دي جاما إلى تلك المدينة أحيطت بالقوارب التجارية الصغيرة ، فالناس متعودون على رؤية مثل هذه السفن فى البحر ، واعتقدوا بأن البرتغاليين مسلمين مثلهم . ففى البداية كان الجميع فى حالة صداقة وسرور ، وتظاهر فاسكو دي جاما بأنه يبحث عن شراء السلع التابلية ، لذلك لم يقل شيئا عن مقصده الحقيقى المتمثل فى القضاء على وساطة العرب ، وذلك بالبحث عن طريق يصل بين بلادهم وبين مصادر السلع التابلية الآسيوية دون وسيط . وفى

موزمبيق أخبر سكانها فاسكو دي جاما بأن سفنا كثيرة ستأتى من الشمال ، وهى محملة بشحنات من الذهب والفضة والكركاديه Calve والفلفل الأسود Pepper ، والزنجبيل ginger والنيلة Indigo ، وزبل الحمام* Pigeons dung ، الذى كان يستعمل فى الصبغة فى قاليقوط .

وسرعان ما ظهر بعض الشك ، خاصة بعد معرفة جنسية الوافدين ، ففى موزمبيق كان يوجد بعض النصارى ، الذين كانوا ينتمون إلى أصل أثيوبى ، والذين كانوا عبيدا للعرب ، فقد تعرف هؤلاء العبيد المسيحيون على الرموز التى كانت على السفن البرتغالية ، والتى كان منها تمثال الملاك جبريل ، الذى كان موضوعا على مقدمة السفينة سنت جبريل . وعندما كان هؤلاء العبيد المسيحيون قادمين على متن سفينة حاملة سلعا لأسيادهم العرب ، وقف هؤلاء العبيد وأدوا صلاتهم وهم يحركون أيديهم إشارة إلى الصليب .

ويلاحظ أنه على الرغم من أن بشرة البرتغاليين كانت داكنة مثل بشرة الأتراك أو الهنود ، إلا أنهم لم يتحدثوا التركية ، أو الهندية ، فبمجرد أن سمع سلطان موزمبيق الشيخ خوايا Khwaya عن هذه الأحداث ، قرر القيام بزيارة إلى سفن البرتغاليين بصفته الشخصية الرسمية ، فعندما وصل شيخ موزمبيق إلى سفن البرتغاليين على نحو مفاجئ ، وقف زورقان مما كان برفقته جنبا إلى جنب واستخدما كرصيف ثم ثبت فوقهما مظلة حريرية ليجلس تحتها هذا السلطان ، على كرسى دون ظهر Stool ، غطى بوسادة حريرية ، وكان برفقة هذا السلطان ، رجال حاشيته ، وعندما التقى السلطان بفاسكو دي جاما دارت بينهما محاوراة كلامية ، كان السلطان أثناءها يحاول معرفة هوية هؤلاء الأشخاص ، وهدف وطريق الرحلة ، وكان فاسكو من ناحيته يحاول أن يخفى الحقيقة بالمرأوغة ، فلم يصرح بها كاملة ، فلقد قال فاسكو : " إنهم تجار

* زبل الحمام تعنى بذور نباتية تستخدم لصناعة الصبغة . (المؤلف)

قدموا من بلد بعيد أى أنهم جاءوا ليلبحثوا عن المكان الذى تأتى منه التوابل والحرير والمجوهرات والمعادن الثمينة الأخرى ، وأضاف بالقول بأن السلع التجارية التى أحضروها للمبادلة ، قد فقدت فى البحر بسبب طول رحلتهم ، التى بدأت منذ سنتين .

ورغم ذلك فإنهم يملكون النقود الذهبية والفضية بالوفرة اللازمة لشراء السلع الشرقية ، ورغم مراوغة فاسكو دي جاما إلا أنه أخبر بالحقيقة عندما قال : إنه لا يعرف المكان الذى وصلت إليه البعثة ، وأنه يتوق إلى العودة إلى أرض الوطن بأسرع ما يمكن ، ولم يقل شيئاً عن رغبته فى اكتشاف الطريق إلى الهند ، ولم يقل أيضاً إنه سيؤسس هناك علاقات تجارية للمغامرات فى المستقبل خشية أن يكشف أمره أمام سلطان موزمبيق الذى كان يرتاب فى أمره^(١). وطلب سلطان موزمبيق من فاسكو دي جاما عدم الذهاب إلى أبعد من ذلك ، لأن كل شئ يطلبه يمكن شراؤه من موزمبيق ، أو يقوم السلطان بتدبيره له ، وأبدى فاسكو إقتناعه بما يقوله السلطان، وقدم فاسكو للسلطان خمسة أذرعة من القماش القرمزى اللون وخمسة أذرعة من السيتان (الحرير) ، وطاقيتين قرمزيّتين اللون أيضاً ، وأربع سكاكين من صنع مقاطعة الفلندرز Flanders - هى المقاطعة القديمة التى قسمت بين فرنسا وبلجيكا وهولندا فى مطلع التاريخ الحديث^(٢) . - إضافة إلى مرآة. ورغم كل ذلك فإن هذا السلطان لم يكن مقتنعاً بكل ذلك ، لأنه سمع من عبيده أنه فى كل صباح يجتمع هؤلاء البحارة على متن السفن ليمارسوا طقوسهم الدينية ، لهذا إقتنع السلطان بأن البرتغاليين كانوا من المسيحيين ، لذلك فهم أعداء له. وفى أثناء تلك الفترة ، حاول السلطان إستمالة دافانا بالرشوة ، لكنه لم ينجح لأن دافانا كان ميالاً للبرتغاليين ومعجباً بهم وبنظامهم ، ومبهوراً بفن الملاحة لديهم ، . وقد سمع عن القصة الحقيقية لرحلتهم ، لذلك عقد صداقة مع اليهودى زاكوتو، لكى يتعرف على الكثير منه عن البرتغاليين .

^(١) Stella Davies : Op. Cit. pp . 74-88 .

^(٢) The New Oxford Encyclopedic Dictionary Bay books in association with Oxford University Press . London 1983 . p. 633.

بعد ذلك صمم سلطان موزمبيق على قتل البرتغاليين ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، نافق دافانا أو خدع دافانا ، فأرسل معه رسالة إلى فاسكو يدعوه فيها وطاقمه إلى وليمة Feast ووعدته سلطان موزمبيق بمعالجة مرضاه . وكان دافانا قد حذر السلطان من قوة السلاح الذي يمتلكه البرتغاليون ، لهذا خشى السلطان أن يدخل معهم في مواجهة ، لكنه قرر اللجوء إلى الخديعة . وفي تلك الأثناء سلم دافانا رسالة السلطان إلى فاسكو ، ونصحه بأن سفنه سيتم الإستيلاء عليها ، وأن أطقمها وقباطنتها سيغتالون بعد الوليمة خاصة بعد أن تمتلئ بطونهم بالطعام والشراب . فعلى الفور قرر فاسكو دي جاما مغادرة موزمبيق ، عندئذ أرسل دافانا إلى الشاطئ ليحصل على مؤن لكنه لم يجد هناك شيئا يمكن شراؤه باستثناء وجود كمية قليلة من الذرة والسمك ، لأن التجار في موزمبيق كانوا قد منعوا من التعامل مع البرتغاليين ، لهذا قرر فاسكو الإبحار دون الحصول على مؤن ، ولكنه كان في حاجة للحصول على مياه عذبة وفي أثناء ذلك ، إلتقى دافانا برجل عرض على أطقم فاسكو أن يقودهم إلى بئر ماء ، كان هذا الرجل من جواسيس سلطان موزمبيق ، فقاد البرتغاليين إلى جداول مائية صغيرة ساروا فيها صعودا وهبوطا تحت الأشجار ، وكان هذا الرجل (الدليل) يعمل على تعويقهم وتضليلهم حتى يأتي وقت الجزر ، ففي هذه الحالة تترك السفن في عرض البحر ولا يستطيع البرتغاليون إستخدامها . وفي النهاية قادهم إلى مكان المياه Water place ، الذي كان مخفورا من قبل السلطان بواسطة رجال مسلحين بالحراب والأقواس والسهام ، ومع ذلك تمكن البرتغاليون من التغلب على هؤلاء الحراس وقتلهم ، بعدئذ ملأ البرتغاليون البراميل بالمياه العذبة ، وأسرعوا بالعودة إلى السفن وقصفوا المدينة بالقنابل ، وخلفوا من ورائهم تدميرا كبيرا . بعد ذلك أبحروا إلى خارج الميناء ، وكانوا قد فعلوا ذلك في اللحظات الأخيرة من حدوث الجزر .

لم يكن ضرب مدينة موزمبيق ضروريا ، ولكن ما عمل كان بقصد إجراء لامتنصاص غضب فاسكو دي جاما ، الذى نتج عن تصرف السلطان الموزمبيقى . وكان هذا بمثابة كارثة لمستقبل العلاقات مع العرب ، وفى تلك الأثناء إنتشرت الإشاعات على طول الساحل الشرقى لإفريقيا بسبب الأضرار التى نجمت عن ضرب موزمبيق من قبل البرتغاليين . وفى نفس الوقت تسربت الحقائق الخاصة بأهداف البعثة البرتغالية إلى كل منطقة شرق أفريقيا ، فعرف سكانها أن البرتغاليين من المسيحيين ، وعلى هؤلاء السكان إثبات أنهم قادرون على التصدى للإختراق الأوروبى لبلادهم ، وكان سلطان موزمبيق قد حذر سلطان ممبسة - المركز التجارى الكبير التالى الواقع على الساحل بأن البعثة البرتغالية تقترب من مدينته ، ونصحه بأن يقوم بتدمير هؤلاء النصارى قبل أن يقوموا بمهاجمته .

مبسة :

هى من مدن شرق إفريقيا الإسلامية أيضا ، فعندما علم سلطانها المدعو داو Dohow بقدوم البرتغاليين ، قام بإرسال مركبا شراعى صغيرا لمقابلة البرتغاليين عند مصب الميناء ، وكان هذا المركب مشحونا بالفواكه والهدايا ، وكان على متنه إثنان من المرشدين اللذين ذهبا ليحضرا السفن البرتغالية الثلاث إلى الشاطئ أى إلى ممبسة . واعتقد فاسكو قبل ذهابه إلى ممبسة بأنه يوجد فيها عبيد نصارى ، كما هو الحال فى موزمبيق ، لهذا السبب أرسل إثنين من بحارته بصحبة دافانا لى يقابلا سلطان ممبسة ، وهناك وجد دافانا ومن معه عددا كبيرا من العبيد النصارى ، كما وجنوا عددا قليلا من الرجال المحررين ، الذين دفعوا الكثير من الأموال من أجل الحصول على حريتهم ، لهذا سمح لهم بممارسة التجارة . وكان هؤلاء العبيد المحررين ودودين مع البرتغاليين ، لكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ، وليس لهم أى نفوذ يذكر ، وكان أحدهم يمارس التجسس لصالح ممبسة .

وقد أتاح دافانا الفرصة للبحارة البرتغاليين بصفته دليلهم ،
كى يحصلوا على ما يستطيعون الحصول عليه من معلومات من
العبيد المسيحيين فى ممبسة ، وفى نفس الوقت ، زار دافانا
السلطان ، الذى وعده بأنه سيبيع للبرتغاليين المواد الغذائية
والفاكهة، ولحوم الطير ، والغنم ، إضافة إلى التوابل ، فى حالة
وصول السفن البرتغالية إلى الشاطئ. وكان فاسكو دي جاما بحاجة
ماسة إلى تلك المواد الغذائية اللازمة لطاقمه ، لهذا سمح لمرشدى
السلطان بقيادة السفن إلى الشاطئ ، وبالقرب من الشاطئ إرتطمت
السفينة سانت جبريل بالشعب المرجانية ، فأمر فاسكو دي جاما تلك
السفن بالرسو وإنزال أشرعتها ولفها وذلك لإصلاحها ، وعلى
الفور أرسل فاسكو إشارات تحذيرية إلى السفينتين الأخريين ؛
السفينة سنت روفائيل ، والسفينة بربو ، كى تأخذا حذرهما وحتى
لا ترتطما بالصخور المرجانية . وفى تلك الأثناء انفجر فاسكو دي
جاما فى واحدة من ثورات غضبه العنيفة وأمر بتكبيد المرشدين
التابعين للسلطان بالسلاسل ، ولكن قفز أحدهما من على متن
السفينة، وسبح فى الماء حتى وصل إلى الشاطئ ، وعذب الآخر
بسكب الزيت المغلى عليه حتى اعترف بأن سلطان ممبسة أمره
بالعمل على جعل السفن تجنح فى المياه الضحلة أى أن سلطان
ممبسة كان ضد قدوم البرتغاليين إلى بلاده .

وفى تلك الأثناء كان الجزر قد بدأ مما أدى إلى جنوح
السفينة سانت جبريل، وتحطم كابل الرسو . لهذا مكث البرتغاليون
ساعات عدة فى خطر كبير . وعلى الرغم من الأخطار التى
أحاطت بالسفينة سنت جبريل ، التى استمرت لساعات عدة ، إلا
أنها تمكنت بعدها من الطفو بسبب التمرس فى الخبرة، وفى فن
الملاحة ، خاصة عندما عاد المد فى منتصف الليل . عندئذ خرجت
السفينة من الميناء بأمان ووصلت إلى عرض البحر فى مطلع
الفجر . أما السفينتان الأخريان فقد تبعتا السفينة سانت جبريل ،
خاصة وأنهما لم يجنحا فى المياه الضحلة . ومكث مرشد السلطان

مع البرتغاليين ، وهو مكبل بالحديد ، ولم يعرف أحد عنه شيئا بعد ذلك ، فربما يكون البرتغاليون قد احتفظوا به معهم .

حاول فاسكو دي جاما من طرفه إيجاد قواعد صديقة على طول ساحل شرق أفريقيا لتكون بمثابة موانئ تتوقف فيها السفن البرتغالية في المستقبل ، لكن العرب حالوا دون تحقيق هذا الهدف ، لذلك قرر فاسكو العمل على إضعاف النفوذ العربى فى منطقة شرق أفريقيا ، وذلك بالتعاون مع بعض التجار من غير العرب ، ومع حكام بعض المدن غير العربية . هذان الأمران ، أوحيا للبرتغاليين بإمكانية التحالف مع عناصر السكان من غير العرب ، لكي يحققوا أطماعهم ، وكان العرب قد فتحوا الساحل الشرقى لأفريقيا منذ زمن بعيد ، واستقروا فى المدن الكبيرة ، ولكن سيطرتهم على المدن الصغرى كانت محفوفة بالمخاطر ؛ لأن حكام تلك المدن الصغيرة كانوا من الزعماء الوطنيين ، وكان يوجد لديهم إحساس بعدم الرضا أو الإرتياح عن الحكام العرب ، كما أن السكان المحليين كانوا يرفضون النفوذ العربى ، ربما لسوء معاملات الحكام العرب للسكان الأفارقة .

مالندى:

كانت مالندى من مدن شرق أفريقيا ، فهى ميناء تجارى صغير يقع إلى الشمال من ممبسة ، التى تعرضت إلى محاولات طويلة وملتوية وناجحة من جانب البرتغاليين ، بهدف العمل على سوء العلاقة بين سلاطينها وسلاطين المدن الأخرى ، فقد تعارك سلطان موزمبيق مع سلطان مالندى ، لهذا لم يأسف سلطان مالندى عند سماعه بضرب مدينة موزمبيق بالقنابل البرتغالية . وفى ذات الوقت كانت ممبسة فى حرب مع مالندى على نحو متقطع مستمر قرابة القرنين من الزمن ، وعندما أقرب فاسكو من شاطئ مالندى أرسل دليله (دافانا) إلى المدينة ، فاستقبل هناك بكرم ، وأخبر دافانا سلطان مالندى بقدوم البرتغاليين ، فاستشار هذا السلطان

عرافا فنصح به بأن يعامل البرتغاليين معاملة حسنة ، وبعد ذلك عاد دافانا إلى السفينة ، وهو يحمل معه بعض الهدايا ، ودعوة من السلطان باستضافة البرتغاليين . وكان فاسكو حذرا جدا ، بحيث رفض الرسو في ميناء مالندى ، وأرسل رسالة مهذبة إلى السلطان مصحوبة بهدية عبارة عن ثلاثة أحواض للغسيل ، وعقدين من خرز المرجان ومعطف مثل الذى كان يرتديه رهبان الرحمة . وكان فاسكو دي جاما على يقين من أن مخزونه من الهدايا ملائما لرجال القبائل البائسين ، ولكنها ليست بالقدر الكافى الذى يتناسب مع حكام موانئ عربية . فمن المحتمل أن البرتغاليين لم يتوقعوا أن يجدوا نفوذ العرب راسخ فى الساحل الشرقى لأفريقيا ، فعندما كان فاسكو دي جاما يقدم هدية لأحد الحكام ، كان يقول : " إن هذه الهدية منى بصفة شخصية ، وأنا لا أتعدى كونى مجرد قبطان بحرى فقير ، وليست من ملكى الغنى غناء فاحشا " ، هذا أسلوب فيه مكر وخداع . وقبل سلطان مالندى الهدية التى قدمها له فاسكو ، والتى كانت عبارة عن أحواض غسيل ، فعلى الفور انطلق هذا السلطان بالمركب الملكى ليزور البرتغاليين فى عرض البحر فى مركب شراعى . وهناك قابله فاسكو دي جاما ، وكان هذا السلطان مرتديا ثوبا حريريا دمشقىا مزيئا بستان أخضر . وكان يحمل سيفاً مرصعا بالجواهر ، مغروز فى حزامه ؛ الذى كان مرصعا أيضا بالفضة والياقوت ، وجلس هذا السلطان على كرسى مصنوع من البرنز ، تحت ظل شمسية قرمزية اللون ، وكان بصحبته رجلان موسيقيان يعزفان على أبواق ضخمة مصنوعة من سن الفيل .

كان فاسكو دي جاما مدركا لتفاهة هداياه ، إذا ما قورنت بمكانة السلطان الكبيرة ، لهذا قدم فاسكو لسلطان مالندى المرشد الذى كان قد أسره من ممبسة ، كما قدم له بعض المساجين الذين تم أسرهم عند بئر ماء فى موزمبيق ، ليستعملهم السلطان عبيداً له ، وألح السلطان على فاسكو ليرسو بسفنه فى مدينة مالندى ، ولكن فاسكو اعتذر له . عند ذلك فهم الإثنان كلا منهما الآخر فهما جيذاً ، ولم يشعر السلطان - الذى كان رجلاً ذكياً - بأية إهانة ، فبعد أن

عاد هذا السلطان إلى مالندى ، أرسل هدايا كثيرة إلى البرتغاليين ، كما وافق على الإتجار معهم ، بل تعهد لأية سفينة برتغالية تأتي إلى مالندى بتزويدها فى المستقبل بالمؤن ، وفى مقابل ذلك طلب هذا السلطان من فاسكو أثناء رحلة العودة إلى وطنه أن يقوم بمساعدته فى ضرب مدينة ممبسة بالقنابل ، ووافق فاسكو على هذا المطلب ، ووقع إتفاقية بينه - كممثل للملك البرتغالى - وبين السلطان . يدل هذا على مدى الخلافات المستحكمة بين سلطاني ممبسة ومالندى .

بعد أن ربطت المصالح المشتركة بينهما ، قرر فاسكو المخاطرة بالذهاب إلى مالندى ، وطلب البحارة منه أن يسمح لهم بالنزول إلى الشاطئ لعدة أيام ، لأنهم أقاموا علاقات شخصية مع بعض الرجال والنساء اللائى زرن السفن البرتغالية فى عرض البحر ، وقد استقبل فاسكو ورجاله على الشاطئ بالحفاوة الكبيرة ، التى تمثلت فى عزف الموسيقى والرقص وإقامة الولائم وأعدت للبرتغاليين مباراة صورية فى الملاكمة ، ووجدوا فى هذا المكان تسلية على كل المستويات أى للعامة والخاصة ، وقد أمر السلطان أن تكون أسعار بيع جميع السلع معتدلة بالنسبة للزوار ، ونفذ هذا الأمر بكل بدقة . وكانت مالندى مدينة كبيرة جدا بها مباني كثيرة وجميلة فمنازلها مبنية من الحجر ، وتميزت تلك المنازل بالسماط العربية أكثر من أى مكان آخر شاهدته البرتغاليون ، منذ أن غادروا الساحل الإفريقى الشمالى الغربى . وكان يوجد فى هذه المدينة أناس كثيرون منهم العبيد والخدم ومنهم الوطنيين -الذين يعملون لدى العرب - وربما بفضل نفوذ السلطان - الذى كان أفريقيا ، وهناك وجد قدرا أقل من الإضطهاد ضد هؤلاء العبيد ، الذين كانوا أفضل حالا عما يحدث لغيرهم فى موزمبيق ، وفى تلك المنطقة كان السكان من السود الذين يرتدون زيا من القماش القطنى أو الحريرى . وفى مالندى وجدت وفرة فى الطعام الذى يتمثل فى الأرز والدخن والقمح المستورد من الهند ^(١) .

(١) Stella Davies . op. cit ., pp. 80 - 89 .

قبل مغادرة البعثة مالندى فى طريقها إلى الهند ، زودت بالطعام والمياه ، وأقام سلطان مالندى وليمة لرجال تلك البعثة البرتغالية ، ومنح فاسكو سلطان مالندى مبلغا من النقود البرتغالية ، كما أقام عمودا من الرخام على الشاطئ لإحياء ذكرى المعاهدة الموقعة بين فاسكو دي جاما و سلطان مالندى ، بحيث يكون معلما لبعثات المستقبل ، ولا يزال هذا العمود قائما ، فهو أول بناء دائم شيده البرتغاليون على ساحل أفريقيا الشرقى . وقبل مغادرة البعثة لمالندى سمح سلطانها لرجالها أيضا بالاحتفال بقداش يقام على شاطئ البحر . وفى هذا الصدد قال السلطان " إفعلوا ما يحلوا لكم ، كما تفعلون فى بلادكم داخل أو خارج المدينة " . وفى احتفال كبير أقيم مذبحا بجوار العمود الرخام ، الذى أقامه فاسكو ، وغطى هذا المذبح بقماش ثمين ، ووضع بجواره تمثالا للسيدة مريم العذراء . وبعد ذلك قرئ القداس ، وتناول الجميع من أعضاء البعثة القربان والتف أناس من مالندى حول رجال البعثة فى دهشة وأعجبهم ما حدث ، ورسم بعض العبيد الصليب ، وركعوا وهم يتذكرون الطقوس ، التى كانوا يقومون بها فى طفولتهم .^(٢)

مغادرة بعثة فاسكو دي جاما شرق أفريقيا إلى الهند :

فى أغسطس ١٤٩٨ م ، غادرت البعثة البرتغالية مالندى متوجهة صوب الهند ، بعد أن كانت قد قضت مدة تزيد على السنة؛ أى منذ مغادرتها للبرتغال ، وعبرها من مالندى إلى الهند ، ولم تكن السفن البرتغالية مصحوبة بأى أحداث تعوق تقدمها^(٣) . لأن سلطان مالندى زود البعثة بمرشد من أفضل ما عنده ، فتمكنت تلك البعثة من الوصول إلى الهند بعد عشرين يوما من السفر ، وفى تلك الأثناء إنتاب فاسكو بعض الهواجس حول طبيعة إستقبال البعثة فى الهند ، ورغم ذلك كان يشعر بسعادة بسبب الإنجاز الذى حققه . وبعد وصول البعثة إلى الهند ألقى بمراسيه على شاطئ قاليقوط

^(٢) Ibid . pp 75 – 89 .

Herman Bondi : Towards New Frontiers . London , 1969 , p. 6.

الواقعة على ساحل الملبار ، الذي كان عبارة عن شريط طويل ضيق وساحلي يقع على المحيط الهندي ، وكانت قاليقوت مقسمة إلى عدد من الممالك الصغيرة ، التي كانت موانيها عبارة عن مستودعات ومتاجر ضخمة للتجارة الهندية ولتجارة الشرق الأقصى. وكانت هذه التجارة تتم بمقتضى معاهدات مع ملوك مختلفين ، وكان من أهمهم العرب ،^(١) الذين احتكروا هذه التجارة بسبب ثرائهم وقوتهم وكثرة عددهم ، والذين مكنتهم هذه العوامل المختلفة من تحويل الكثير من سكان الملبار إلى العقيدة الإسلامية ، بل من إقراض بعض ملوك هذه المنطقة بالأموال ، ونخص بالذكر ملك قاليقوت الذي كان يقترض أموالا طائلة من العرب ، ورغم ذلك حاول أن يستعين بالبرتغاليين ليتحرر من هذا النفوذ العربى .

فى الهند قال أفراد البعثة أنهم سفراء من قبل ملك البرتغال . وأنهم يشكلون جزءاً من أسطول كبير ما تزال بقيته فى الطريق إلى الهند ، كانوا يحكون ذلك إلى الصيادين الذين قدموا فى جماعات إلى السفن البرتغالية ، وفى تلك الأثناء ظل البحارة البرتغاليين مدة ثلاث أيام على متن سفنهم فى شاطئ قاليقوت حريصين على أن يدفعوا أسعار مغرية للسكان ، بل إنهم كانوا يعطونهم نقوداً أكثر ، عوضاً عن المشقة الناجمة عن إحضار سكان قاليقوت القوارب المملوءة بالسلع غير المرغوب فيها من جانب البرتغاليين . وفى تلك الأثناء ، أرسل ملك البرتغال رسالة إلى ملك الملبار يحثه فيها على ضرورة مقابلة أفراد البعثة ، فأرسل ملك الملبار رسولا من طرفه إلى فاسكو دي جاما ، كان هذا الرسول رجل نبيل المولد يغطى نصفه الأسفل بقماش أبيض ، وكان يحمل معه سيفاً طوله ذراع ودرعاً مستديراً ، وكان شعره مسترسلاً ، حول رأسه فاستقبله فاسكو دي جاما بحفاوة ، وحضر هذا اللقاء كلا من : دافانا واليهودى زاكوتو ، حيث عملاً كترجمين ، وسأل رسول ملك الملبار فاسكو دي جاما أسئلة كثيرة عن البعثة وعن غرضها ، فأخبره فاسكو بالقصة المتفق عليها مع البحارة التى كان مفادها أن

(١) Stella Davis: op. cit .p.6.

هناك خمسين سفينة فى طريقها من البرتغال إلى الهند ، وأن فاسكو يرغب فى شراء توابل ومنتجات هندية ، ويقترح عقد معاهدة سلام وصداقة مع ملك الملبار ، كما يرغب فى حصوله على امتياز يخول له حق القيام بعمليات تجارية بينه وبين ملك الملبار ، من أجل تأمين وضمان سلامة أفراد البعثة . وعندما علم التجار العرب بأنباء التقارب بين ملك الملبار وفاسكو دي جاما ، غضبوا من ذلك غضبا شديداً ، وعقدوا اجتماعا تقرر فيه القيام بأى عمل يمكن أن يكون من شأنه إلغاء الإقتراح الخاص بعقد معاهدة بين الطرفين أى بين فاسكو وملك الملبار ، لهذا حذر جوزيل Gozil - المستشار الرئيسى والمراقب على الدخل - ملك الملبار من أن الجماعة العربية لن تقدم له أى مساعدة نقدية فى المستقبل إذا أقدم على عقد معاهدة مع فاسكو دي جاما ، ولكى تتأكد هذه الجماعة من تحقيق رغبتها قدمت رشوة إلى جوزيل هذا ، كى ينصح ملك الملبار برفض المقترحات البرتغالية ، وأشار جوزيل أيضا على الأعضاء الآخرين فى مجلس الملك باتباع سياسة المراوغة والتأجيل ، وعدم إتخاذ أى قرار لصالح البرتغاليين ، وكان من نتيجة هذا التحرك الذى قام به جوزيل - المدفوع من جانب التجار العرب - رفض ملك الملبار إرسال الرهائن المتفق عليها بين الطرفين ، كما أنه لم يرد على الإقتراح الخاص بالمعاهدة ، بل أرسل رسالة إلى فاسكو يحثه فيها بالمجئ إلى الشاطئ إن رغب فى ذلك ، وأن يتجر مع مملكة الملبار إذا كانت لديه الرغبة فى ذلك أيضا ، ويبدو أن جوزيل قد نجح فى مسعاه المتمثل فى إفساد العلاقة بين ملك الملبار وقاليقوط وفاسكو .

وبناء على رسالة ملك الملبار إلى فاسكو اضطر الأخير أن يرسل دافانا وبرفقتة زاكوتو إلى الشاطئ زاعمين شراء مؤن ، وفى واقع الأمر كان الغرض الحقيقى من وراء ذلك هو استكشاف إمكانية رسو السفن البرتغالية بأمان ، ولكن كانت الإشاعات قد انتشرت فى هذا المكان عن السفن البرتغالية ، لذلك ترى أن الناس تجمعوا حول دافانا وزاكوتو بمجرد وصولهم إلى الشاطئ ، لدرجة

أنهما كانا سيختفيان بسبب الزحام . عندئذ أنقذ جوزيل كل من زاكوتو ودافانا بأخذهم إلى منزله وإيقائهم فيه من قبيل الإستضافة لهما حتى أقبل الليل ، وحاول جوزيل أيضا إقناعهما بالمكوث عنده طوال الليل ، لكنهما رفضا وانزعجا الإثنان من سلوك جوزيل . لهذا قررا الفرار وذهبا إلى الميناء ليجدا قاربهما قد اختفى ، ولم يكن هناك أحد يساعدهما في الوصول إلى السفن ، لكنهما عادا إلى المدينة ، وهما في حالة من القلق . وفي تلك الأثناء بادرهما رجل بالحديث فاندعشا الإثنان معا بسبب حديثه لأنه كان يتحدث الأسبانية وكان هذا الشخص قشتاليا Castilian ، أى من أشبيلية Seville فحكى لهما قصته قائلا : عندما كان يعمل في البحر وعندما كان صغيرا ، أخذ سجيننا بواسطة العرب المغيرين ، ثم بيع بعد ذلك إلى تاجر عربى ، فأخذ إلى قاليقوط ، وهناك منحه حريته قبل وفاته ، وكان هذا القشتالى يعمل كاتباً في الميناء ، ودعى كلا من اليهودى زاكوتو ودافانا إلى منزله لقضاء ليلة معه وحذرهما من جوزيل ، الذى قال عنه : أنه عازم على أخذهما وقتلهما ، كما حذرهما من ملك الملبار الخائن المحتال ، الجشع الماكر ، الذى لا يمكن لأحد أن يثق فيه ونصحهما بالإحاح بالعودة إلى وطنهما بأسرع ما يمكن .

وفي الصباح إصطحب القشتالى كلا من : دافانا وزاكوتو إلى السفينة البرتغالية العائدة ، ويبدو أنها السفينة التى كانت قد أقلتتهما . وكان هذا المكان يعج بالحركة والنشاط ، وعندما سمع البرتغاليون بقصته بكى الجميع بأسى وحزن من أجله ، لأنه كان مسيحيا متعدد الأمزجة ، فانهار القشتالى عندما تقابل مع أخوة له فى الدين والوطن ، وكان القشتالى مرتشيا من جانب التجار العرب كى يتجسس على البرتغاليين ، ويقف على قوتهم ، وإبعادهم عن قاليقوط ، قبل أن يستميلوا الملك ، ويعقدوا معه معاهدة ، ولكنه عندما عرف حقيقة كل من زاكوتو ودافانا ، إمتلأ القشتالى نداما على فعلته المتمثلة فى قيامه بالتجسس ، وأعلن بنفسه أنه سيكون الحليف والخادم الأمين للبرتغاليين ، وغضب فاسكو عند سماعه لكلام القشتالى ، لهذا حث باولو شقيق فاسكو دي جاما على قبول عرض

هذا القشتالى ، وانتهى الامر بأن أصبح هذا القشتالى وسيطا لحساب البرتغاليين ، وظل مخلصا لهم طوال مدة تواجدهم بالهند ، وتمكن من معرفة كافة الحقائق عن البرتغاليين ، فعرف أنه لم يكن هناك أسطول قادم من البرتغال ، كما أشيع من قبل ، بل وقف بنفسه أيضا على حالة البحارة البائسة . لهذا أخفى هذا القشتالى كل ما سمعه وشاهده عن البرتغاليين . ومن أجل البرتغاليين قدم للتجار العرب تقريراً مضللاً حتى لا يعرفوا أى شئ عن البرتغاليين .

وفى الوقت الذى كان فيه الملك يتحرك ببطء نحو تحدى العرب ، كان هناك حزب موال للبرتغاليين فى سبيله إلى التكوين داخل مجلسه ، وكان فاسكو ، قد ذهب للقاء الملك وبرفقته اثنا عشر شخصاً من رجاله أى من رجال فاسكو ، إضافة إلى الحارس الملكى . ومع ذلك لم يكن هذا اللقاء حاسماً ، فقدم فاسكو أثناء هذا اللقاء هدايا للملك الذى وضعها جانباً باحتقار لتفاهتها ، ولم يعط أى رد مباشر عن المعاهدة المقترحة . أما عن السلع التى قدمت للبرتغاليين فكانت غالية الثمن مع أنها كانت سلعا من نوعية رديئة ، فالزنجبيل على سبيل المثال كان مغشوشاً بالطين ، وكانت جوزة الهند من الخشب . بعد ذلك عاد البرتغاليون إلى سفنهم ، ومعهم ثلاث رهائن ، وقد مكنتهم مقابلة ملك الملبار من زيارة المدينة ، وهم فى حالة من الأمن النسبى .

فى هذا الوقت ، كان مع البرتغاليين مبلغاً من النقود الذهبية والفضية استعملوه فى الرشوة إلى بعض الشخصيات الهندية ، التى كانت ميالة إلى تأييد البرتغاليين . ومن أجل هذا غضب العرب الموجودين على الأرصفة ، وفى الأسواق الهندية بسبب معرفتهم للعبة التى يلعبها البرتغاليون . وكانت المفاوضات التى أجراها البرتغاليون فى قاليقوط معادية للعرب ، لذلك رشا العرب جوزيل كى يخطف فاسكو وبعض رجاله ، فقام بسجن فاسكو وبعض بحارته فى إحدى المنازل الواقعة فى ضواحي قاليقوط لعدة أيام ، بعد ذلك أخذوا سيرا على الأقدام فى حرارة الشمس حتى وصلوا

إلى أحد الأنهار ، ثم أبحروا بعد ذلك فى هذا النهر ، ثم تركوا فى إحدى الأدغال ، وكانت النية بالنسبة للمختطفين تتجه نحو إتعابهم حتى يموتوا فى النهاية ، وإذا لم يتمكن المختطفون من فعل ذلك ، فإن البرتغاليين سيغتالون بأية وسيلة . وفى هذه الحالة يبدو الأمر طبيعيا ، وفى نفس الوقت رشا العرب الكانتولز Cantuals - البوليس الوطنى - كى يقوم باغتيال البرتغاليين . ومن المعروف أن الكانتولز كان على علم بأن ملك الملبار كان مؤيدا للبرتغاليين ، ولم يكن مستعدا للتخلى عنهم .

وعلاوة على ذلك ، عرض رئيس الكانتولز على فاسكو إرسال رسالة إلى باولو - عن طريق القشتالى - يبدو لإخبار باولو بسجن شقيقه فوافق فاسكو الذى كان غاضبا فى تلك اللحظة ، والذى كان سجيناً لدى جوزيل ، وكان فاسكو قد وعد رئيس الكانتولز بالرشوة ، فأرسل رئيس الكانتولز الرسالة ، وانتهى الأمر بإطلاق سراح فاسكو ، وعرف الملك كل ما حدث فسجن جوزيل ورئيس الكانتولز . ورغم هذه النهاية المبهجة ، التى انتهت بالإفراج عن فاسكو وزملائه ، إلا أن غضبه ممن حاولوا خطفه تزايد ، إضافة إلى أنه لم يبرئ الملك من المسؤولية . كان فاسكو يعتقد بأنه فى إمكان ملك الملبار التدخل لولا خشيته من التجار العرب . لقد كان فاسكو يحتقر الجبن والخوف ، ومجرد التفكير فيه يعتبره خيانة ، وبما أن فاسكو كان حاد الطبع فإنه هدد الملك بالانتقام . من هنا قرر البحث عن حاكم آخر يعقد معه معاهدة صداقة وسلام ، يحمى بها نفسه من أية خيانة تحدث ضده فى المستقبل ، وكان لدى فاسكو الرغبة فى معاقبة ملك قاليقوط (الملبار) ، وذلك عن طريق اتخاذ منافس آخر يتاجر مع البرتغاليين فى المستقبل، بعد ذلك ترك فاسكو القشتالى فى قاليقوط كمفوض معتمد لملك البرتغال ثم أبحر شمالا إلى كنانور Cananor .

فى هذا الوقت إنتشرت الأخبار التى حدثت فى قاليقوط على طول الشاطئ الهندى . رغب ملك قاليقوط فى وضع حد لغضب

فاسكو ، فأرسل رسولا إلى ملك كنانور ينصحه بالتعامل الحسن مع البرتغاليين ، ويسأله التوسط عند فاسكو ليزيل غضبه ، لكن ملك كنانور ، لم ينفذ ما طلب منه ، وأرسل قاربا لمقابلة البرتغاليين فى عرض البحر ، وكان هذا القارب مشحونا بالهدايا ، وعندما رست سفن البرتغاليين فى الميناء كان ملك كنانور على رأس المستقبليين ، بعدها أقيم احتفال لهم فى الميناء تبودلت فيه الهدايا ، كما تبودلت فيه كلمات الترحيب . وفى غضون أسبوع أو أسبوعين - بدون حدوث أية مشاكل - وقعت معاهدة تجارة وصداقة وسلام بين كلا من ملك كنانور وفاسكو ، الذى ادعى أنه سفير لملك البرتغال . ومن ناحية أخرى ، عمل ملك كنانور على كسر الإحتكارات العربية للتجارة الهندية ، وكان على استعداد لخداع ملك قاليقوت (المبار) ، كما أنه لم يكن يخشى العرب ^(١).

المصاعب التى واجهت الحملة فى طريقها إلى الهند :

مما لاشك فيه أن البعثة البرتغالية الكشفية واجهت مصاعب جمة وكبيرة منها تسرب المياه إلى داخل السفن حيث سببت رائحة كريهة بدرجة كبيرة، فضلا عن إحتواء السفن على تراكمات من الأقدار والحصى ، كما أنها حوت الفئران الميتة وروس الماشية وفضلات الإنسان ، وأحيانا أخرى الجثث الميتة التى كان يحتفظ بها حتى الوصول إلى الوطن ، إذا كانت جثثا لأشخاص مهمين لدفنها هناك . وقد أدى هذا إلى موت عدد كبير من البحارة ، مما دفع الناس إلى العزوف عن السفر فى مثل هذه الرحلات . اضطرت الحكومة البرتغالية للتعاقد مع عدد من الرجال ممن لهم سوابق إجرامية للعمل فى تلك البعثات الكشفية فى المستقبل. ومن المصاعب التى واجهت البحارة ضيق المساحة التى كان يشغلها كل بحار ، حيث بلغت أربعاً وعشرين بوصة كى يعلق فيها أمتعته ، وفى أغلب الأحيان كان البحارة ينامون بالتدأوب ، فخصص لكل بحار مسافة لا تزيد عن قدمين ، وأربع بوصات بحيث يتقلب فيها

^(١) Ibid. pp. 89-97 .

البحار ، وأما عن التهوية فكانت سيئة حيث تأتي من خلال الفتحات الخاصة بالمدافع المنصوبة على طول جوانب السفينة ، ولكن عندما يهيج البحر أو المحيط ، كانت هذه الفتحات تغلق ، لذلك كانت المياه تتسرب إلى داخل السفن ، فتغمر أسطحها وأرضيتها بالمياه ، ويؤدي ذلك بالتالي إلى وجود الحشرات الطفيلية المميتة . وقد ذكر فاسكو دي جاما أنه في أثناء رحلته هذه كانت السفن تحوى حشرات كثيرة ومتنوعة ؛ منها أم أربع وأربعين Centipedes والعقارب Scorpions والنمل الأسود black ants والبراغيث fleas والصراصير Cockroaches والفئران rats والثعابين الصغيرة small snakes - وكان فاسكو يظهر سفن البعثة من تلك الرائحة بواسطة البارود gun powder المحروق ، والمنقوع في الخل . ومن المخاطر التي تعرضت لها تلك الحملة الكشفية إنتشار مرض التيفوس المتسبب عن القمل Lice ، فكثيرا ما تكرر هذا المرض بين البحارة الذين كانوا يتخلصون من هذه المشكلة بغمر السفن في المياه للتخلص من تلك الحشرات الضارة . ومن المصاعب أيضا إحتواء المواد الغذائية على اليرقات maggots الدودية ، علاوة على ذلك فإن اللحم المجمد أصبح صلبا لدرجة أنه كان من الأشغال المحببة لبعض البحارة الذين كانوا يشكلونه في شكل قطع شطرنج ، ويغطونه بمادة لامعة جعلته شبيها بخشب الماهوجنى Mahogany wood .

ومن المصاعب أيضا أن بحارة تلك السفن كانوا من المجرمين Criminal ، ومن أفراد الطبقات المعدومة destitute ، فكان عدد كبير من هؤلاء المجرمين قد حرروا من السجون Jails في البرتغال ، والتحقوا على أثر ذلك بهذا العمل . ففي أثناء الرحلة وعندما كان فاسكو يرغب في التوقف من أجل الحصول على شئ يرسل أحد هؤلاء المجرمين للإستطلاع ، وكانت حجة فاسكو أن هذا البحار لو فرض وقتل من قبل الوطنيين فإن موته كان لا يشكل خسارة للبرتغال ، لأنه كان محكوما عليه مسبقا بالسجن مدة طويلة ، وكانت هذه الفئة من البحارة تقوم بالعمل الوضيع ، وكانت تعرف

بالدجرادوس degraded أى الأشخاص المنحطين اجتماعيا ، وكانوا قد تحللوا من خطاياهم بعد خروجهم من السجن ، وأخذوا العهد المقدس ، وكانت حكومة البرتغال قد دفعت هبات سخية الى زوجاتهم أو الى زويهم قبل شروع البعثة فى الإبحار .

وفى حالة ارتكاب أحد منهم خطأ ، كان فاسكو يقوم بتعليقه فى عارضة الشراع ، ثم يقوم بجلده ، وكان الهدف من وراء ذلك هو تخويفهم حتى تكمل الرحلة بالنجاح ، وقد عاد منهم ستون من جملة ١٨٠ بحارا ، كانوا فى جملتهم مشلولين ، أو فى حالة صحية سيئة . أما بقية البحارة الذين يعملون على المدافع والضباط كانوا جميعا من الطبقة الراقية ، وكانوا من المتدينين الراغبين فى القيام بالتنصير بالمسيحية بين المسلمين والوثنيين heathen على حد سواء ، ولكن رغم ذلك كانت معاملاتهم مع الوثنيين والمسلمين من أفضع المعاملات التى شهدتها تاريخ البشر المأساوى ، ويعنى ذلك خلو ضمائرهم من الإنسانية .

عودة الحملة إلى البرتغال :

بعد أن أنهت حملة فاسكو دي جاما مهمتها فى الهند قررت العودة إلى البرتغال ، ولكن قبل مغادرته للهند أخبر ملك كنانور فاسكو بأن العرب يملكون أسطولا بحريا كبيرا يتواجد هذا الأسطول فى جزر التوابل ، ومن المتوقع حضوره إلى موانئ الملبار ليشحن بالتوابل ، ثم يعود مرة أخرى إلى بلاده ، وأخبره ملك كنانور أيضا بأن هذا الأسطول مسلح تسليحا جيدا ، كما أخبره بوجود وقت محدد ومعلوم للسفن التى ترغب فى عبور المحيط الهندى ، ويتوافق هذا الوقت مع هبوب الرياح الموسمية Mooson ، فهى رياح دورية وقوية تهب باعتدال وانتظام ، وعلى فترات منتظمة إلى حد ما . وسيأتى أسطول العرب مع هبوب الرياح الموسمية ، التى إقترب وقتها ، ومن الجدير ذكره إنه سيخاطر بالحرب ضد البرتغاليين فى حالة تواجدهم فى بلاد الهند . لهذا قرر

فاسكو العودة إلى وطنه وعدم مواجهة الأسطول العربى ، خاصة عند هبوب الرياح الشرقية المعتدلة . وكان فاسكو على علم بوجود أرخبيل Archipelago يقع على مسيرة أيام قليلة من إبحاره من ساحل الملبار ، فعندما اقترب من هذا الأرخبيل توقفت سفنه عن الإبحار لعدم هبوب الرياح . وبعدئذ توجه إلى إحدى الجزر وألقى بمراسيه فيها .

كانت الجزيرة حلم البحارة فهي جزيرة غير مسكونة بالناس باستثناء وجود راهب فيها الذى رحب بفاسكو ورجاله ، ووجد فاسكو فى تلك الجزيرة وفرة فى المياه العذبة وفى الأشجار الظليلة، وفى الأسماك التى يمكن صيدها ، وفى الفاكهة الوفيرة ، فكانت القوارب تأتى من الجزر الأخرى ، وهى محملة بالدجاج والأرز والتين Figs . ومكثت بعثة فاسكو هناك عشرة أيام كانت فى غاية المتعة . وفى هذه الجزر أقام فاسكو علاقات صداقة مع قرصان عربى ، كان يستخدم هذا الأرخبيل قاعدة له بحيث ينطلق منها لمهاجمة وأسر السفن العائدة من الشرق الأقصى ، وكان هذا القرصان مفيدا بالنسبة لفاسكو ، خاصة عند عودته للهند ، كنائب لملك البرتغال ، وحذر هذا القرصان فاسكو من أن للعرب أسطولا يطوف حول شبه القارة الهندية .

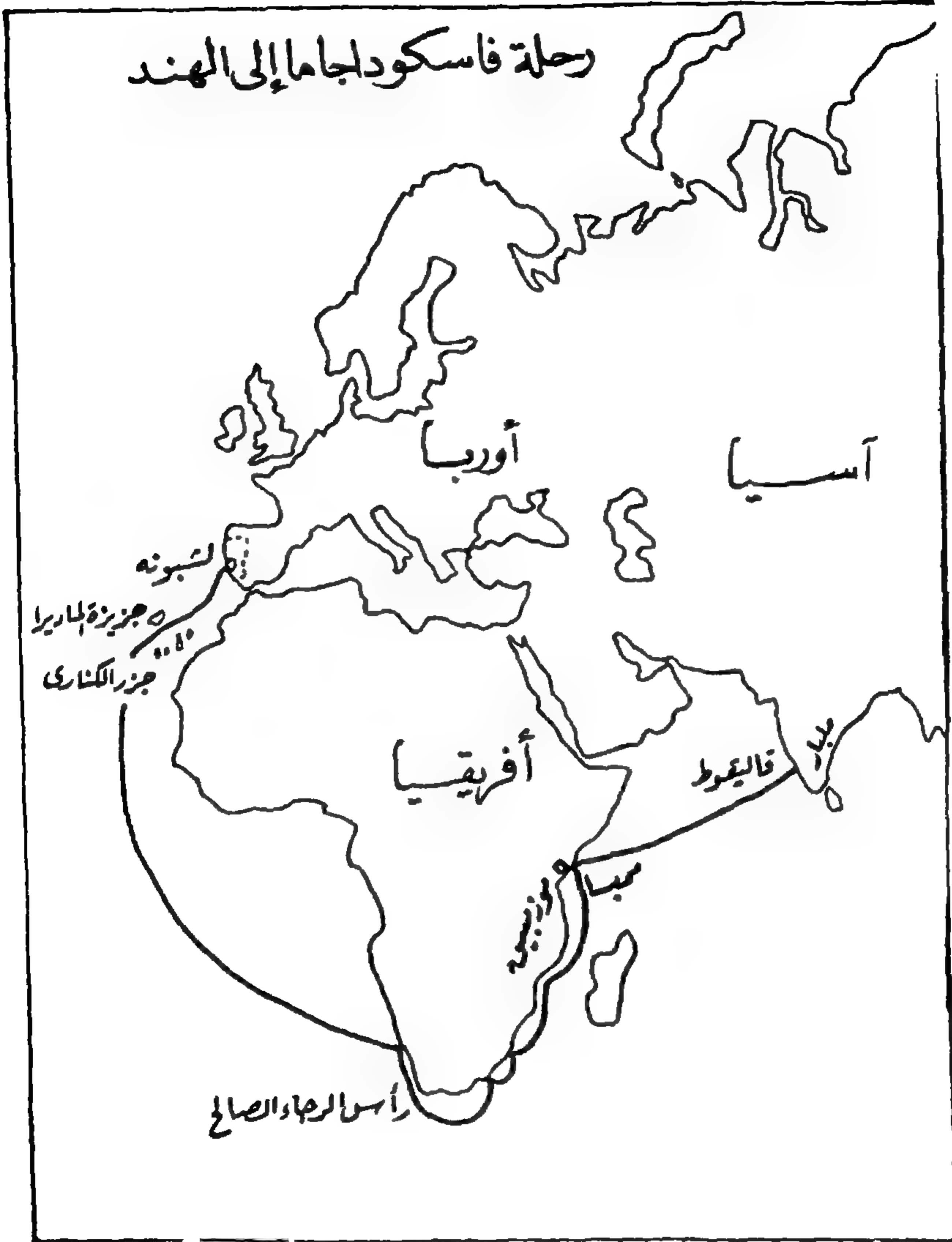
غادر فاسكو ورجاله الجزيرة وهم على مضض كبير بسبب توقع عدم هبوب الرياح الموسمية ، الذى إستمر لعدة أيام أو أسابيع، فهذه الرياح هى التى تساعد السفن على الإبحار . من هنا ظهرت علامة التمرد على البحارة ، لهذا توقف هذا الأسطول الصغير عن الإبحار فترة من الوقت فى جو شديد الحرارة ولكن فى ٥ أكتوبر عام ١٤٩٨ م غادرت البعثة الجزيرة فوصلت إلى مالندى فى ٢ فبراير عام ١٤٩٩ م ، وفى تلك الأثناء كان مرض الإسقربوط قد عاود الظهور بين البحارة ، فقضى على عدد منهم ، ومرض الباقي عدا ثمانية أفراد فقط . وكان بأولو شقيق فاسكو دي جاما ضمن المرضى . وفى مالندى إحتفى السلطان بالبعثة وقدم لها

كل ما تحتاج إليه من مواد غذائية وغيرها . وفى تلك الأثناء
اشتعلت النيران فى سفينة باولو - السفينة سنت روفائيل - فوزعت
محتوياتها على السفينتين الباقيتين - السفينة سنت جبريل والسفينة
بريو - ونقل باولو إلى السفينة سنت جبريل ، حتى يكون تحت
رعاية أخيه . وفى ذلك الوقت ، زودت السفن بالمؤن والماء ، وأكد
فاسكو لسلطان مالندي أن البرتغاليين سيعودن على رأس سفن
كثيرة ، وأنهم سيكافئونه . بعد ذلك أبحرت السفينتان بمحاذاة
الساحل إلى ممبسة ، ولكى ينفذ فاسكو دي جاما وعده لسلطان
مالندي قام بإطلاق قنابل مدافعه على مدينة ممبسة ، كما قصفت
قنابله أيضا العديد من المدن العربية الواقعة على طول ساحل شرق
أفريقيا . وفى تلك الأثناء إنتاب القلق واليأس فاسكو بسبب مرض
أخيه وبسبب تعبته هو أيضا . وفى نفس الوقت كان الطاقم على
وشك التمرد فتأرجح فاسكو بين ثورات الغضب ، ونوبات التهجم
والسكون ، وقد أشار تقرير البعثة إلى هذه العبارة بالقول " نحن نتبع
طريقنا برغبة كبيرة أملا فى الوصول إلى أرض الوطن " وفى
خليج غينيا انفصلت السفينتان بسبب هبوب عاصفة حيث أن السفينة
سنت جبريل لم تستطع الطفو لعدم وجود طاقم كاف لتشغيل
المضخات ، لضخ المياه المتجمعة فى داخلها ، عندما كانت تلك
السفينة تتقدم ببطء إلى ميناء تتريف Teneriff . وفى أثناء ذلك كان
باولو على وشك الموت ، فحمل إلى الشاطئ وهناك ظل حيا مدة
يوم واحد فارق بعده الحياة ودفن فى تتريف فى دير القديس
فرانسيس .

كان فاسكو دي جاما يحب أخاه حبا جما ، فبعد موته ظل
فى كبينته تسعة أيام لحزنه عليه ، وكان كيولهو الذى يقود السفينة
بريو قد وصل إلى تتريف قبل فاسكو ، فأرسله فاسكو إلى لشبونة
ليبلغ المسؤولين بالأخبار ، لذا تلقى كيولهو التشريفات الأولى قبل
فاسكو . فمن المعروف أن تتريف كانت مستوطنة برتغالية بها
حوض لإصلاح السفن فعرض ضباطها البحريون على فاسكو أخذ
سفينة ، أخرى لكنه رفض ذلك وتمسك بالسفينة سنت جبريل
وبذكرياتها . كانت تلك السفينة قد أصلحت وحل طاقم جديد محل

المرضى والأموات ، وبعد بضعة أسابيع من رحيل كيولهو ، تم إقناع فاسكو دي جاما بالإبحار وبرفقتة أسطول صغير Flotilla ، ولما وصل فاسكو إلى لشبونة أعد له إستقبال رسمي وترحيب ملكي ولكنه رغم ذلك رفض النزول من السفينة بسبب حزنه على وفاة شقيقه ، فلم يعبأ فاسكو بالحفاوة والإبتهاج وظل في سفينته ولم ينزل منها إلا بعد أن تسلم رسالة من الملك البرتغالي ، فنزل من السفينة بأقل إحساس من الرضا والإبتهاج ، وكان لدى باولو قبل موته رغبة في عدم محاكمة البحارة الذين كانوا قد تمردوا ، لذلك إهتم فاسكو بمطلب شقيقه ، فتشفع للمتمردين عند الملك ، الذي كان بخيلا ، ومع ذلك عفا عنهم جميعا ، ورغم إعفائه عنهم إلا أنه أجل دفع المكافأة المناسبة ، لفاسكو وطاقمه مقابل الخدمة الجليلة التي قاموا بها ، فكل ما فعله هذا الملك أنه منح فاسكو لقب الدوم الصغير The little of dom ، المساوى تقريبا للقب السيد Sir كما منحه لوردية أسنس Asens ، فأصبح بذلك لوردا للمكان الذي ولد فيه ، ولسوء الحظ فإن إيرادات هذه اللوردية كانت تذهب إلى طائفة دينية، بالإضافة إلى ذلك فقد حصل فاسكو دي جاما على معاش كاف علاوة على أنه كان له الحق في القيام برحلة ثانية إلى الهند لإستيراد سلع معينة على حسابه الخاص للإتجار فيها . وبسبب كل هذه المزايا التي حصل عليها فاسكو جعلت الملك ينظر إليه على أنه ندا له ، أى مساوى له في المزايا . كان فاسكو يعرف جيدا قيمة العمل الذي قام به ، لهذا كان مصمما على أن يتلقى هو وطاقمه المكافأة المناسبة من الدولة . وكان من صفات فاسكو إخلاصه لزملائه القدامى ، من البحارة وحبه للمغامرة .^(١)

^(١) Ibid. pp. 97- 103 .



رحلة فاسكو دي جاما إلى الهند



الطريق البحري إلى الهند

الفصل الثانى

تأسيس النفوذ البرتغالى فى الهند

الفصل الثانى

تأسيس النفوذ البرتغالى فى الهند

بعد عودة فاسكو دي جاما من رحلته التاريخية إلى الهند وبعد مكوثه فترة من الزمن قام برحلة ثانية على حسابه الخاص ، وبتفويض من الملك ، ولكن هذه الرحلة لا تمت بصلة إلى تاريخ الكشف الجغرافى ؛ أى أنها ليست رحلة كشفية ، لأن هذه البعثة غادرت البرتغال إلى بلاد تم كشفها حديثا . ففى عام ١٥٠١ م قاد فاسكو دي جاما أسطولاً مكوناً من تسع عشر سفينة مسلحة تسليحاً جيداً ، وتحمل على متنها سلعا ثمينة وهدايا كثيرة فاخرة ، لتوزيعها على شيوخ القبائل فى السواحل الإفريقية ، وعلى المسئولين فى بلاد الهند . وعندما وصلت تلك البعثة التجارية إلى الهند أسس فاسكو بعض المراكز التجارية فى قاليقوت وكوشين Cochine ، وحقق من وراء ذلك أرباحاً طائلة بسبب الصفقات التجارية التى قام بها .

كان فاسكو قد بدأ حياته العملية قبطان سفينة عادية ، ولكنه أصبح بعد عمله فى التجارة واحداً من أغنى رجالات البرتغال ، ومع ذلك لم يمكث فاسكو طويلاً فى الهند ، فعاد إلى البرتغال عام ١٥٠٣ م ، ثم تزوج وكون أسرة ، ويعتبر فاسكو المؤسس الفعلى للنفوذ البرتغالى فى الهند . وعلى الرغم من معارضة العرب للتواجد البرتغالى فى الهند ، إلا أن البرتغاليين تمكنوا من تأسيس مراكز تجارية لهم فى قاليقوت وكوشين وفى كنانور ، لذا قاموا باضطهاد العرب بقسوة ، ولكن مع ذلك نجد أن العرب استمروا فى معارضتهم للتواجد البرتغالى فى الهند . ومن الملاحظ أن ملك الزامورين هاجمهم فى كوشين ، لكنه هزم أمام قوتهم بسبب استخدامهم للأسلحة النارية . ونتيجة لهذا الانتصار تمكن البرتغاليون من فرض السيطرة على المنطقة التى يقطنون فيها ،

ومنذ تلك الفترة بدأ الحكم البرتغالي يستقر في الهند ، وبدأت البرتغال في تعيين الحكام الذين كانوا يمثلون ملك البرتغال هناك ، وسوف نتحدث عن أبرز هؤلاء الحكام فقط .

١-دي الميدا :

يعتبر دي الميدا أول نائب لملك البرتغال الذي حكم الهند في الفترة ما بين ١٥٠٥ - ١٥٠٩ م ، وفي أثناء حكمه لم يهتم هذا النائب ببناء المستوطنات بل كان كل همه تطوير قوة البرتغال البحرية ، وهذا شيء منطقي كي يواجه بها أعدائه فلا يمكن أن تتم الهيمنة والسيطرة دون قوة عسكرية تحميها ، وقال دي الميدا في هذا الصدد ما نصه " إعرفوا جيدا مخاطبا البرتغاليين أنه طالما تكونوا أقوىاء في البحر فستكون الهند ملكا لكم ، وإذا لم يكن في مقدوركم الإمتلاك لهذه القوة البحرية فستكون الفائدة المرجوة من الحصون المقامة على الشاطئ غير ذي جدوى " وسميت هذه السياسة بسياسة الماء الأزرق The blue water policy ورغم كل ما قام به دي الميدا في المجال العسكري ، إلا أنه لم يستمر حكمه للهند طويلا ، حيث قتل ومعه نجله في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ ، على أيدي القوات المملوكية المصرية ، وعين ملك البرتغال بدلا منه البوكيرك .

٢-البوكيرك :

حكم البوكيرك الهند في الفترة ما بين ١٥٠٩ - ١٥١٥ م ، ويعتبر البوكيرك ثاني نائب لملك البرتغال في الهند ويشير المستر إستيفينز M.R Stephens إلى أربع نقاط قامت على أساسها سياسة البوكيرك في الهند .

أولها : رغبة البوكيرك في إحتلال أماكن هامة ومعينة للأغراض التجارية ويحكمها حكما مباشرا .

وثانيها : رغبة البوكيرك فى إحتلال المناطق المختارة عن طريق تشجيع الزواج المختلط بين السكان الوطنيين والبرتغاليين .

وثالثها : رغبته فى بناء الحصون فى حالة عدم قدرته على الفتح والإحتلال .

ورابعها : رغبة البوكيرك فى إستمالة التجار الوطنيين من الهنود للإعتراف بسيادة ملك البرتغال على الهند ، ودفع الجزية له بخاصة عندما تكون البنود السابقة غير عملية .

كان البوكيرك فاتحا عظيما فقد فتح جوا وضمها إلى البرتغال عام ١٥١٠ م ، وأصبحت منذ ذلك التاريخ مركزاً لقيادة الإمبراطورية البرتغالية ، وفتح أيضا ملقا ، فى الشرق الأقصى ، كما أرسل حملة إلى جزر التوابل Island's Spices . وفى عام ١٥١٥ م ، فتح البوكيرك هرمز Ormuz - جزيرة فى الخليج الفارسى - وبنى حصنا فى كوشين بعد حصوله على تصريح من الراجا ، وعين البوكيرك عددا كبيرا من الموظفين البرتغاليين فى كل أعمال الإدارة ، وحرّم منها المسلمين بل اضطهدهم ، ورحب البرتغاليون بالهندوس فى كافة فروع الإدارة المختلفة ، وأسس لهم المدارس وتسامح مع طائفة البانشياتس Panchayats الهندوسية ، بحيث لم تعد طائفة منبوذة ، ورحب البوكيرك أيضا بالجنود الهنود الذين كان ضباطهم من الهندوس ، علاوة على ذلك ، فإنه شجع زواج البرتغاليين من النساء الهنديات ، وكان البوكيرك رجلا عظيما بسبب ما قام به من إنجازات . ويعتبر بحق مؤسس الإمبراطورية البرتغالية فى الهند ، وقد تميزت شخصيته بسمات كثيرة منها : بسالته وصدقه التام واستقامته ، وإحسانه وقسوته ، ومع ذلك كله فإنه كان محبوبا فلم يكن بالإنسان الذى يثنيه الفشل عن عزمه ، فعندما يفشل لم يهدأ له بال حتى يجد لهذا الفشل حلا . وكان وطنيا من الدرجة الأولى ، وكانت سمعته من حيث النزاهة - ذائعة الصيت - وكانت نظرته الثاقبة تصحبها شخصية قيادية ،

وإصرار على تحقيق الهدف ، وهى صفات يتمتع بها القليل من القادة ، وكان عبقرىا فى الإدارة المدنية والعسكرية على حد سواء . وفى مجال الدبلوماسية إستطاع البوكيرك أن يقاوم الشرقيين بنفس أسلحتهم ، فلا غرابة أن يدعى من قبل أهل بلده ببوكيرك العظيم .

ووفقا لما ذكره دودول Dodwell بشأن البوكيرك يقول ما نصه " كان البوكيرك يتمتع بمزايا شخصية كثيرة ، مثل التى تمتع بها كليف Clive فكلاهما كان قائدا عسكريا عظيما ، وكانت شجاعتهما ونفاذ بصيرتهما ، تظهر فى وقت الخطر ، وكان كل منهما غير متردد ، بل كان شجاعا ، وكان كل منهما أيضا مستعدا لمقابلة أى عدو مهما كان عدده ، وكان كل منهما يتمتع بروح عالية تفرض نفسها على أتباعهما ، وكانا يتمتعان أيضا بحسن الحظ الذى روع أعدائهما ، وكانا فى مقدورهما اللجوء إلى الغدر والخيانة ، لكنهما كانا نادرا ما يلجآن إليهما . ولم يفقدا أبدا ثقة الآخرين بهما ، وكانا لديهما المهارة فى معرفة الظروف الهامة للنجاح ، ويتجاهل كلاهما الظروف الأخرى . ويبدو أن البوكيرك كان فريدا فى جيله لإدراكه بأن السيادة التى تعتمد على القوة البحرية وحدها ، لا يمكن أن تستمر . وقد وقف بإصرار فى وجه المعارضة البرتغالية مؤكدا على أهمية المحافظة على جوا كمركز لقوة البرتغاليين فى الشرق ، وكترسانة كبيرة تقوم بإصلاح السفن ، علاوة على ما تقوم به من تزويد السلطة البرتغالية بالرجال والمؤن ، وكمدينة كبيرة يمكن الحصول منها على احتياطي من الجنود ، الذين يمكن تجنيدهم ، وبكل تأكيد كان البوكيرك محقا فى كل مواقفه .

بعد قرن من الزمن وجد البرتغاليون أنفسهم متورطين فى حرب حياة أو موت . ولم يكن فى مقدورهم مواصلة الحرب مدة تزيد عن خمسين عاما ، لولا الموارد الأولية المكثفة فى جوا^(١) واعتبر البرتغاليون جوا جزءا مكملا لمملكتهم بسبب رسوخ تواجدهم فى الهند ، فقاموا بإنشاء العديد من المستوطنات على

^(١) Mahajan V. D. : Indian Since 1526. Without date. pp. 2-3 .

الساحل الشرقى للهند ، لكن هذه المستعمرات أو المستوطنات كانت أقل مستوى من المستوطنات المألوفة التي أنشأوها فى السابق على الساحل الغربى للهند . كل هذا ساعد التجار البرتغاليين فى الإستقرار فى أماكن عديدة من أرض البنغال ، وعلى ساحل الكروماندل Coromandel ، معتمدين فى ذلك على هبة حكومتهم ، وعلى تحصين مستوطناتهم التى حكموها بأنفسهم بطريقة صحيحة ، ويقال : إن هذه المستوطنات البرتغالية كانت مركزا لإيواء الخارجين على القانون ، وأحيانا كانت تلك المستوطنات تمثل أوكارا للقراصنة ، وفى بعض الأحيان كان المستوطنون البرتغاليون لا يعترفون بسلطة نائب الملك البرتغالى فى جوا Goa .

مع ذلك لم تكن التأثيرات المباشرة التى أحدثها البرتغاليون فى الهند كبيرة ، وفى مجال السياسة ورطهم إستيلاؤهم على جوا فى عدااء مع البيجاپور Bijapur ، - طائفة هندية ، لكنهم حافظوا فى نفس الوقت على علاقات صداقة مع الفيجايا ناجار VijayaNagar - طائفة هندية أيضا - التى لم تتلق أية مساعدة مادية من البرتغاليين فى صراعها ضد المسلمين . وكان البرتغاليون متقدمين فى مجالات الحرب ، وفى فن استخدام الأسلحة الصغيرة ، والمدفعية ، فبذلك أحاطوا أنفسهم بهالة من القوة كان مفادها أنهم لا يقهرون ، وساعدتهم تلك الهالة المزيفة على تثبيت حكمهم فى الهند ، ولكن رغم ذلك فإن قوتهم لم تستطع الصمود أمام القوة البريطانية البحرية التى قامت بطردهم من الهند ، وبالإضافة إلى ذلك ، بنى البرتغاليون أسطولا قويا فى الهند ليساعدهم فى السيطرة على البحار ، كما بنوا الحصون ليدافعوا منها عن المضائق المائية ، وبنوا أيضا حوضا لإصلاح السفن ، وبعد أن تمكنوا من السيطرة على التجارة الشرقية حرموها على كل العرب والهنود والإيطاليين على حد سواء ، وبلغ بهم الأمر أن منحوا تصاريح للسفن الهندية تخول لها حق الملاحة بين موانئ معينة فى مقابل دفعها رسوم محددة ، وكانت السفينة التى لا تحصل على ترخيص تكون عرضة للمسائلة القانونية ، بل يتم الإستيلاء عليها ومصادرتها . ومن أجل

تحقيق الدقة في القيام بهذا الإجراء إستخدم البرتغاليون قوارب حربية لتأمين وحماية الطرق البحرية ، وكانت هذه القوارب البرتغالية تفوق في سرعتها سفن منافسيهم الكبيرة البطيئة ، فبواسطة تلك القوارب سيطر البرتغاليون على الطرق الرئيسية لتجارة الشرق خلال القرن ١٦ م ، ففي عام ١٥٣٤م ، إستولى البرتغاليون على ديو Diu وباسين Bassein . وبعد أربع سنوات فتح البرتغاليون دامن ، وفي نفس العام حصلوا من الحاكم المحلي على تصريح يخول لهم تأسيس مصنع في جوا ، يبدو أنه كان مصنعا للتوابل . ورغم كل الإجراءات التي اتخذها البرتغاليون والتي كانت تهدف إلى إحكام سيطرتهم على الهند ، إلا أن السلع الشرقية إستمرت في الوصول إلى أوروبا عن طريق الموظفين البرتغاليين ، الذين نظروا إلى مراكزهم على أنها مصدر مشروع للكسب ، فكانوا يحصلون من التجار على رشاوى ، في مقابل السماح للسلع المهربة بالمرور ، لهذا لم يرض الهنود والعرب عن الوجود البرتغالي في الهند . ففي عام ١٥٤٥ م ، هوجم حصن ديو من جانب كجرات Cujrat ، لكن صد البرتغاليون الهجوم . وفي عام ١٥٧١ م ، إتحدت كل من ولاية بيجابور Bijapur وأحمدنا جار Ahmednagar ، وقاليقوط للوقوف ضد البرتغاليين ، لكنهم فشلوا جميعا في إسترداد جوا ، بسبب إستخدام البرتغاليين للأسلحة النارية الحديثة^(١) .

إنهاء التواجد البرتغالي في الهند :

بعد أن انتهينا من الحديث عن الكشوف الجغرافية البرتغالية لكل من الساحل الغربي لأفريقيا والجنوب الأفريقي وشرق القارة ، و جنوب جزيرة العرب ، وشبه القارة الهندية ، وبعد أن أشرنا إلى تجول البرتغاليين في ساحل شبه القارة الهندية الغربي ، وعودتهم بعد ذلك إلى البرتغال ، بعد أن حققت البعثة أهدافها ، ووضعت أسس النفوذ البرتغالي في جنوب شرق آسيا . رغم كل ذلك فإن هذا

^(١) Mahajan, V. D. : Ibid . pp, 3-4.

النفوذ البرتغالي لم يستمر طويلا ، بل بدأ فى الإنهيار . وهذا ما سوف نتحدث عنه بشئ من التفصيل ، وإلقاء الضوء على عوامل هذا الإنهيار البرتغالي وأسبابه . لقد بدأ إنهيار النفوذ البرتغالي فى الهند منذ القرن السابع عشر ، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب منها :

فساد الإدارة البرتغالية فى الهند الذى يرجع فى المقام الأول إلى إنخفاض مرتبات الموظفين البرتغاليين ، الذين لم يشعروا بأى تردد فى قبول الرشاوى من أية جهة ، لرفع مستوى معيشتهم . وكان معظم هؤلاء الموظفين أنانيين ، وغافلين عن معاناة الناس ، فعقدوا العزم على تحقيق ثروات طائلة لأنفسهم بشتى الوسائل مما جعل السكان يتضجرون من هذا الأسلوب ، وفى عام ١٥٥٢ م كتبت السلطات الأهلية فى جوا إلى الملك البرتغالي تخبره بالقول " إنه لا توجد عدالة فى الهند سواء من جانب نائب الملك أم من جانب هؤلاء الذين يتولون أمر السلطة ، والذين كان هدفهم الأول فى الهند منحصرأ فى جمع المال بكل وسيلة ، ودون مراعاة للمصلحة العامة للدولة .

ومن عوامل إنهيار التواجد البرتغالي فى الهند ، صغر مساحة البرتغال ، وقلة عدد سكانها ، فإن هذا جعل من الصعب عليها توفير الموارد الكافية اللازمة لحكم قطر مترامى المساحة كالهند . ومن هذه العوامل أيضا إستبداد الحكام البرتغاليين الأوائل ، الذين كان الكثير منهم يتمتع بالفخر القومى ، والرغبة الشديدة فى الفتح والذين كانوا يميلون إلى الشغب والقسوة والإستبداد ، وشجعهم فى ذلك نجاحهم المبكر فى الوصول إلى الهند ، وعجرفتهم الفطرية ، فلا غرابة أن ينظر البرتغاليون إلى الآسيويين بصفة عامة على أنهم رعاياهم الطبيعيون . ومنها أيضا تراوج البرتغاليين من الهنديات ، الذى نتج عنه سلالة جديدة مختلطة ، كانت أقل مستوى وشجاعة من السلالة الأصلية ، ومع ذلك كانت تلك السلالة الجديدة متعطسة وفاسدة ، وأدى ذلك بالتالى إلى أن أصبح البرتغاليون ممقوتين . ومن عوامل الإنهيار كذلك إهمال البرتغاليين للحصون

التي أصبحت منهارة ، بل خالية من وسائل الدفاع والحماية منذ القرن ١٦ م ، علاوة على انهيار نظامهم وسلطاتهم ، وندل على ذلك بأنه فى الفترة ما بين ١٥٩٧ وحتى عام ١٦٠٠ م ، كان فرانسيسكو دي جاما حاكما عاما للهند ، وأثناء عودته لوطنه البرتغال ، تعرض لإهانات كبيرة من جانب الهنود الذين قاموا بإلقاء تمثال سلفه العظيم فاسكو دي جاما على الأرض ودمروه . وعندما كان فرانسيسكو على متن إحدى السفن التي كانت تقله إلى البرتغال ، صعد إليه أربعون رجلا وأمسكوا به وعلقوه كتمثال فى أحد عوارض شراع السفينة التي تقله . هذا دليل واضح على ضعف سلطة حكومة البرتغال فى الهند، بل على مدى إستخفاف الهنود بالمسؤولين البرتغاليين . ومن عوامل الإنهيار أيضا تأسيس إمبراطورية المغول فى الهند .

كانت إمبراطورية المغول من أهم أسباب فشل البرتغاليين فى شرق آسيا ، وفى بداية القرن السادس عشر ، وقبل تأسيس هذه الإمبراطورية ، لم يقابل البرتغاليون أية معارضة تذكر ، فى الهند من جانب أية قوة ، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا بالنسبة للبرتغاليين ، وفى عام ١٥٥٦ م ، تنامت قوة المغول التي كان فى إمكانها الإستيلاء وبشكل عملى على كل الهند ، ووضعها تحت سيطرتها ، وفى ظل ظروف كهذه لم يوجد هناك مجال لتنامى قوة البرتغاليين فى الأرض الرئيسية ؛ أى أرض البرتغال . ومن العوامل أيضا خضوع البرتغال لأسبانيا.

فى عام ١٥٨٠ م ، هيمنت أسبانيا على البرتغال وأخضعتها لنفوذها ، وبالتالي هيمنت على المصالح البرتغالية ، إضافة إلى ذلك فإن أسبانيا وضعت قيودا عديدة على مشروعات البرتغاليين فى الهند ، دون غيرها ، مع أن لشبونة كانت فى فترة من فترات تاريخها مستودعا لأوروبا ، لكن بعد خضوعها للأسبان فقدت كل هيمنتها على تجارة الشرق ، بل كل نفوذها على ممتلكاتها فى شبه القارة الهندية . وكان من تلك العوامل توقف التقدم البرتغالى

المدھش فى مجال بناء السفن ، وما ارتبط به من تقدم فى فن الملاحة البحرية ، فقد قابل البرتغاليون أبناء أسبانيا الذين تعلموا فن بناء السفن من الأوربيين ، بكيفية أفضل من الكيفية التى تعلمها البرتغاليون فى وقت فاسكو دي جاما ^(١).

من الملاحظ أن تواجد البرتغاليين فى الهند قاد بالضرورة إلى صراع على المصالح . لم يكن هذا الصراع كما يقال فى بعض الأحيان صراعا بين النصارى والمسلمين ، بل كان صراعا بين المستوردين والمصدرين ، فالمستوردون الهنود كان الكثير منهم من المسلمين ، هؤلاء المستوردون الهنود رحبوا بالبرتغاليين كزبائن جدد ، بينما عارض العرب والمصريون البرتغاليين بصفتهم منافسين جدد ، الذين كان فى إمكانهم تحطيم الإحتكارات التجارية التى يقوم بها العرب . ومن العوامل كذلك ضعف السلطة البرتغالية فى الهند ، مما جعل البرتغاليين عاجزين عن حماية ممتلكاتهم فى شرق آسيا ، الأمر الذى دفع بعض الدول الأوربية وغيرها إلى منافستهم وإضعاف قوتهم والإحلال محلهم ، وكان من هذه الدول إيران .

إيران من الدول التى تصدت للتوسع البرتغالى فى جنوب شرق آسيا ، فقد استولت إيران على مضيق هرمز Ormuz عام ١٦٦٢ م ، مما كان له أكبر الأثر فى تهديد حركة الملاحة البرتغالية فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، مما أثر بالتالى وبشكل كبير على التواجد البرتغالى فى الهند . وكان من عوامل إنهيار النفوذ البرتغالى فى الهند التنافس الهولندى .

كان يطلق على هولندا فى الماضى الأراضى المنخفضة ، التى تمكنت من التحرر من تحت نفوذ فيليب الثانى ملك أسبانيا . فمنذ ذلك التاريخ بدأت الشركة الهولندية التى كونتها مجموعة من تجار أمستردام عام ١٥٩٢ م ، مهامها التجارية. وبعد ثلاث سنوات

مضت على تكوين الشركة إنطلق كورنيلوس هوتمان Cornelius Houtman إلى الهند ، حيث مكث هناك خمس سنوات ، عاد بعدها إلى هولندا ومعه شحنة كبيرة من السلع التجارية التابلية. وكان من أهم نتائج تلك الرحلة الهولندية فتح الأرخبيل الهندي أمام الهولنديين ، الذين نجحوا - إلى حد كبير - فى جعل شركات هولندية أخرى كثيرة ، تبدأ عملها فى نفس المجال. وفى عام ١٦٠٢ ، اندمجت الشركات الهولندية كلها فى الشركة الهولندية الشرقية The Dutch East Indian Company التى منحتها الحكومة الهولندية ترخيص Charter يخول لها إحتكار التجارة الشرقية ، وفوضها هذا الترخيص أيضا شن الحرب ، وعقد المعاهدات واحتلال الأقاليم وبناء الحصون ، وبعبارة المصدر :

“The charter gave a monopoly of eastern trade to the company which was also empowered to wage war, make treaties, Occupy territories- and build fortress. The main object of the Dutch company was trade, the Dutch concentrated their attention on the spice Islands in the Far East. They tried to establish their exclusive monopoly .

بعد ذلك حاول الهولنديون أن يؤسسوا إحتكارا شاملا لكل سلع الشرق فعملوا على جعل رؤساء الجزر يقبلون بسيادة هولندا عليهم ، عندئذ منع الهولنديون جميع الدول الأوربية الأخرى من الإتجار مع تلك الجزر ، بل عملوا أيضا وبكل جهد لتظل إحتكاراتهم لتلك التجارة مستمرة . ومن عوامل الإنهيار البرتغالى أيضا المنافسة البريطانية

دخل البريطانيون إلى الشرق كأصدقاء ، وكان كل من البريطانيين والهولنديين من أبطال البروتستانت ، فعلا معا ضد أسبانيا والبرتغال الكاثوليكيين ، ولكن بعد ذلك نشأت الخلافات بين القوتين ، فصمم الهولنديون على الإحتفاظ باحتكاراتهم على كل السواحل شرق آسيا - مما أدى إلى ازدياد حدة المنافسة بين البلدين ، واتسع نطاقها عام ١٦٢٣ م ، إلى حد أن الهولنديين ، دبروا مذبحة فى أمبويانا Amboyana ضد الإنجليز .

بعد هذه المأساة اضطرت الإنجليز إلى ترك جزر التوابل وتراجعوا إلى الأرض الرئيسة في الهند . وفي أثناء حكم كرومول ، دفع الهولنديون إلى بريطانيا تعويضا قدره ، ٨٥,٠٠٠ خمسة وثمانين ألف جنيه إسترليني . ومع هذا ، لم يقلل ذلك من عزيمة الهولنديين ، فنجدهم ينتزعون ملقا من البرتغاليين عام ١٦٤١ م . وفي عام ١٦٥٨ ، استولوا أيضا على سيلان Ceylon ، كما استولوا في الهند على نيجاباتنام Negapatnam الواقعة على ساحل مدراس ، واستولى الهولنديون كذلك على تشنسورا Chinsurah في البنغال . ومن البداية إلى النهاية ، كان مركز هولندا في الهند غير ذي أهمية ، نظرا لصغر مساحتها وقلة عدد سكانها . ومن عوامل إنبهار النفوذ البرتغالي في الهند المنافسة الدنمركية .

تشجع الدنمركيون في المشاركة في التجارة الهندية ذات القيمة الإقتصادية ، بعد أن رأوا التجار الأوروبيين يمارسون تلك التجارة . ففي عام ١٦٢٠ م ، حقق الدنمركيون أهدافهم عن طريق تأسيس تجارهم لمستوطنتين ، أسست إحداها في مقاطعة تتجور Tangore ، وأسست الأخرى في مقاطعة ترانكبار Tranquebar . وفي عام ١٦٧٦ م احتل الدنمركيون سيرومبور Sirumpour ، ومع ذلك لم يكن لهم من المستوطنات في الهند ما يستحق الذكر . وفي عام ١٨٤٥ م ، باع الدنمركيون مستوطناتهم في الهند إلى الحكومة البريطانية^(١) .

ومن عوامل إنبهار التواجد البرتغالي في شرق آسيا أيضا إزدياد نفوذ سلطان مسقط العربي ، الذي أعاد نفوذ العرب على المدن الساحلية في شرق أفريقيا ، والذين عملوا بالتجارة ، ولم يكن العرب - كما هو معروف - مستكشفين ، لهذا ظل داخل أفريقيا مجهولا . ورغم ذلك بقيت أفريقيا مستقرة إلى أن جاء الإستعمار الأوروبي . وفي عام ١٨٤٠ م ، هيئت هذه المنطقة لتكون تحت

سيطرة السيد سعيد حاكم عُمان ، الذى حقق سيطرة على كل ساحل شرق أفريقيا ، بدءاً من عاصمته فى جزيرة زنجبار وحتى ممبسة.

نتائج الكشف الجغرافية البرتغالية:

من المعروف أن البرتغاليين تأثروا بما شاهدوه فى بلاد الشرق ، وانعكس ذلك جلياً فى أسلوبهم المعماري الجديد الذى لا تزال بقاياه حتى يومنا هذا ، ويطلق على هذا الفن المعماري إسم المانويلي نسبة إلى الملك عمانويل ، الذى تم فى حكمه إرسال أول حملة كشفية ناجحة إلى الهند . ويتميز هذا الفن المعماري بكثرة استخدام العناصر الزخرفية المرتبطة بالبحر وبالحياة البحرية ، وبالمنتجات المجلوبة بالسفن ، فقد تم نحت الأعمدة الحجرية المصممة على هيئة الحبال المجدولة التى تحمل الأسقف والشبابيك، كما نحتت دلايات من الرخام والجرانيت على هيئة أعشاب بحرية ، وزخرفت المنازل بالهلوب والدلافين ، والأسماك المنحوتة من الأحجار ، كما زخرفت أطراف الأبراج المدبية بتمائيل ضخمة ، نحتت من الأحجار على هيئة ثمار الأناناس ، وأسنان الفيلة ، وأشجار النخيل والجوز ، وكلها أشياء تذكرنا بالرحلة الأولى حول العالم .

لم تقتصر تأثيرات الرحلة إلى شرق آسيا على الفن المعماري العام بل تأثرت به الأبنية الخاصة ، على مدى قرن من الزمن ، فقد زخرفت الكنائس ، والقصور ، والحصون ، التى بنيت فى القرى والمدن بنفس الكيفية السابقة . ولم يقف هذا الأمر عند هذا الحد ، بل بحلول منتصف القرن ١٦ م تدفق الذهب والفضة على البرتغال ، فاستخدم الورق المذهب بسخاء لتغطية الحوائط ، والأسقف والمذابح ، فأدى ذلك إلى فقدان الحس الجمالى لدرجة أن بريق هذه الأشياء ، كان يحول دون رؤيتها .

ومن النتائج التى تحققت للبرتغاليين أيضا من الرحلة الكشفية إلى الهند أن أصبح لهم تجارة مع الشرق الأقصى ، إضافة إلى فتح أسواق لهم فى غرب أفريقيا والبرازيل ، فحققوا بذلك ثروة طائلة زادتهم إحساسا بالمحيط الواسع وبالطرق البحرية ، وبأهمية كل هذا للوطن البرتغالى ، بماله من خط ساحلى طويل يمثل جزءا من الساحل الشرقى للمحيط الأطلسى . ففى غضون عشرين عاما بعد رحلة فاسكو الأولى ، كان البرتغاليون قد رسخوا نفوذهم بشكل جيد فى المناطق التى فتحوها ، فأقاموا المراكز التجارية ، التى أصبحت بعد ذلك ممتلكات برتغالية تمتد بطول السواحل الإفريقية والهندية ، ووضعوا أساسا لقيام إمبراطوريتهم البحرية .
The portuguse Maritime Empire ، ولكن على الرغم من ذلك فإن استقرار البرتغاليين فى الشرق لم يستمر طويلا ، فقد فقدت البرتغال - ومنذ وقت مبكر - مستعمراتها فى الهند ، واحتفظت لنفسها فقط ببعض المستعمرات الخاصة فى أفريقيا مثل : مالندى التى عقد فاسكو دي جاما ، مع سلطانها المعاهدة الأولى ، التى أصبحت بمقتضاها مالندى من الممتلكات البرتغالية الخاصة ، ومثل موزمبيق التى - كان سلطانها معاديا للبرتغاليين - أصبحت هى الأخرى عاصمة لإقليم برتغالى فى شرق أفريقيا .

ومن النتائج أيضا تنظيم البرتغاليين الفعال للتجارة البحرية الساحلية ، فمن المعروف أن القراصنة إتخذوا من ساحل الملبار Malbar أوكارا لهم ، ودرجوا على مهاجمة السفن الصغيرة التى تعمل بأعداد كبيرة بين كوجارات Cujarat من ناحية ، وسيلان Ceylon ومدراس والبنغال من ناحية أخرى . فمن المعروف أن البرتغاليين حينما استقروا فى الهند ، وفروا قوارب حربية صغيرة مزودة بالمدافع Gun boat لترافق الأساطيل التى تتكون منها السفن التجارية ، وذلك لحمايتها من قراصنة البحر . وبهذه الوسيلة نجح البرتغاليون فى ترسيخ الأمن على طول طرق التجارة الهندية بدرجة جيدة ، بل حموا طرق التجارة من الهند وحتى البرتغال .

وكان من النتائج كذلك إضمحلال موانئ البحر المتوسط وانهيارها ، بعدما كانت من أكثر موانئ العالم إزدهارا وشهرة . ومن ناحية أخرى ازدهرت موانئ أوروبا الغربية ، وتطورت أساطيلها البحرية التي مكنتها من الإستيلاء على المستعمرات ، والتي كانت تمثل مصادر للمواد الأولية ، اللازمة لتلك الدول الأوروبية . وكانت تلك المستعمرات تمثل أهم الأسواق التجارية الإستهلاكية للمنتج الصناعي الأوروبي الزائد عن حاجة السكان . وأدى ذلك بالتالى إلى نشوب الصراع الحربى بين هذه الدول الأوروبية ، خاصة عندما تضاربت المصالح فيما بينها . وقد نتج عن هيمنة الأوروبيين على تجارة الشرق إنهيار جمهورية البندقية ، التي كانت تمثل الوسيط الأوروبى فى نقل تجارة الشرق وتوصيلها إلى أوروبا ، وأصبحت بالفقر أيضا المناطق الخلفية من أقطار البحر المتوسط ، وعادت إلى الإقتصاد الزراعى التي حاولت تطويره .

وكان من النتائج أيضا قيام البرتغاليين بحرمان العرب بعامة والمغاربة المسلمين بخاصة من ممارسة التجارة فى التوابل ، فعندما وصل البوكيرك إلى الهند قرر إستئصال شأفة العرب والمغاربة . ويذكر البوكيرك : " إنه لو استطاع إنجاز هذه المهمة فستكون النتيجة أن المغاربة سيتخلون بشكل كلى عن الهند إلى ملك البرتغال " ومن الجدير ذكره أن الغالبية العظمى من المغاربة التي كانت تعيش فى الهند على التجارة أصبحت نتيجة لذلك غنية وأصبحت هذه الغالبية صاحبة ثروة طائلة ، فالمغاربة كانوا يهيمنون على تلك التجارة ، ويقول البوكيرك " لو حرمانا العرب من هذا العمل فإن سوقهم القديم سوف لا يحتفظ لهم ، ولو بميناء واحد ولا بمكان مناسب فى كل هذه الأرجاء ، يمكنهم من مواصلة تجارتهم فى تلك الأشياء " . وبالفعل حرمت القاهرة ومكة والبندقية من توابل الهند ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا باستخدام البرتغاليين لأسطول حربى ضخم ، كان يقوم بمهمة الإبحار والحراسة ، بصفة مستمرة فى عرض البحر ، ولا يمكن للدول آنفة الذكر الحصول

على تلك السلع إلا إذا ذهب تجارها إلى لشبونة ، لشراء ما يحتاجون إليه من توابل الهند .

ومن النتائج كذلك أن البعثة الكشفية البرتغالية كانت قد مرت بعدد من المدن العربية المشهورة ، الواقعة على سواحل شرق أفريقيا . فهذه المدن هي سوفالا Sofala وموزمبيق وممبسة ومالندى . وكانت هذه المدن جميعها تعيش فى أمن وسلام واستقرار ، بل كان السكان يعيشون حياة مترفة . ظهر ذلك جليا فى مباني تلك المدن المتمثل فى فن العمارة ، وفى الأسواق ، وفى الموانئ التى كانت تعج بالسفن وبالسلع التجارية . ومن الجدير ذكره أن السلاطين العرب فى ساحل شرق أفريقيا قد عجزوا عن مقاومة البرتغاليين ، رغم إمتلاكهم لموارد إقتصادية ضخمة لو استخدموها إستخداما علميا لقضوا بسهولة على أفراد تلك الحملة ، الذين كانوا فى حالة من الإعياء الشديد ، والضعف والإنهاك ، بحيث كانوا لا يستطيعون معها إلى التصدى لأية مقاومة ، حتى ولو كانت بسيطة ، لكن هؤلاء السلاطين إنشغلوا بأمور لا تجدى ولا تنفع واكتفوا بأن يحيوا حياة مرفهة ، بعيدة عن الجد والإلتزام ، فأهملوا تأسيس قوة عسكرية تحمى مدنهم وأموالهم ، وتصون أعراضهم ولكنهم - فيما يبدو إعتبروا أنفسهم فى منأى عن أعين الأوروبيين أو غيرهم حتى أنهم لم يفكروا مجرد التفكير - فى أنه فى أى يوم من الأيام سيتعرضون لأى هجوم خارجى . كان كل ذلك بعيدا عن خيالهم ، لهذا فوجئ هؤلاء السلاطين فى شرق أفريقيا ، بهذه القوة البرتغالية المنهكة الضعيفة التى كان من الممكن القضاء عليها بيسر وسهولة . وكان من نتائج الحملات البرتغالية الكشفية إلى الهند وصولها إلى فارس ، حيث إستولت على ميناء هرمز الهام عام ١٥١٥ م ، إضافة إلى فتح بلاد الشرق - أرض التوابل والثروة - وكان من النتائج كذلك إهتمام الأوروبيين ببلاد الشرق التى وصل إليها عام ١٦٠٠ م عدد من التجار الإنجليز والفرنسيين والهولنديين .

ومن النتائج أيضا وصول بعض المستكشفين إلى آسيا وأفريقيا ؛ أى بعد قرن من الزمن على مجئ البرتغاليين إلى آسيا ، وكان من هؤلاء المستكشفين الكاهن الجزويتى الشجاع ، الذى وصل إلى التبت بنجاح ، ومن بعده قام دورت باربوسا Duarte Barbosa الرحالة البرتغالى ، الذى زار كيلوه فى أفريقيا ، وتأثر بما شاهده فيها من حضارة ، وكتب تقريرا عنها جاء فيه " إن هذه المدينة غنية بالذهب " .

ومن النتائج أيضا ، إستيلاء فرانسيسكو دى الميدا Francisco de Almeida ، على كيلوة التى بنى بها حصنا ، ومن بعدها إستولى على ممبسة ، ثم قام بتدميرها بعد ذلك ، وملئت شوارعها بما يزيد على ١٥٠٠ جثة . وفى غضون سنوات قليلة كان كل ساحل الزنج - ساحل شرق أفريقيا - أى المنطقة الواقعة فيما بين سوفالا ومقديشو قد سقطت فى أيدي البرتغاليين . وكان من نتائج الوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا تعرضهم للتحدى ، من جانب القبائل الداخلية المولعة بالحرب ، ففي عام ١٥٨٧ ، نهب مقاتلو قبيلة زيمبا Zimba كيلوة وذبحو ٣٠٠٠ من سكانها ، وتقدموا مع الساحل وهم يقتلون ويأكلون كل شئ من كلاب وقطط وفئران وثعابين وسحالي ، ولم يتركوا أى شئ . ليس من الغريب أن يأكل سكان قبيلة زيمبا أى شئ مما سبق ذكره لأن هذا من عاداتهم الإجتماعية .

وكان من النتائج أيضا وقوف المستكشفين البرتغاليين على المخاطر الداخلية لأفريقيا ، فكان هناك خوف من رجال القبائل ، وخوف من الجذب ومن الطبيعة غير المشجعة ، ومن الأنهار المسدودة غير الصالحة للملاحة ، كل هذه العوامل ساعدت على تثبيط همة الإستكشاف الداخلى .

ومن النتائج أيضا بناء البرتغاليين للمراكز العسكرية والتجارية على طول خطوط سيرهم ، ومنها كذلك إستكشاف

فرانسيسكو دى الميدا للمنطقة المسماة ماشونا لاند Mashonaland -
ماسونا لاند - الذى قال أن نهر الزمبىزى يعتبر أسهل طريق يؤدى
لداخل ، فهذا النهر فى الواقع هو النهر الوحيد الصالح للملاحة فى
أفريقيا الشرقية ؛ أى أنه صالح لمسافة ٣٠٠ ميل . وفى عام
١٥٣١م ، تمكن البرتغاليون من تأسيس قواعد أمامية فى مستوطنة
سنا Sena ، وفى عام ١٥٦٠ م ، أسسوا مستوطنة تى Tete . وفى
سنا كان البرتغاليون من أول الأوروبيين الذين أسسوا إتصالاً مع
مملكة البانتو Bantu Kingdom التابعة للموانا موتابا Mwanamutaba ،
ويعنى هذا الاسم اللقب الموروث الممنوح للشيخ الأعلى لمجموعة
القبائل التى احتلت فيما بعد من جانب البريطانيين ، والتى عرفت
بروديسيا .

كان أنطونيو جياىو Antonio Gaiado من أول البرتغاليين
الذين وصلوا إلى بلاط الموانا موتابا ، فقد ذهب ليعيش فى بلاط
الموانا موتابا عام ١٥٥٠ م ، ولقب بالقيم على المصروفات
البرتغالية ، فكان له الحق فى ٢٠/١ من قيمة كل الأقمشة المرسلة
إلى الداخل للمقايضة ، وكانت المدينة الرئيسة لمملكة المواناموتابا
تقع على بعد حوالى ٣٠٠ ميل إلى الشمال من القلعة الحجرية
المحصنة ، التى تسمى زيمبابوى العظيمة ، The Great Zimbabwe .
وبحسب ما ذكره الرحالة البرتغاليين ، فإن شعب الموانا موتابا
عاش فترة من الزمن فى زيمبابوى العظيمة ، ثم غادرها بعد
حوالى قرن من الزمن بسبب نقص الإمدادات بالملح ، وفى أواخر
القرن ١٧ م تلاشت زيمبابوى العظيمة تدريجياً - بعد الكشف عن
أطلالها الحجرية - التى أثارت إهتمام وحيرة المؤرخين لفترة
طويلة من الزمن ، إعتقد هؤلاء المؤرخون الأوروبيون بأن بناء تلك
المملكة كان من عمل العرب ، أو ربما كان من عمل الفينيقيين ،
فكانت الأحجار التى بنيت منها زيمبابوى العظيمة شبيهة بالأحجار
التي بنيت منها مملكة أوفير الأسطورية أى مملكة سبأ - الأرض
التوراتية - التى كانت ترسل الهدايا النفيسة إلى الملك سليمان -
نبي الله - وأوضحت البحوث الحديثة بأن زيمبابوى العظيمة بنيت

بواسطة شعوب الماشونا لاند التي كانت تتحدث بلغة البانتو منذ فترات طويلة ، تتراوح مابين ٨٠٠٠ إلى ١٤٠٠ ق.م وتعتبر زيمبابوى رمزا لمملكة ثرية ، كان ينقل منها الذهب والفضة والنحاس إلى سونولا Sonola ، وهناك يباع إلى تجار العرب ، وكان تشييدها من نفس نوعية التشييد السائد في هذا الزمن .

وقد وجد في مملكة البانتو من الخرائب ما يربو على ٣٠٠ خرابية ، وكانت هذه الخرائب قد بنيت من الأحجار المتشابهة ، كما وجد فيها بقايا مساكن للسكان السابقين ، وربما وجد معابد في كل من روديسيا وموزمبيق . وفي عام ١٦٠٩ م ، نشر الكاهن الدومنيكاني - المدعو جاو دوس سانتوس Joao dos Santos تقريراً عن الرحلات التي تمت بصله إلى ممالك البانتو ، فقد زار هذا الكاهن مملكة عرفت بمملكة الكويتيف The Quiteve Kingdom - والكويتيف هذا هو ابن الموانا موتوبا ، الذي حكم تلك المناطق في ذلك الوقت - ووصف جاو دوس سانتوس الشعائر التي كانت تمارس في بلاط مملكة الكويتيف بالقول " لو حدث ورغب بعض الرعاة في تقديم أية شكوى للملك ، كان عليهم أن ينبطحوا على الأرض ، ويزحفون حتى يصلوا إلى المكان الذي يجلس فيه هذا الملك . وعند خروج الملك إليهم ، كانوا يتحدثون دون أن ينظروا إليه ، وفي أثناء ذلك كانوا يضربون الأرض بأيديهم .

وعندما ينتهون من الحديث إلى هذا الملك كانوا يعودون زحفا مثلما فعلوا عند المقابلة ، وكان على البرتغاليين أن يمارسوا تلك الطقوس عند مقابلة هذا الملك ، وعلق دوس سانتوس باستياء على هذا الأسلوب المتبع في بلاط مملكة الكويتيف بالقول " أن الكافرس والبرتغاليين كانوا يتسلون مع الملك بشرب نبيذ الماياس أو بشرب شعيرهم المسمى بنبيذ البومب المتعب للمعدة . وبعبارة المصدر :

" Both Cafres and Portuguese are entertainment by him with wine of Mayas ,or their wheat, called pombe against stomach".

وكان هؤلاء يشربون هذا المشروب رغم أنه يتعب المعدة ويسأل المستكشفون البرتغاليون والكويتيف أسئلة يرجع تاريخها إلى

٢٥٠ سنة ماضية ، ولكن لم يجاب عنها فى ذلك الوقت ، فعلى سبيل المثال كانوا يسألون عن المكان الذى ينبع منه نهر الزمبىزى . وكتب دوس سانتوس يقول : " أن منبع هذا النهر كان يقع على مسافة بعيدة فى الداخل ، بحيث لم يعرفه أحد منهم - أى من البانتو - ولكن كان يقال أن هذا النهر يأتى من بحيرة تقع فى وسط القارة ، وتمتد هذه البحيرة أنهارا أخرى كثيرة بالمياه ، وعلى قدر معرفتنا فلم يصل البرتغاليون إلى أى مصدر لهذا النهر ، ولكن من المعتقد أن التجار صعدوا معه إلى مسافة ٨٠٠ ميل من مصبه ، وكانوا قد أسسوا معارض تجارية فى أحد الأماكن فى الداخل ، ربما تكون هى روديسيا الآن .

ومن النتائج كذلك أنه فى عام ١٦٤٤ ، أجبر البرتغاليون الموانا موتابا أن يصبح موظفا لدى ملك البرتغال ، كما أجبروه على أن يوافق على بناء - كنيسة مسيحية - وأجبر كذلك على إستقبال كاهن برتغالى فى مملكته ليقم الشعائر الدينية لسكان مملكته ، ومن النتائج أيضا أنه فى عام ١٧٠٠ م ، جلب البرتغاليون أسر المستوطنين الأوائل ليؤسسوا مستعمرات فى موزمبيق . ومن الجدير ذكره أنه فى نفس العام لم يكن يوجد من البرتغاليين فى موزمبيق إلا حوالى ٤٠٠ برتغالى ، كانوا يعيشون فى منطقة يبلغ طولها ١٥٠٠ ميل مع ساحل أفريقيا الشرقية ، ومع ذلك لم يتمكن البرتغاليون من الحصول على معدنى الذهب والفضة ، اللذين كانا يأملان فى الحصول عليهما حتى عشية خروجهم من تلك المنطقة .

وكان من النتائج أيضا ممارسة البرتغاليين لتجارة الرقيق الإفريقية ، فكانوا من أول الأوروبيين ، الذين مارسوا تلك التجارة المشينة ، ومن بعدهم مارسها الأسبان ، والبريطانيون على نطاق واسع ، فكان الرق ينقل من غرب أفريقيا إلى العالم الجديد ، لبيعه للزراع الجدد هناك . وكان لهذه التجارة آثار إقتصادية واجتماعية سيئة على القارة الإفريقية .

ولنا أن نتساءل بالقول هل تجارة الرق الإفريقية كانت وليدة مجئ الأوربيين إلى أفريقيا ، أم كانت موجودة قبل هذا المجئ الأوروبى ؟ الإجابة على ذلك تقول أن تجارة الرق الإفريقية كانت موجودة قبل مجئ الأوربيين ، ولكنها كانت تجارة محلية ، وليست عالمية ؛ أى أن تجارة الرق كانت تمارس فى أفريقيا بشكل عادى . وكان الرق يعامل فى البلدان العربية معاملة حسنة بخلاف المعاملة السيئة التى كان يلقاها فى العالم الجديد من قسوة وعنصرية واستعباد^(١) . فمن المعروف أن زنجبار كانت أكبر سوق للرق فى شرق أفريقيا ، فكانت القوافل العربية والسواحلية تتوغل بعيدا نحو الداخل حتى تصل إلى البحيرات الإفريقية الشرقية بحثا عن العبيد - العاج الأسود - ثم تعود هذه القوافل بعد ذلك إلى الساحل الشرقى ومعها الرقيق المربوط والمقيد ، الذى يباع فى سوق زنجبار إلى التجار ، الذين كانوا يقومون بنقله إلى الجزيرة العربية، وإلى شمال أفريقيا وغيرها . وننوه هنا إلى أن الأوربيين مارسوا تجارة الرق الإفريقية على نطاق واسع ، فكان دورهم فى غرب أفريقيا يختلف عن دورهم فى شرق القارة . ففي الغرب كان الأوربيون يأتون كنخاسة أى تجار للرق ، بينما فى الشرق ومنذ عام ١٨٠٠ م وما بعده أتى الأوربيون كمحررين للعبيد ، لأنهم فى ذلك الوقت لم يكونوا فى حاجة إلى خدمات هؤلاء العبيد ، الذين تم الإستغناء عنهم . وبذلك إنتهت هذه التجارة بلا رجعة وإلى الأبد. وللاستزادة انظر: (٢) (٣)

هل كانت الكشوف الجغرافية البرتغالية تهدف إلى الاستعمار والاستغلال ونشر المسيحية ؟

هذا ما سوف نجيب عليه من خلال ما سنتناوله بشئ من التفصيل ، فنتناول أولا الإشارة إلى أهدافهم الدينية . من الواضح أن البرتغاليين لم يكن لهم هدفا دينيا ، بقدر ما كان لهم من أهداف إقتصادية ، فلأهداف الدينية المرتبطة بالكشوف الجغرافية قامت بها

(١) Double day and Company Inc: Exploring Africa and Asia, the encyclopedia of discovery and exploration. Garden city, New York, 1975. pp. 67.182-188 .

(٢) The British seamen during the sixteenth century . look at it .

(٣) Frank Mcquillin. think black . the bruce. Publishing company, New York . 1970 .

جهات دينية بحتة ، ولم تقم بها الحكومات الأوروبية ، لأن تلك الحكومات كانت قد أدارت بظهرها إلى الكنيسة منذ عصر النهضة الأوروبية ، إعتقاداً من الأوروبيين بأن الكنيسة كانت معوقة لحركة النهضة الحديثة ، ومع ذلك حاول بعض رجال الحملات الكشفية البرتغالية نشر المسيحية في الهند عن طريق إستخدام القوة ، كى يتخذ البرتغاليون من ذلك ذريعة أمام الراى العام الأوروبى بأنهم جاءوا إلى الهند من أجل نشر المسيحية ، ووصل بهم الأمر إلى إستخدام القوة ضد السكان الهنود لإجبارهم على اعتناق الديانة المسيحية . وكان البرتغاليون يحاكمون الذين يرفضون الدخول فى تلك العقيدة الجديدة . ومن الجدير ذكره أن البرتغاليين لم يكن هدفهم الحقيقى نشر المسيحية بقدر ما كان هدفاً إقتصادياً محضاً ، فلو كان هدفهم دينياً لكان من الأجدى بهم تنصير سكان أفريقيا من السود وما أكثرهم ، الذين لا يزالون على العقيدة الوثنية . ونذكر على ذلك بما ورد فى المصدر :

" In addition to discovering the trade roats for eastren goods the purposes of the expedition included the spreading of the Christian religion hitherto, condition on the voyage had been impossible for this^(١).

ومن محاولات التنصير غير الجادة تلك التى قامت بها بعثات التنصير الفرنسيسكانية Franciscan Missions ، التى وصلت إلى الهند ، واتخذت من جوا مركزاً لعملها . هذا ما عرف بالجهود غير الرسمية ، إضافة إلى ذلك فإنه فى عام ١٥٤٠ م ، قام البرتغاليون ، بتدمير المعابد الهندوسية فى الهند لإجبار السكان على الدخول فى النصرانية ، ولكن دون جدوى ، وكان هذا الإجراء يهدف إلى تغطية التواجد البرتغالى فى الهند ، بأن الهدف من هذا التواجد البرتغالى هو هدفاً دينياً ، وليس هدفاً إقتصادياً . ونشير هنا إلى أن نشر المسيحية كان يقوم به أفراد وليست حكومات ، ففى منتصف القرن ١٩ م ، قدم إلى جنوب أفريقيا الطبيب البريطانى ديفيد لفنجستون ، الذى كان فى طريقه إلى الصين للتنصير هناك ، ولكنه التقى فى جنوب أفريقيا بالمنصر البريطانى هنرى موفات

^١ Stilla Davies: Op. Cit. p. 88.

Henry Mofat ، الذى أقنعه بالمكوث معه فى جنوب القارة الإفريقية،
كى يمارس نشاطه التبشيرى بين السكان فى هذه المنطقة ، وبعبارة
المصدر:

“ Livingstone purposes in going to Africa had been to spread
the word of God among the African people “^(١)

وفى جنوب أفريقيا لم يَقم ديفيد ليفنجستون البريطانى الجنسية
بالتتصير ، بل قام بالإستكشاف . هذا دليل على أن الهدف الدينى
كان هدفا ثانويا ، فقد تجول ديفيد ليفنجستون فى جنوب القارة ،
واكتشف هذا المغامر البريطانى نهر الزمبىزى ، ووقف على موارد
تلك البلاد الزراعية والمعدنية ، ثم عاد بعد ذلك إلى بريطانيا .
وهناك أخبر أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ، بأن
جنوب أفريقيا أصبح مفتوحا ، وعليكم أن تذهبوا إليها وتستغلوا
مواردها . وندلل على ذلك بما ورد فى المصدر :

In an address at Combridge University he concluded ; I beg to
direct your attention to Africa ... Which is now open . Do not Let it be
Shut again ! I go back to Africa to try to make an open path for comm-
erce and for Christianity " Livingstone returned to Africa as British
consul at Quelimane , Commissioned to make the Zambezi a path for
commerce into the interior and thus end the slave trade .

بعد هذا العرض يتضح لنا أن هدف هذه البعثات الكشفية
وغيرها من البعثات الأوروبية الأخرى ، لم يكن هدفا دينيا ، كما
ذكر ، فلم نشاهد على سبيل المثال أن رجال بعثة فاسكو دي جاما
هذه وغيرها من البعثات الكشفية حملت على متنها أى أفراد من
القسس للقيام بمهمة التتصير بين شعوب المناطق التى قامت
البعثات البرتغالية بالوصول إليها وكشفها ^(٢) .

بعد أن انتهينا من الإشارة إلى الجانب الدينى نشير ثانية إلى
أهداف البرتغال الإقتصادية ، فمن المعروف أن البرتغاليين قد

^(١) Doubleday and Company Inc. Garden City. New York: Exploring Africa and Asia
: Op.cit . pp. 223. .

^(٢) للإستزادة أنظر : جوزفين كام : المستكشفون فى أفريقيا ، ترجمة د . السيد يوسف
نصر ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٣ م .

رغبوا فى الوصول إلى مصادر تجارة جنوب شرق آسيا (الهند) ،
المتتمثلة فى التوابل والحريير والقطن والأرز والمعادن الثمينة ، إذن
من الواضح جدا أن هدف البرتغاليين كان هدفا إقتصاديا ، والدليل
على ذلك أنهم قاموا بإنشاء بعض المراكز التجارية العسكرية The
Military and Commercial Posts على طول السواحل التى مروا بها .
ومن الأدلة كذلك أن فاسكو دي جاما عندما وصل إلى مالندى
- بلدة صغيرة تقع على ساحل شرق أفريقيا - عقد معاهدة مع
سلطانها كان من أهم بنودها :

- مساعدة فاسكو دي جاما لسلطان مالندى فى حربه ضد
سلطان ممبسة ، حيث قام فاسكو بضرب مدينة ممبسة بالقنابل بعد
عودته من الهند ، وفى مقابل ذلك قدم سلطان مالندى كل التسهيلات
لبعثة فاسكو دي جاما، وفى مالندى أيضا أقام فاسكو عمودا من
الرخام على الشاطئ كذكر لهذه المعاهدة ، وليكن فى المستقبل
علامة مميزة لإنقاذ أى بعثة برتغالية ترسل إلى هذه المناطق .
وندلل على ذلك بما ورد فى المصدر :

" A marble pillar was erected on the shore to commemorate the treaty
and to serve as land mark for future expedition .
This pillar still stands. It is the first permanent construction
made by European on the East African coast"^(١) .

لم تقف أنشطة فاسكو عند هذا الحد ، بل إستمر فى عقد
المعاهدات الإقتصادية ، فقد عقد معاهدة تجارة وسلام مع ملك
كانانور ، ويتضح ذلك من هذا النص المقتبس من المصدر :

" In the course of a week or two and without trouble, treaty of
trade, friendship and peace was signed the king of Cananor and Vasco,
acting as the ambassador of King Portugal. The king of Cananor was
anxious to break the monopoly of the Arabs and was not averse to out-
writing the King of Calicut. Unlike that King he was neither indebted
to the Arabs nor afraid of them" .^(٢)

^(١) Stella Davis: Op. cit. P.88.

^(٢) Stella Davis : Ibid. p. 88.

ومن المبررات الدالة على أن بعثة فاسكو دي جاما لم تكن بعثة دينية حصوله على حق إمتياز يخول له إعداد أسطول صغير بلغ عدد سفنه ١٩ سفينة خاصة بعد نجاحه فى بعثته الكشفية إلى الهند ، وقد شحنت سفن هذا الأسطول جميعها بالسلع البرتغالية الثمينة . بعد ذلك توجه فاسكو بهذا الأسطول إلى الهند من أجل التبادل التجارى فى السلع الشرقية ، وقد حقق فاسكو دي جاما أرباحا طائلة مع أنه بدأ حياته مجرد قبطان سفينة عادية .

وفى الختام يمكن القول بأن الهدف من الكشف الجغرافية البرتغالية ، لم يكن هدفا دينيا ، بقدر ما كان هدفا إقتصاديا محضا ، يتمثل فى إستغلال موارد الشعوب الإفريقية والآسيوية ، المتمثلة فى الحاصلات الزراعية ، والحيوانية والسلكية والمعدنية لصالح الشعب البرتغالى ، فقط دون إستفادة شعوب هذه البلاد من تلك الثروات ، بل وصل الأمر بالبرتغاليين إلى الإتجار فى أبناء أفريقيا ، واعتبارهم ثروة تباع وتشتري ، وساعدهم فى ذلك ما إمتلكوه من قوة عسكرية وبحرية وخبرة علمية مكنتهم من استغلال كل موارد البلاد المكتشفة . وكان من العوامل المشجعة لهم أيضا تخلف البلدان الإفريقية والآسيوية ، بحيث لم يكن لدى حكام هذه الدول من وسائل القوة ، ما يمكنهم من الدفاع عن بلادهم ، بل كان كل جل إهتمام هؤلاء الحكام الأفارقة والعرب على حد سواء اللهو والعمل على أن يحيوا حياة مرفهة على حساب شعوبهم المقهورة المستعبدة .

الخاتمة الأولى

بعد هذا العرض يتضح لنا أن البلدان العربية والإسلامية تمتلك ثروات طائلة لو أستغلت هذه الثروات إستغلالاً صحيحاً لعاد ذلك بالنفع على بلادهم وشعوبهم على حد سواء . فيمكن للبلدان العربية أن تستخدم ثروات بلادها في إنشاء مراكز البحوث العلمية المتقدمة ، وفي تطوير المستشفيات والمدارس والجامعات ، وفي إنشاء صناعات عسكرية متطورة مساهمة للتكنولوجيا الحديثة ، فضلاً عن إنشاء مفاعلات نووية على غرار ما تنشئه إسرائيل ، وما أنشأته من قبل ، وأصبحت بذلك الدولة النووية الوحيدة في الشرق الأوسط ، التي تهدد جميع الدول العربية والإسلامية على حد سواء .

ولكي تحمي الدول العربية والإسلامية نفسها من أي خطر خارجي محتمل فعليها أن تتحد فيما بينها ، بحيث يتضمن هذا الإتحاد العربي الإسلامي كل مناحي الحياة الإقتصادية والعسكرية والسياسية والثقافية والبرلمانية والأمنية . خاصة وأن مقومات هذا الإتحاد متاحة ، فهذه المقومات تتمثل في وحدة الجغرافيا والتاريخ والعقيدة واللغة والعادات والتقاليد . ولو تم هذا الإتحاد فسيكون على غرار الإتحاد الأوروبي . وسيؤدي هذا بالتالي إلى نهضة الشعوب العربية وتقدمها وتطورها ، مساهمة لما يحدث في العالم المعاصر الحر من حولنا.

ومن الجدير ذكره أن البرتغال لم تقم بهذا العمل حبا في الكشف الجغرافي أو حبا في كشف طرق جديدة بقدر ما كان الهدف الحقيقي وراء هذا العمل هو إكتشاف الموارد الإقتصادية المتنوعة في البلدان التي تم كشفها ، سواء أكانت هذه الموارد زراعية

كالمطاط والكاكاو والغلات الزراعية المختلفة أم كانت معدنية كالذهب والفضة وغيرها من معادن ذات أهمية ، مثل النحاس والحديد والألومنيوم . وكانت البرتغال وغيرها من دول أوربا فى حاجة إلى تلك الموارد المختلفة ، لأن هذه الدول الأوربية أصبحت متقدمة علميا ويمكنها إستغلال هذه الموارد المختلفة لصالح أبنائها ، وكانت هذه الدول تحصل على هذه الموارد دون مقابل .

فضلا عن ذلك ، فإن البرتغال إستغلت أبناء تلك الشعوب إستغلالا سيئا فاستعملتهم كعبيد وخدم وزراع وألحقهم وغيرهم من أبناء دول أوربا فى الخدمة العسكرية للعمل فى جيوشها، وقد خرج هؤلاء الأفراد من هذه الخدمة دون الحصول على أى تعويضات أو معاشات. ولم يقتصر إستغلال البرتغال لأبناء مستعمراتها فى أفريقيا وغيرها فى الأعمال المختلفة ، بل تاجرت البرتغال فيهم ، واستخدمتهم كسلعة تباع وتشترى، وظهر ذلك جليا فى عصر ما يعرف بتجارة الرق الإفريقية، ويمكن القول بأن دولة البرتغال رغم صغرها وقلة سكانها إستعمرت الهند وأجزاء من قارة أفريقيا، واستغلت موارد تلك البلاد وأبنائها أسوأ إستغلال ، بل أبشع إستغلال.

الفصل الثالث

الكشوف الجغرافية الأسبانية في مطلع التاريخ الحديث
بين الإستعمار والإستغلال

الفصل الثالث

الكشوف الجغرافية الأسبانية فى مطلع التاريخ الحديث

بين الإستعمار والإستغلال

بعد أن انتهينا من دراسة الكشوف الجغرافية البرتغالية بشئ من التفصيل ، وتوضيح أهدافها ، وما وصلت إليه من نتائج، نتناول أيضا بالدراسة والتحليل دور أسبانيا بشئ من التفصيل . فمن المعروف أن هدف كل من البرتغال وأسبانيا هو الوصول إلى شرق آسيا ، للحصول على التوابل Spices ، والسلع المختلفة الأخرى ، كالمعادن والأرز ، والقطن والحرير وغيرها فإذا كانت هاتان الدولتان قد اتفقتا فى الهدف ، لكنهما اختلفتا فى وسيلة الوصول إلى تحقيقه، فنلاحظ أن البرتغال إتخذت طريقها إلى شرق آسيا من حول أفريقيا ، حتى وصلت فى النهاية إلى الهند ، بينما نجد أن الأسبان إتخذوا طريقهم إلى شرق آسيا عن طريق الغرب ، أى عبر المحيط الأطلنطى .

فإذا كان فاسكو دي جاما هو الشخص المغامر الذى قام على رأس بعثة برتغالية كشفية ، تمكن أثناءها من الوصول إلى الهند نلاحظ أن كريستوفر كولمبس ، هو المغامر الأسباني الجنسية الإيطالى المولد (من جنوه) الذى قام على رأس بعثة كشفية من أسبانيا ، حتى وصل إلى ما يعرف فى ذلك الوقت بالعالم الجديد ، الذى إكتشفه بطريق الصدفة .

أما عن تاريخ ميلاد كريستوفر كولمبس ، فيبدو أنه ولد فى عام ١٤٥١ م ، هذا التاريخ هو الأكثر احتمالا لميلاد هذا الرجل ،

فقد ولد كريستوفر في مدينة جنوه الإيطالية ^(١) ، وهي مدينة صناعية مزدهرة وجميلة ، وميناء يقع على الساحل الشمالى الغربى لإيطاليا، ويدعى جده جيوفانى Giovanni ، الذى كان يعمل نساجا بحكم عمله فى التجارة ، والذى إستقر فى جنوه فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى ، وأنجب جيوفانى هذا ولدا أسماه دومينيكو Domenico ، الذى عمل فى مهنة النسيج أيضا ، وكان لدومينيكو أربعة أولاد ، كان كريستوفر كولمبس واحدا منهم ^(٢)

ولد كريستوفر كولمبس على مفترق طريق عصرين ، عصر القرون الوسطى ، وعصر النهضة الأوروبية ، فكان كولمبس يعكس صفات كلا العصرين ، وكان يملك الإيمان الدينى الراسخ وقوة الإستنتاج والإتصال الوثيق بالمجهول ، وكان يتصف بحب الإستطلاع العلمى والحماسة للحياة ، وتحسس الجمال والإندفاع وراء ما هو جديد ، هذا الإندفاع الذى نقرنه بتقدم العلم والمعرفة ، وكان من أعظم رجال البحر فى كل الأزمان ، هكذا رأى كريستوفر كولمبس فى اسمه إشارة إلى أنه من المقدر له أن يحمل المسيحية عبر البحار إلى الذين لم يعرفوها من قبل ^(٣) . وفى الواقع فإن كولمبس لم يحمل رسالة المسيح فى رحلاته الكشفية إلى العالم الجديد ، ولكن كل ما حملة هو خطته المتمثلة فى البحث عن المعادن الثمينة وبخاصة الذهب والفضة والتوابل وغير ذلك من السلع المختلفة .

أما عن شخصية كريستوفر كولمبس ، فقد أفادت خطاباته ويومياته بأن شخصيته كانت منقسمة على نفسها ؛ أى أنها كانت شخصية إنعكاسية ، فكان من ملامحها إنه فى وقت واحد يكون متعجرفا ، وفى وقت آخر يكون متواضعا ، وفى أغلب الأحيان يكون متملقا ، وأحيانا يكون عنيدا وانتهازيا فى متابعة طموحاته . فعندما كان كولمبس يبحث عن نصير له كان لا يخل من إرتدائه

^(١) Esmond Wright: The Medieval and Renaissance World : A history of civilization from the dark Ages to the Renaissance, New York .1979, p. 307 .

^(٢) Stella Davis: Op. cit . p. 104 .

^(٣) صموئيل إليوت موريسون : كريستوفر كولمبس ، ترجمة فوزى قبلاوى ، بيروت ، عام ١٩٥٩ م ص ص ١٠-١١ .

لخرقة يتباهى بها مثل المغرور المرتدى للحرير والجواهر بعد نصره ، وكان كولمبس فى سن العشرين قبطانا لسفينة تجارية صغيرة، وفى تلك الأثناء تجمع لديه مبلغا صغيرا من النقود، وفى نفس الفترة ، كان كولمبس رجل بحر وتاجر وقرصان ولص بحر، وفى بعض الأحيان الأخرى كان يجمع بين كل هذه الصفات . وفى فترة من الفترات أيضا حارب فى خدمة الكونت الفرنسى رينيه دانجو Rene d' Anjou ، حيث قاد أربعا من السفن فى اتجاه تونس ، وهناك دارت معركة بينه وبين التونسيين ، ولكنه خسر المعركة ، ومنى بهزيمة ساحقة لدرجة أن رجاله تمردوا عليه .

بعد الهزيمة التى منى بها كولمبس ، تمكن من رفع الروح المعنوية لجنوده فحاضوا المعركة ثانية ضد الأعداء ، وانتصروا هذه المرة ، وغنموا غنائم كثيرة . وبعد المعركة وأثناء الهدوء الطويل الذى كان ملمحا من ملامح طقس البحر المتوسط إنكب كولمبس على تعليم نفسه العلوم العربية ، التى حصل عليها من الأسرى العرب ، الذين أسره من شمال أفريقيا . ومن المعروف فى هذا الزمن ، أن العالم العربى كان متقدما فى علم الرياضيات ، وفى فن الملاحة وفى الطب ويعلق كولمبس على ذلك بقوله :

" لقد وجدت مساعدة الله العظيمة للغاية لى " وبعبارة المصدر :

" In his own words, " I found God most Propitious, for I received from him the spirit of intelligence. In seamanship he made me abundant. of astronomy, he gave me enough, as well as geometry and arithmetic and of sufficient ingenuity in my mind and hands to draw this world and on it cities, rivers, mountains and harbours all in its right place and so on (١) " .

ويقول كولمبس " درست جميع الكتابات والتاريخ ، وتعرضت للأحداث والفلسفة ، وإلى فنون أخرى . ولم يكن كولمبس مبالغا فيما يقول ، لأنه جمع مكتبة شاملة احتوت على ملاحظات ، توضح إنه كان يقارن الأفكار بعضها ببعض . واهتم كولمبس بتقرير ماركو بولو ، الذى كتبه الأخير عن بلاد الصين . وكان كولمبس قد دون تقرير ماركو بولو فى هوامش تقريره ،

^١ Stella Davis : Ibid . p.110 .

وذلك للإستفادة منه ، وإلى حد ما تعلم كولمبس التحدث والكتابة باللغة اللاتينية ، مع أن لغته كانت الأسبانية ، وكانت اللغة اللاتينية من اللغات التي بطل إستعمالها في القرن ١٥ م، وتمكن كولمبس من التحدث بالإيطالية والأسبانية أيضا . وقد ذكر كريستوفر كولمبس بأنه نزل إلى البحر عام ١٤٦١ م عندما كان في سن عشر سنوات، ويقال أن والده سمح له بالإبحار مع أحد جيرانه إلى ميناء بورتو فينو لتحميل السمك المجفف إلى كورسيكا ، وأستمر كولمبس يمارس العمل في البحر في الفترة ما بين ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ من عمره. وفي عام ١٤٧٦ م إلتحق كولمبس بقافلة بحرية جنوبية مسلحة لنقل شحنة ثمينة إلى شمال أوروبا ، وكان كولمبس يعمل وقتها على سفينة تدعى بتشالا ^(١) .

وكانت مشكلة كروية الأرض قد أشير إليها في اليونانية القديمة ، ولكنها أغفلت فيما بعد ، ثم أحييت في القرن ١٩ م . ففي عام ١٤٧٤ م ، عين ملك البرتغال لجنة للإستعلام والتحقق ، التي كان من ضمن أفرادها باولو توسكانيلي Paulo Toscanelli الرياضي المشهور ، وقدمت هذه اللجنة تقريراً جاء فيه " بكل تأكيد فإن العالم كروي فالذى يسافر من الشرق سيصل إلى الغرب ، والعكس بالعكس " Vice - Versa .

بعد وصول كولمبس إلى لشبونة مكث مع أخيه مدة سنة ، أبحر بعدها كقبطان لسفينة تجارية إتجهت إلى أيسلندا ، وكتب كولمبس يقول " أبحرت فيما وراء جزيرة ثول Thule الواقعة على مسافة ١٠٠ فرسخ من أسبانيا ، وكان الإنجليز يذهبون بسلعهم من بريستول إلى تلك الجزيرة ^(١) . وكان من المفيد لكولمبس أن يحصل على معلومات عن التجارة الإنجليزية، وفي هذا الصدد فإن النقطة الرئيسية تكمن في أن أيسلند كانت القاعدة المبكرة للرحلات إلى الجرين لاند Green land ، ونوفاسكوشيا - Nova Scotia .

^(١) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق . ص ١٤ .

^(٢) Stella Davis : Op . cit . pp. 104-113 .

وكان كولمبس مهتما بالطرق الممكنة التي توصل إلى الغرب ، وقد لاحظ أن البحار كانت صالحة للملاحة حتى فيما وراء أيسلند ، وفي أثناء عودته من الأيسلند نودى عليه عند جالوى Galway فى أيرلند ، وهناك أخبر بتحطم سفينتين صينيتين، كانتا قد إنجرفتا واندفعتا إلى الساحل فى جلوى . ومن المحتمل أن هؤلاء الصينيين كانوا من سكان منطقة اللابس Lapps التى تضم غالبية الجزء الشمالى من إسكندنافيا الممتدة من ساحل النرويج ، وحتى البحر الأبيض ، وهم يشبهون إلى حد ما الصينيين ، وقوى سوء الفهم هذا اعتقاد كولمبس بأن الصين لم تكن على مسافة كبيرة عبر المحيط الأطلنطى ، فتجربة كولمبس السابقة فى الإبحار كانت أما فى البحر المتوسط أو على امتداد ساحل المحيط الأطلنطى الشرقى وحتى موانئ البرتغال^(١)

بعد ذلك ، وأثناء وجود كولمبس فى لشبونة ذهب إلى كنيسة ملحقة بدير للراهبات؛ هذا الدير أسس لإعالة وإيواء زيجات وبنات الرجال الذين كانوا يحاربون المراكشيين ، فبنات النبلاء والأسر ميسورة الحال كانوا يرسلون إلى هناك أى إلى مدرسة الدير. وهناك تقابل كولمبس بابنة غير شرعية لرئيس أساقفة لشبونة وتزوجا . لتحقيق طموحاته ، فقد تمكن من خلال هذا الزواج من التقرب من الناس خاصة من أصحاب النفوذ ، كى يتمكن من الإتصال بالأرشفيف الأكاديمى للأمير هنرى الملاح ، وبالفعل تمكن كولمبس من تحقيق هدفه ، وتمكن من تفحص الخرائط والرسوم البيانية التى حواها أرشفيف هنرى الملاح ، وقد لجأ فى هذا الصدد إلى الرشوة كى يسمح له بقراءة تقرير توسكانيلى عن شكل العالم فى ذلك الوقت ، وبسريرة تامة نسخ كولمبس خريطة توسكانيلى ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الوقوف على كل المعلومات التى تساعد على القيام برحلته الكشفية المرتقبة^(٢) ولم يمض وقت طويل حتى أصبح لدى كريستوفر كولمبس وشقيقه بارتليميو مؤسسة خاصة

^(١) Stella Davis : Ibid . 114 .

^(٢) Stella Davis : Ibid . p . 114 .

ناشئة لتصميم الخرائط وطبعها ، مما جعلها ذلك (المؤسسة) على اتصال وثيق بكبار ربابنة البحار وأمثالهم من الشخصيات . فقد كانت الخرائط والرسوم آنذاك توضع إعتقادا على المعلومات ومسودات الرسوم التي يعود بها البحارة من رحلاتهم^(١) .

وفي تلك الأثناء أرسل كولمبس شروطه إلى ملك البرتغال وقد تمثلت هذه الواجبات والشروط في قيامه بكشف الأراضي الواقعة في اتجاه الغرب ؛ وكذا الجزر واليابسة Terra-Firma التي هي في معظمها غنية بالذهب والفضة والأحجار الكريمة . وكانت خطة كولمبس تكمن في التغلب على جزر الهند وعلى جزيرة سيپانجو Cipango ، وممالك الخان العظيم - اليابان - وتمثلت شروط كولمبس أيضا في أن يعمل فارسا Knight ، وأن يكون له الحق في إرتداء مهماز Spurs ذهبيا ، وأن تنشأ له وظيفة أدميرال كبير Grand Admiral يخوض غمار البحار المحيطية، وأن يكون حاكما لكل الجزر التي يقوم بكشفها ، ومن شروطه كذلك، أن يحصل على عشر الدخل المتحصل لملك البرتغال ، فضلا على حصوله على نصيبه من فوائد السلع التجارية المتحصلة لصالح ملك البرتغال أيضا .

بعد أن عرض كولمبس واجباته وشروطه على ملك البرتغال شكل هذا الملك لجنة Commission للنظر في مقترحات كولمبس ، وفي تلك الأثناء ، كان كولمبس يتكتم على مشروعه ، ويتكتم أيضا على معرفته لتقرير ، وخريطة توسكانيلى ، لأنه في ذلك الوقت كان يوجد هناك شك في صحة كل من خريطة ، وتقرير توسكانيلى، مع أن كولمبس كان ملما بهما بكل دقة . عندئذ ، شكل ملك البرتغال لجنة من أساتذة جامعيين ، كانوا تحت إشراف أسقف، وذلك لدراسة تقرير كولمبس، وكتبت هذه اللجنة تقريراً قدمته لملك البرتغال جاء فيه " أن كريستوفر كولمبس رجل ثرثار ، ومفعم بالغرور ، ومملوء بالتخيلات ، وأضاف التقرير أنه لا توجد هناك

^(١) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق ، ص ١٦ .

أرض ، ولا جزيرة تسمى سييانجو - اليابان - ولكن يوجد هناك بحر واسع ، يتعذر اجتيازُه ، بحيث لا يستطيع أى ملك أن يخاطر بسفنه كي تعبر هذا البحر . عندئذ رفض ملك البرتغال واجبات وشروط كريستوفر كولمبس .

لهذا وجد كولمبس نفسه محاطا بالإزدراء والشك ، وزاد الطين بلة موت زوجته ، لهذا قرر ترك البرتغال وأخذ معه ابنه ديجو Digo البالغ من العمر خمس سنوات ، وسافرا معا فى سرية تامة إلى أسبانيا ^(١) وفى أسبانيا كانت محاكم التفتيش قد حلت بعد أن كانت قد جردت اليهود من عقيدتهم اليهودية ، ومع ذلك كان يوجد شك فى أى شخص من أصل يهودى ، وكان كولمبس قد ذهب هو وابنُه إلى أسبانيا كرحالتين ، وهناك ذهبا إلى دير كى يسكنا فيه ، مثلما كان يحدث فى العصور الوسطى ، وكان لهم حظ فى هذا الدير ، الذى يقع على تل خارج مدينة بالوس Palos فى قشتالة Castille ، ويتبع هذا الدير النظام الفرنسيسكانى ، ولم يكن كولمبس وابنُه مهتمين بمحاكم التفتيش ولا بمؤسستها السنت فرانسيس Saint Francis ، الذى كان يعلم الناس قواعد الرحمة والتسامح ، واستقبل راهب الدير كولمبس وابنُه الصغير ، وكان هذا الراهب مهتما بالنظريات الجديدة الخاصة بعلم الكون والرياضيات ، واستمع بفهم إلى آراء كولمبس حيث تعاطف مع خيبة أمله ، وتعهد الراهب المدعو - جوان بيريز Brother Juan Perez برعاية ديجو الصغير ، وأعطى كولمبس خطابا ليقدمه إلى دوق ميدينا سيدونا Medina Sidona ، الذى كان من أقوى النبلاء بل أغناهم فى أسبانيا .

تتقل كولمبس ما بين صاحب مقام رفيع وآخر ، وبين الدوقات والكردينالات ، ورؤساء الأساقفة ، وأساتذة الجامعات ، واستمع الجميع تباعا إلى مناشدته ، وكانوا جميعا متأثرين بهذه المناشدة ، لذا أعطوه عدة خطابات توصية ليقدمها لأى شخص

^(١) Stella Davis: Op. 115-116 .

يهمه الأمر ، ومع ذلك لم يقدموا له الأموال اللازمة لعدم اقتناعهم بما فيه الكفاية بأرائه ، ولكن رغم ذلك لم ييأس كولمبس ، بل حاول الحصول على توصية يقدمها إلى كل من الملك فرديناند والملكة إيزابيلا . وفي ذات الوقت كتب إلى الملك هنري السابع ملك إنجلترا ، ولكنه لم يحصل على هدفه ، لذا فقد الفرصة - التي كان سيحصل عليها من الكفيل الإنجليزي - An English Sponsored - الخاصة بكشف أمريكا ، ونظرا لذلك اضطر كريستوفر كولمبس لعدم وجود ممولين له بالأموال إلى بيع رسوماته البيانية وخرائطه، ومن المحتمل أن يكون البعض من تلك الرسومات والخرائط قد سرقها من مجموعة الأمير هنري ، ومن المرجح أيضا أن يكون البعض منها قد عمل أثناء رحلاته ، وفي نفس الوقت كان قد حصل على بعض الأموال الخاصة بممتلكات زوجته المتوفية .

وصلت حالة كولمبس النفسية إلى وضع سيئ للغاية خاصة عندما كان في أسبانيا ، حيث وصف نفسه بأنه مخلوق مقهور ، يرتدى بالطورث ، رغم أنه لا يزال عازما على تحمل الكثير من الذل والهوان والإهانة ، فكان يمضي ساعات طويلة مملّة في حجرات الإنتظار ، بل كان يدفع رشاوى كبيرة للخدم والسعاة كي يحصل منهم لنفسه على مقابلة . وفي نهاية الأمر نجح في إثارة رئيس أساقفة توليدو Archbishop Toledo ، الذي لم تكن نظرياته لوصف الكون ذات أهمية ككثرة الذهب ، الذي كان بيد ماركو بولو والذي عبر عن وجوده بوفرة في كل من اليابان والصين . وعلى الرغم من ذلك ، دبر رئيس أساقفة توليدو لكولمبس مقابلة مع ملك ومملكة أسبانيا وكان هذا اللقاء لقاء تاريخيا على جانب كبير من الأهمية .

قابل كريستوفر كولمبس الملكين بكياسة فريدة ، وبلغة رائعة مثل شخص ملهم ، وحكى لهما تخيله ، وأوضح لهما نسخته من خريطة توسكانيلى كي يرغبهم في المعرفة بشكل أكثر . وكانت نسخة الخريطة التي توضح العالم ككوكب والمملوكة لملك البرتغال ، هي

التي كانت العامل المهم في إنجاح المقابلة ، أى أن ملكى أسبانيا كان لديهما فكرة عن أهمية مشروع كشفى ، مثل الذى تقدم به كولمبس . وكان من المعروف فى ذلك الوقت فى أسبانيا أن البرتغاليين كانوا ولا يزالون يقومون بكشف طريق يوصل إلى الشرق عن طريق الإبحار حول أفريقيا ، ومن هنا وجدت فرصة تقدم للجار الأسباني المنافس للبرتغال ، كى يكون فى الطليعة . عندئذ واجه ملكا أسبانيا قرارا صعبا ، وقالوا إنه فى حال نجاح هذا المشروع فإنه سيكلفهما الأموال والرجال والسفن .
وبعبارة المصدر :

“ King Ferdinand and Queen Isabella of Spain faced a difficult decision. A sea Captain from Genoa, Italy had come to them with a daring plan, if it succeeded, it would bring great riches to Spain . If it failed it would waste money , men and ships.”^(١)

بعد مقابلة ملكى أسبانيا لكولمبس واقتناعهما بما عرضه عليهما من آراء عين الملكان لجنة للإستعلام ، وفى أثناء قيام هذه اللجنة بعملها الإستقصائى مكث كولمبس طوال أربع سنوات فى أسبانيا ، حصل خلالها على مبالغ صغيرة من الخزانة الأسبانية لم تكن تفى بكل متطلباته ، مما اضطره ذلك إلى رهن مكتبته النفيسة . وفى ظل ظروف قاسية كهذه أصبح كولمبس إنسانا رثا يرتدى زيا مهلهلا ، وفى تلك الفترة التى كان كولمبس يمكث فيها فى أسبانيا إرتبط بعلاقة حب مع إحدى السيدات وتدعى بيتريس إنركويز Beatrice Enriquez ، ويبدو أن هذه السيدة كانت عشيقته ، لأنه لم يعلن الزواج منها ، وقد ولدت له مولودا ، عامله كولمبس بالمساواة مع ابنه الشرعى المدعو ديجو ، وبعد نجاحه فى تحقيق مطالبه من ملكى أسبانيا ، والموافقة على قيامه برحلته الكشفية التاريخية ، دفع إلى هذه السيدة مبلغا من المال وترك لها معاشا يساعدها على مواجهة الحياة ، وأوصاها برعاية ابنه الشرعى ديجو ، أثناء قيامه برحلته الكشفية عبر الأطلنطى . وفى عام ١٤٩٠م إلتقى كولمبس فى بالوس برئيس دير يدعى جوان بريس Juan Perez الذى وثق فيه كولمبس خلال كل سنوات الملل ، وفى تلك الأثناء ، أرسل الأخ

^(١) George Shattel: Decision in United States history. lexington. 1975. p. 8 .

جوان بريز خطابا إلى الملكة إيزابيلا، مع راهب من رهبان الدير الذي يترأسه ، وعاد هذا الراهب من عند الملكة ومعه ٢٠ ألف مارافيد (عملة أسبانية) لإعطائها لكلومبس . وبعد ذلك استدعت الملكة كولمبس لمقابلتها في البلاط الملكي الأسباني ، وأخبرته بموافقتها وكذا الملك على القيام برحلته التاريخية . وقد أنفق كولمبس مبلغ الـ ٢٠ ألف مارافيد في شراء معدات للرحلة ، تمثلت في ملابس وبغال ^(١)

وفي نفس تلك الفترة أيدت إيزابيلا بشدة مقترحات كولمبس قبل أن تنفض اللجنة وتتلاشى - هذه اللجنة التي أشرنا إليها آنفا - والتي لا يزال أعضاؤها غير قادرين على الوصول إلى إستنتاج حول خطة كولمبس ، وتعنى موافقة الملكة على قيام كولمبس برحلته الكشفية مدى إهتمامها بهذا العمل التاريخي المهم ، والنافع لأسبانيا ^(٢) وتقرر أن يكون لرحلة كولمبس عبر الأطلنطي كفيل Sponsor يتولى تجهيز وإعداد هذه البعثة الكشفية إلى الجهات المجهولة ، وكان الكفيل فيما يبدو هو دولة أسبانيا . وكان لكولمبس مطالب تتمثل في مكافآت يحصل عليها بعد الإنهاء من رحلته الكشفية ، وكانت هذه المطالب متطابقة مع تلك التي اتخذها الملك جون ملك البرتغال مع فاسكو دي جاما منذ سنوات، وتمثلت مطالب كولمبس في منحه لقب الفروسية - هي رتبة شرفية إنجليزية-علاوة على حصوله على هبات ذهبية تبلغ قيمتها ١٠% من قيمة ما يتم الحصول عليه من العالم الجديد ، واشترط عدم إلغاء أى شئ ، ولكن ملكا أسبانيا رفضا هذه المطالب ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قام الملكان بطرده من البلاد ، فغادر كولمبس جرانادا Granada وهو في خيبة أمل عميقة وإذلال . لكن رغم ذلك لم ييأس، وأخبر بأنه عازم على الذهاب إلى إنجلترا ليناشد الملك هنري السابع مساعدته على تنفيذ مشروعه الكشفى ، ولكنه خاب أمله أيضا رغم الحاحه الشديد . وفي أثناء ذلك ساد البلاط الملكي الأسباني

^١ Stella Davis: Op. cit. p 118.

^٢ Stella. Ibid. pp. 116 . 117.

أفكارا جديدة ، واقتناع بمشروع كولمبس ، فقد جمعت الملكة إيزابيلا ثروة كبيرة من أجل إنفاقها على إنجاح هذا المشروع الكشفي ، فكانت الحكومة الأسبانية قد استولت على ممتلكات اليهود في أسبانيا عقابا لهم على استمرار تمسكهم بعقيدتهم اليهودية. وفي تلك الأثناء، نصح كاهن الإعراف الخاص بالملكة إيزابيلا - يهودى متحول إلى المسيحية - بأن تقوم بإنفاق النقود المتحصلة من ممتلكات اليهود في نشر المسيحية في الشرق الأقصى ، بعد وصول كولمبس إلى هذه الجهات ، وتعهدت بتحملها تكلفة تجهيزات الرحلة ، لأنها فيما يبدو عرفت القيمة الاقتصادية التي ستعود على أسبانيا من جراء هذا العمل . بعد ذلك أرسلت رسولا لإحضار كولومبس إلى جرانادا .

وكان هذا الرسول قد وجد كولمبس واقفا على كبرى في منطقة بينوس Pinos المجاورة للدير ، الذي كان كولمبس قد عاد منه لتوه ، وهو مغموم ، ورغم ذلك كان معه خطط جديدة خاصة بمشروعه الكشفي ، ففي البداية كان كولمبس مترددا لأنه كان يخشى عدم إنجاح هذا المشروع ، وثانيا كان رافضا العودة إلى البلاط الأسباني مرة ثانية ، ولكن بعد ذلك كتب كولمبس يقول :
" تحدث الله إلى فعدت إلى أسبانيا " وبنص المصدر :
" The lord God spoke to me and I returned to Spain

وكان عمرى آنذاك ٤٠ سنة ، ولمدة ١٥ سنة من هذه السنوات الأربعين تابعت هدفى بقوة " (١)

بعثات كريستوفر كولمبس :

بعد الجهد الذى قام به كريستوفر كولمبس ، تمكن من تحقيق هدفه ، فقام على أثر ذلك بإعداد عدد من السفن هى على النحو التالى : السفينة لابنتا La pinta وهى السفينة المزخرفة ، والسفينة لانيينا La Nina أى الفتاة ، والثالثة وهى السفينة مارى جالنت Mary

galante ، أى السفينة مريم العذراء المباركة Frivolous Mary ،
وتعرف أيضا بسانتا ماريا .

وبعبارة المصدر :

“ Three Ships armed caverels, were provided , la pinta
(the painted one) , La Nina (the girl) , Marigalante (Frivolous Mary) ,
this Last was recherché the santa maria Holy Mary “^(١)

وكانت السفينة سانتا ماريا هى السفينة التى رفع عليها العلم
الأسباني ، والتى قادها كولمبس ، وكان طول هذه السفينة من أعلى
٦٦ قدما ، وشحنت بـ ٢٢٣ طنا ، من المعدات والمؤن ، وكانت
السفینتان الأخريتان أصغر قليلا من هذه السفينة ، وسلحت هذه
السفن الثلاث بمدافع من عيار ٤ بوصة ،التى كانت تطلق قذائف
من الجرانيت ، وكانت هذه القذائف الجرانيتية تستخدم لحفظ
التوازن على متن تلك السفن ، وحشدت هذه السفن فى ميناء بالوس
Palos ، وكانت أطقم السفن من الرجال المحليين ، الذين كان
معظمهم من الضباط والذين كانوا ينتسبون إلى عائلات بحرية ،
مثل عائلة : بنزون ، وعائلة نينو ، وعائلة آل كوينتيرو . وقد تقلد
مارتن ألونسو بنزون قيادة السفينة بنتا ، التى كان يدعى صاحبها
بنتو ، وكان برفقة مارتن ألونسو شقيقه فرانسيسكو ، برتبة معاون
أول ، وقاد السفينة نينا شقيق مارتن ألونسو والمدعو فينسنت بانيز
بنزون ، وكان يملك تلك السفينة جون نينو ، وقاد السفينة سانتا ماريا
كريستوفر كولمبس نفسه وعاوناه صاحبها المدعو جون دى
لاكوزا . وكان مارتن ألونسو بنزون راهبا وبحارا فى آن واحد ^(٢) .
وكان ذا خبرة كبيرة فى مجال الإبحار . وكان على متن كل سفينة
مرشد وضابط وطبيب ، وكانت البقية تضم بعض الاختصاصيين
من أمثال لويس دى توريز اليهودى المتصصر ، ورود ريجو دى
إسكوبيدو ، وكان سكرتيرا للإسطول ، بحيث كان يسجل كل ما
يكتشف ، ورود ريجو سانشيز ، وكانت مهمته المحافظة على
حصّة التاج من الذهب ، إضافة إلى بدرو جوتيريز ، الذى كان
يشغل وظيفة خادم فى قصر الملك الأسباني سابقا ، وكذلك ديجو

^(١) Ibid . p.120 .

^(٢) Ibid . p.121 .

هارانا عم عشيقه كولمبس، وكان يشغل وظيفة مارشال للأسطول.^(١)

بعثة كولمبس الأولى:

بعد أن اتخذت كل الإستعدادات بدأت بعثة كولمبس الأولى مهمتها في ٣ أغسطس عام ١٤٩٢ م. وكانت هذه البعثة مكونة من ثلاث سفن وتسعين من الرجال . وفي ٩ سبتمبر من نفس العام وصل كولمبس إلى جزر الكناريا ومن بعدها واصل مسيره غربا ، وفي ٧ من شهر أكتوبر من نفس العام وصل كولمبس إلى خط طول ٦٨°^(٢) غربا. وفي تلك الأثناء بدأ البحارة يتذمرون بسبب طول المسافة ، وبسبب السرعة التي ساروا بها ، فالعاصفة الغربية القوية لم تخف عنهم طوال المسافة بين وطنهم ، وبين الجزر الخالية من السكان . وكان كولمبس قد زيف جهاز قياس سرعة السفن ليخفى عن طاقم السفن المسافة الفعلية التي سيقطعونها، وكان كريستوفر يسجل الحقائق بشكل إنفرادي في مفكرته . وفي تلك الأثناء إنزعج الطاقم من سكون الريح ، فربما اعتقد أفراد البعثة ، بأن الريح لم تتغير أبدا في وسط المحيط بحيث لم يكن في مقدورهم العودة ، خاصة وأن فن الملاحة كان في مراحل الأولى ، وفي نفس الوقت لم يكن هناك شئ معروف عن الاختلاف المغناطيسي للأرض ، وبدا أن النجم القطبي هو المرشد الثابت للبحارة ، وفي الفجر المبكر من صباح أحد أيام شهر أكتوبر، انحرفت سفينتين من سفن البعثة إلى كهف رملي صغير يقع في مجموعة جزر البهاما ، واحتشد الجميع في فرح في جوانب السفن، وفوق أسطحها العلوية ، وهم في حالة إندهاش وراحة^(٣) . وتاخمت السفن لصخور الكهف شديدة الانحدار ، كما شاهد أفراد البعثة أشجار غير مألوفة نمت على حافة الماء ، وطار من فوقها

(١) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق ، ص ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) Norman A. Graebner and other : op. cit. p . 12 .

(٣) Baker . B. J. N.L : A history of geographical discovery and exploration, New York . 1962. p. 79 .

البيغاوات وطيور الطنان في كل اتجاه ، وعلى الشاطئ وقفت مجموعة من الوطنيين الهمج العراة يثرثرون ، ويومئون لأفراد البعثة ، واعتقد كولمبس ورجاله بأن هذه الجزيرة لم تكن بعيدة عن ساحل آسيا ، كما كانوا يعتقدون، بل كانت عبارة عن أرخبيل أسماه كولمبس أرخبيل جزر الهند الغربية .

وكان كولمبس قد وصل إلى البحر الهندي ، كما كان يعتقد ، بعد ٣٣ يوما من رحيله من قادش ، واكتشف الكثير من الجزر المكتظة بالسكان واستولى على تلك الجزر دون أدنى مقاومة .^(١) وقد تحقق النجاح في إيجاد أرض عبر الأطلنطي تحت إسم ملك أسبانيا ، مما جعل كولمبس يتولى القيام بوظيفة الأدميرال ، فذهب إلى الشاطئ بكل تشريف ، وهو يحمل العلم الملكي الأسباني ، ومن بعده أتى فيسنت بنزون Vicent Pinzon ، قبطان السفينة نينا وبصحبه كاهن السفن والموثق العام ، الذي أخذ دقائق في وصف المناسبة .

وبعد ذلك ، أتى طاقم سفينة كولمبس ، وبرفقته الحارس المسلح . وفي تلك اللحظة طلب الأدميرال من الجميع أن يشاهدوا الكيفية التي سيتم بها الإستيلاء على الجزيرة باسم ملك وملكة أسبانيا ، ولاحظ أفراد الأطقم الأسبانيين أن سكان الجزر كانوا فضوليين وودودين^(٢) ، بل لم يكونوا خائفين وتزاحموا حول الأسبان فوزع عليهم كولمبس الأجراس النحاسية والخرز الزجاجي، وفي المقابل تسلم الأسبانيون منهم الفاكهة والبيغاوات ، وكان سكان هذه الجزر فضوليين لرؤية السيوف المعلقة في الأغصان الموضوعة على السيقان الشمالية للحراس ، فالصلب الذي صنعت منه هذه السيوف، لم يكن معروفا بالنسبة لسكان الجزر ، فكانوا يشاورون ويمنون للإستعلام عن هذه السيوف .

^(١) Emily Davie and others: Profile of America .U.S.A . 1954 . P. 29 .

^(٢) Baker B: op . cit . p. 82 .

فبحقد وخبث تناول أحد الجنود الأسبان سيفه من غمده ، وأشار به فى اتجاه أحد سكان الجزر ، فمسكه هذا الهندى ، وعلى الفور تركه وانصرف ، ويده تدمى لأنها جرحت جرحا بليغا ، فانسحب سكان الجزر من موقع التجمع ، وهم فى حالة من الرعب . وقد سكنت جزر البهاما بالشعب الذى عاش إلى حد بعيد على الحاصلات الزراعية ، وعلى الصيد ، وكان سكان جزر البهاما فقراء وذا ثقافة بسيطة ^(١) وكان كولمبس قد توقع حضارة متقدمة فى هذه البلاد ، ولكنه لم يجد أثر لهذه الحضارة ، مع أن ماركوبولو، وصف ثروة هذه الجزر بأنها عبارة عن قصور كبيرة مسقوفة بالذهب ومملوءة بالسلع التجارية . وفى تلك الجزر تجول كولمبس من جزيرة إلى أخرى بحثا عن الأرض التى سيحقق فيها أحلامه . وكان من المهم أن يجد شيئا ذات قيمة يعود به إلى أسبانيا، لأن هذا هو هدفه ومصدقا لتأكيداته السابق وليؤثر به فى كل من ملك ومملكة أسبانيا، وكان من الصعب على كولمبس أن يؤسس إتصالا مع سكان الجزر ، لأن هؤلاء السكان كانوا حذرين . لهذا كانت القوة ضرورية لإرغامهم على أن يكونوا قريبين من الأسبان؛ إما عن طريق الكلمات القليلة العامة المتبادلة بين الطرفين ، وإما عن طريق الإيماءات ^(٢) . وفى تلك الأثناء علم كولمبس بوجود أرض واسعة واقعة فيما وراء غروب الشمس ، ومن الممكن وجود الذهب فى هذه الأراضى التى كانت تمثل قارة أمريكا أو ما يسمى بالعالم الجديد .

كان كولمبس قد عثر على معدنى الذهب والنحاس فى الجزر الواقعة فى مصبات الأنهار ، ولكن بكميات قليلة ، وكان سكان الجزر قد عرفوا صهر النحاس واستعملوه كحلى . ولم تكن المعادن موجودة بكميات كبيرة أو بوفرة لكنها وجدت بشكل يبرر إرسال مثل هذه البعثة ، كأعتقاد كولمبس ، وأثر جمال الجزر فى كولمبس بحيث وجد أوقات فقد فيها كل شئ إلا إحساسه الشعرى

^١ Stella Davis: Op cit pp. 122-123 .

^٢ Ibid: p. 123.

Poetic Feeling وبعد ذلك ، غادر كولمبس تلك الجزر ، ودخل البحر الدافئ ، ثم إنجرف بعد ذلك هابطا مع نهر يوجد على شواطئه أشجار شبه إستوائية ونباتات ، وشاهد الطيور الملونة الغريبة تحلق في الجو ، عندئذ بدا له أنه في جنة الفردوس وبعبارة المصدر :

" He was watching the flight of strange and colourful birds . it seemed to him that he was in paradise^(١) .

ورغم ذلك لم يكن لدى كولمبس نظرة عاطفية نحو السكان الذين قطنوا هذه الجزيرة ، وبدوا له بأنهم جهلاء وعديمي المنفعة ، وذلك بسبب ممارستهم لأبسط الأعمال الريفية ، لأنه لم يكن لديهم الرغبة في العمل ، ويمكن أن نقبس من يوميات كولمبس ما نصه " كانت أسلحة الناس هنا بسيطة ، وسأعود بسبعة منهم إلى أسبانيا ، فعلى ملكهم أن يقرر إما أن نحصل عليهم جميعا ونرسلهم إلى قشتالة أو نهينهم للعمل هنا " وفي النهاية سيكون في إمكان خمسين حارسا مسلحا مراقبة السكان الوطنيين ، ودونت بيانات أخرى جاء فيها : " أنه بالأمس قدم زورق Canoe بالقرب من السفينة التي كان على متنها كولمبس ، وكان على متن هذا الزورق ٦ من شباب الوطنيين ، صعد خمسة منهم على ظهر السفينة فاعتقلهم كولمبس ، لإرسالهم إلى أسبانيا ، وبعد ذلك إستولى كولمبس على سبع من النساء كان البعض منهن بالغين ، والبعض الآخر منهن من الفتيات^(٢) . وأعتقد كولمبس بأن تلك الجزر التي وصل إليها كانت هي نفس الجزر الواقعة في جنوب شرق آسيا^(٣)

بعد إنقضاء ثلاثة شهور تقريبا في الأرخبيل الواقع في البحر الكاريبي : أبحر كولمبس عائدا إلى أسبانيا ، وترك من خلفه في هذه الجهات الجديدة حصونا صغيرة محصنة ، كان كولمبس قد شيدها منذ وصوله إلى تلك الجهات ، وفي طريق العودة إرتطمت سفينة القيادة المعروفة بـ The santa Maria بشاطئ رملي عندما كانت على مسافة قصيرة من الميناء ، فانتقل كولمبس وطاقمه إلى

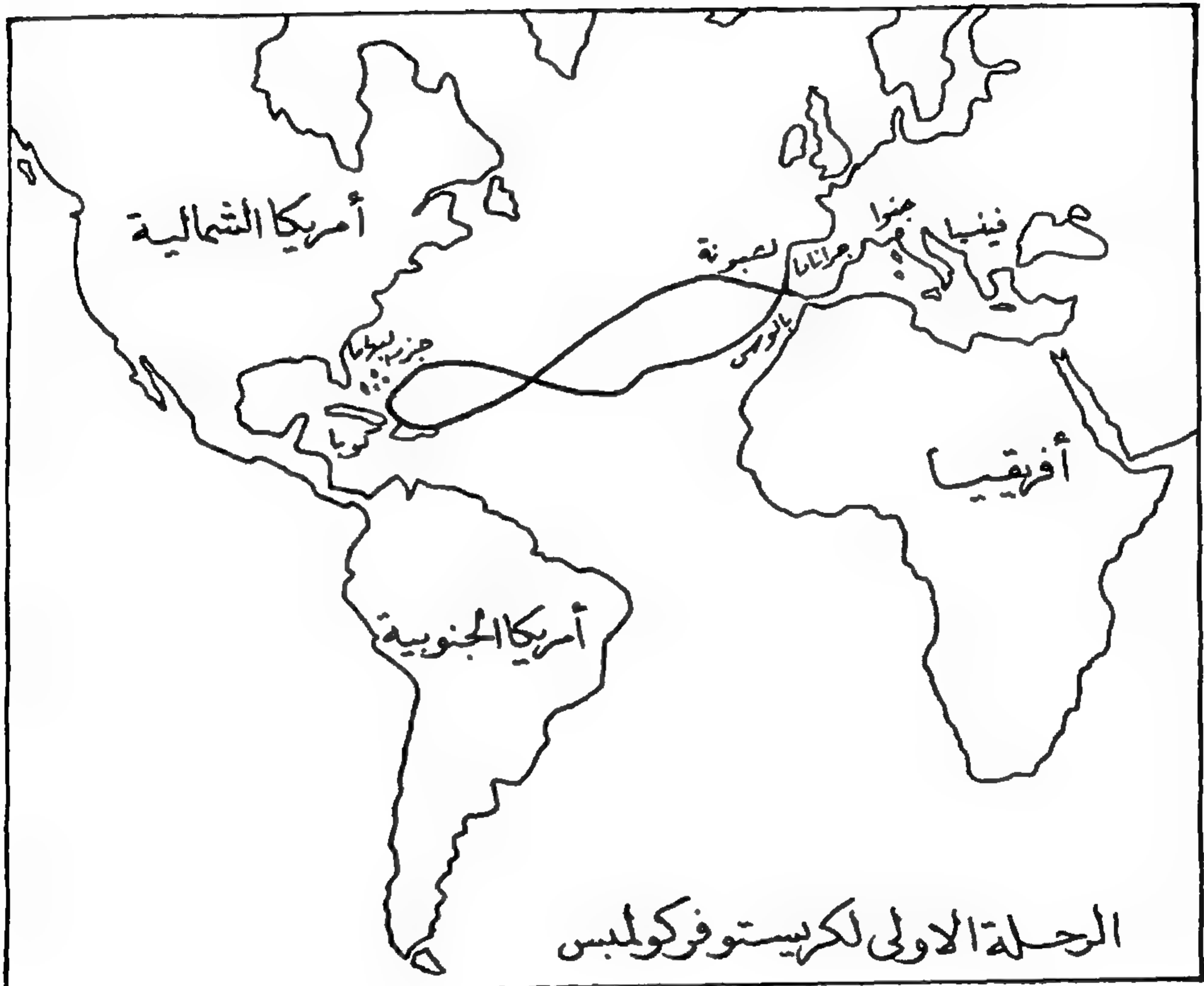
^(١) Stella Davis. Ibid . p. 124 .

^(٢) Stella Davis. Ibid .p. 125 .

^(٣) Wallace W. At wood and others : the growth of nations, U. S. A. 1944. p. 27.

السفينة نينا Nina، وكانت السفينتان نينا وبنتا ، قد انفصلتا في وسط المحيط أثناء عاصفة مما اضطر كولمبس إلى الإبحار قليلا نحو الشمال خارج مساره ، أى أنه أبحر مع تيار الخليج الكاريبي . وفى ١٥ مارس عام ١٤٩٣م ، وصلت أولا السفينة نينا بمفردها إلى قادش فى أسبانيا، وكان كولمبس قد جلب معه عددا من سكان الجزر، وكمية من الذهب ، وعددا آخر من البيغاوات - التى حصل عليها من إحدى الجزر - والتى أخذها البحارة إلى نساءهم ، وفى ذلك الوقت كان البيغاء الهدية المألوفة والمعتادة المجلوبة من الأراضى الأجنبية ، وبذلك يكون كولمبس قد عاد من رحلته الأولى التى كانت من أهم معالم إنتصاره ، بل كانت نقطة الذروة فى حياته، وبعد عدة أيام من السفر ألقت السفينة نينا بمراسيها فى ميناء بالوس . وهناك أرسلت كل الهدايا إلى أصحاب السمو الملكى ؛ الملك فرديناند والملكة إيزابيلا ملكا أسبانيا . واستغرقت رحلة العودة هذه ٢٢ يوما. وتعد هذه الرحلة أعظم رحلة على مر العصور ، لما لها من نتائج إيجابية فى المستقبل على الشعوب والحكومات الأوروبية ، وكان كولمبس قد تعرض لأخطار متتالية أثناء الرحلة التى كان من نتائجها معرفة الأوربيين بأخبار أرض جديدة غريبة ، تلك الأرض التى سميت فيما بعد بأمريكا ، التى تقع على الجانب الآخر من بحر الظلمات ؛ أى تقع على الشاطئ الغربى للمحيط الأطلسى .

قدمت الحكومة الأسبانية كل التشریفات Honours والألقاب Titles التى سبق وأن وعد بها كولمبس ، كما قدمت له أسبانيا مهاميز ذهبية The golden spurs . ومن الواضح أن بعثة كولمبس الأولى لم تحقق أهدافها ، التى كان ينبغى تحقيقها ، وتتمثل هذه الأهداف فى الوصول إلى شرق أسيا ، وجلب المعادن الثمينة والتوابل ، لكن أى شئ من هذا لم يجلب باستثناء جلب بعض الأفراد من الهنود الحمر من النساء والرجال، وبعض البيغاوات والبعض من النباتات... إلخ لذا قررت أسبانيا إرسال بعثة كشفية أخرى .



الرحلة الاولى لكريستوفر كولمبس

بعثة كولمبس الثانية:

بدأت رحلة كولمبس الثانية في ٢٥ سبتمبر عام ١٤٩٣م من قادش في أسبانيا وكانت تضم هذه البعثة ١٧ سفينة ؛ المعروف منها ٤ سفن فقط هي : السفينة سانت ماريا ، والسفينة كولينا ، والسفينة لاجالينا ، والسفينة نينا ، وضمت هذه البعثة إلى جانب كولمبس ، الدكتور ديجو تشانكا جراح الأسطول ، وميشال دي كونيو ، وملكبور مالدونادو وهو دبلوماسي أسباني ^(١) وكان الهدف من إرسال البعثة الثانية إكمال عمل كولمبس الأول ، الذي بدأه في السنة السابقة . قاد كولمبس بعثته الثانية متجها نحو الشرق من هاييتي ، وهناك أسس مستعمرة نافيداد Navidad ، وانتهز كولمبس هذه الفرصة وتقدم أكثر نحو الجنوب . وفي ٣ من شهر نوفمبر من نفس العام شاهد كولمبس أرضا أطلق عليها الدومينيكان Dominica ، وهو الاسم الذي لا يزال باقيا حتى اليوم ، واكتشف كولمبس أثناء هذه الرحلة عددا من الجزر الصغيرة . ومن الدومينيكان ، مر بجزر الماري جالانت Marie Galant ، وجزر لي ورد Lee Ward ومر أيضا بأرض المنتسرات Montsrat والنافيز Navis وبسنت كروز Saint Cruz . وبعد ذلك وصل كولمبس إلى كل من بيورتوريكو Puerto Rico وجاميكا Jamaica وكوبا Cuba ، وسانتو دومنغو Santo Domingo ، ومن بعدها وصل إلى مسافة بعيدة في اتجاه مستوطنة هاييتي التي وجدها مهجورة . ومن المعروف أنه اكتشف كوبا وسانتو دومنغو في رحلته الأولى ، وقد نتج عن حملة كولمبس الأولى والثانية أن أسبانيا إمتلكت جزر كثيرة سميت في ذلك الوقت بجزر الهند الغربية . وفي حملته الثالثة والرابعة وصل كولمبس إلى الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية ، وكان كولمبس قد اكتشف معظم الساحل الشرقي لأمريكا الوسطى Central America . ووصل بعد ذلك إلى أمريكا الجنوبية ، في نفس السنة التي وصل فيها كابرال Cabral إلى ساحل البرازيل ^(٢) .

^(١) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق ، ص ص ١٠٦-١٠٧ .

^(٢) Eugence. Baker: The building of our nation . New York, 1946. pp.123-124.

بعد ذلك أبحر كولمبس على طول الساحل الجنوبي لكوبا ، ثم وصل إلى جاميكا Jamaica ، واكتشف الساحل الشمالى لتلك الجزيرة ، ومن بعدها عاد كولمبس ليكمل بحثه للشاطئ الجنوبى لكوبا ، ثم وصل إلى إستنتاج مفاده أنه لا يوجد هناك جزيرة ، ولا يوجد جزء من الأرض الرئيسة لآسيا . وفى ١٠ مارس عام ١٤٩٥ م عاد كولمبس إلى أسبانيا ومعه كمية من الذهب وأنواع من الطيور وعينات من الفاكهة والنباتات مثل الذرة واليام^(١) . بعد عودة كولمبس من بعثته الثانية رأى أنها لم تحقق الهدف الذى أرسلت من أجله ، وهو الوصول إلى شرق آسيا ، والحصول من هناك على التوابل والمعادن الثمينة وغيرها، ووضع هذه المنطقة تحت السيطرة الأسبانية .

البعثة الثالثة لكولبس :

فى ٣٠ من شهر مايو سنة ١٤٩٨ ، أبحر كولمبس على رأس بعثة كشفية أخرى عبر الأطلنطى ليصل إلى المناطق التى وصلها فى رحلاته السابقة وتكونت هذه البعثة من خمس سفن هى نينا ، وإنديا ، ولاناو ، ولافكوينوس ، والسفينة كوريو ، وهى الأخيرة ، وكان على رأس ٣ سفن من هذه السفن ألونسو دى كرفجال^(٢) ، فمر كولمبس أثناء هذه الرحلة الثالثة بجزر الكيب فيرد Cape verd وغيرها من الجزر . وفى ١ من شهر أغسطس وصل كولمبس إلى جزيرة ترينيداد بعد رحلة استمرت ٦٢ يوما من مغادرته لأسبانيا ، واكتشف كولمبس لآلى الجزيرة والماء العذب الواصل إليها من مياه نهر أورينوكو the Orinoco River الذى شاهده كولمبس من على مسافة بعيدة من المحيط . وشاهد كولمبس بعد مغادرته جزيرة ترينيداد ، اليابسة الخاصة بأمريكا الجنوبية القريبة من باريا Paria^(٣) ثم قفل راجعا إلى أسبانيا ، فى ٣١

^(١) Baker B. : A history of geographical discovery and expoloration op.cit . new York , 1967. pp 80-81.

^(٢) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق ، ص ٨٤ .

^(٣) Baker . B . : op.cit. p . 81.

أغسطس عام ١٤٩٨م^(١) ولكن لا يزال الشك يراوده بأن حملته الثالثة لم تحقق أهدافها، فقد قرر القيام برحلة رابعة .

البعثة الرابعة لكريستوفر كولمبس:

بدأت بعثة كريستوفر كولمبس الرابعة مهمتها في ٣ أبريل عام ١٥٠٢ م وكان يقصد منها تحقيق ما فشلت في تحقيقه الرحلات السابقة ، وتكونت هذه البعثة من أربع سفن هي : السفينة لاكاييتانا ، وكانت تحت قيادة ديغو تريستان ، والسفينة الثانية هي السفينة ، لاجاليجا وكانت تحت قيادة بدرو دي تيريروس ، والسفينة سنتياجو بالوس ، وكانت تحت قيادة فرانسكو بوراس ، والسفينة فيزكانيا ، وكانت تحت قيادة بارثليميو فيش. وكان كولمبس على رأس كل هذه السفن.^(٢) ويقال بأن كريستوفر كولمبس هو الذى مول رحلته الرابعة على نفقته الخاصة ، وأطلق على هذه الرحلة اسم المشثومة ، لتعرضها للعواصف الهوجاء ، ولتمرد البحارة الواحد يلى الآخر ، إضافة إلى ذلك فإن البعثة انحرفت عن طريقها، واتجهت تقريبا صوب المكسيك ، وقبل وصولها إلى المكسيك رست فى كوبا ، حيث قابلها السكان هناك بالعداء ، واستغل كولمبس وجوده فى كوبا فقام بتزويد البعثة بما يلزمها بكميات كبيرة من المياه العذبة ، فضلا عن قيامه بإصلاح الأشرعة الممزقة ، ففى تلك الأثناء تعرض كولمبس إلى مشاكل كثيرة ، فكما هو معروف كان كولمبس يشغل وظيفة نائب ملك أسبانيا فى المناطق الجديدة ، ففى تلك الأثناء حامت الشبهات والإشاعات حول عدم قدرته على الحكم ، إضافة إلى شكاياته المتواصلة إلى ملك ومملكة أسبانيا ، مما أدى إلى تعيين قاضى Magistrate للتحقيق فى كل أعماله ، وقد زود هذا القاضى بتعليمات ، مفادها كتابة تقرير عن إدارة كولمبس ، كان هذا القاضى هو فرانسكو دي بوباديلو Francisco de Bobadillo ، الذى لم يستطع كتابة تقرير سلبي ضد

(١) صمويل اليوت موريسون : مصدر سابق ، ص ١٧٠ .

(٢) صمويل اليوت موريسون : نفس المصدر ، ص ص ١٨٣-١٨٤ .

كولمبس ، لأن الأخير كان يسير الأمور بدرجة كافية كأدميرال ، ومع ذلك لم يكن جيد بدرجة جيدة كنائب للملك .

ففى البداية كان كولمبس يعمل على حماية السكان الوطنيين . فبالطبع كان يكبح جماح جشع وعنف المستوطنين الأسبان ، لذلك عجز هو عن إرسال ذهب كاف لأسبانيا مع أنه كان يرسل سفنا محملة بالهنود الحمر كعبيد وكعمالة رخيصة ، وكان هؤلاء العبيد يصلون إلى أسبانيا وهم فى حالة يرثى لها ، فالكثير منهم كان يموت أو كاد أن يموت مثل النساء الحوامل Pregnant أو اللاتى يحملن أطفالهن على أذرعتهن ، وثبت أن جميعهن عديمى النفع للعمل الشاق . وعلاوة على ذلك ، ظل كولمبس يرسل كشوف حسابات مبالغ فيها عن المنصرف على المقاطعة الجديدة . وقد برهنت هذه المقاطعة على أنها مستنزف للموارد الأسبانية ، حتى أن الكثير من رأس المال أنفق عليها وعلى الزراعة فيها . ونظرا لهذه الظروف السائدة فى المستعمرة الأسبانية الجديدة دب الخلاف بين كل من كولمبس والقاضى فرانسيسكو دى بوباديلو ، فكولمبس كان دائما معارضا لوجهة نظر بوباديلو - الذى جاء من أسبانيا من طرف الملك لتحقيق فى كل أعمال كولمبس - حيث كان يتجاهل أوامره، وكان كولمبس قد ارتكب خطأ مميتا عندما وضع ١٦ من المستوطنين الأسبان المتمردين فى بئر (حفرة) ، وأقام على حراستهم أحد الهنود . ويبدو أن كولمبس فعل ذلك لأن هؤلاء المستعمرين الأسبان قد قاموا بأعمال منافية للقانون ، لكن بوباديلو أنتهز الفرصة للانتقام من كولمبس وأخوانه وإخوته ديجو وبارتولوميو Bartolomeo ، وقام على أثر هذه الواقعة بوضع القيود الحديدية فى أيدي كولمبس وأشقائه، بارتولوميو وديجو . ومع ذلك قابل كولمبس (الأدميرال) الإذلال بشموخ وشجاعة ، رغم أنه كان مقيد الأيدي والأرجل ، وأرسل معه شقيقه إلى أسبانيا للمحاكمة ، وكان برفقتهم شهود معادين لهم ، وكان برفقتهم أيضا تقرير مفصل وطويل عن أعمال كولمبس الشريرة المزعومة . وقد عامل قبطان السفينة ، كولمبس باحترام واهتمام كبيرين ، وأمر هذا القبطان بفك

قيود كولمبس ، وإزالتها ، لكنه رفض ذلك ، ولم يسمح بذلك إلا للملك والملكة فقط ، وقال : " يجب أن تظل القيود في أيدي من أجلهما ليريا كيف عومل كولمبس " وأخيرا رست السفينة التي تحمل كولمبس في أسبانيا في ٨ أو ٩ نوفمبر سنة ١٥٠٤ م . وفي تلك الأثناء ^(١) أرسل كولمبس خطابا على وجه السرعة ، وبصورة شخصية إلى ملكي أسبانيا وكان الهدف من إرسال هذا الخطاب هو تعريف ملكي أسبانيا بموقفه ، قبل وصول تقرير بوباديلو إليهما .

كان خطاب كولمبس عبارة عن تقرير طويل يوضح فيه خدماته للناج ومعاناته والمضايقات التي تحملها ، والشكوى المرة من كل من بوباديلو والمستعمرين الأسبان ، وقد تأثر كل من الملك والملكة بهذا التقرير ، وأمر بفك قيود كولمبس وأرسل الملكان نقودا وحامية صغيرة لتحضر كولمبس وأخوته إلى البلاط ، وكان هذا مشهد كبير عاطفي عندما إلتقى الجميع . وعندما وصل كولمبس إلى الملكين ركع وبكى ، ورفع يديه المقيدتين بالحديد إلى أعلى ، وتحدث أمام الملكين عن أخطائه ، وعن إذلاله من جانب هؤلاء الذين تسببوا في سقوطه ، وأقر كل من فرديناند وإيزابيلا بنجاح كريستوفر كولمبس واعترفا له بالجميل ، وعاملاه بلين وكرم . وكان بوباديلو قد نكر في تقريره أن كولمبس كان غير ملائم لموقع ^(٢) السلطة ، ورغم الإبقاء على كل المميزات التي حصل عليها إلا أن ملكي أسبانيا جرداه من رتبته كنائب ملك ، ورفض الملك إرسال كولمبس على رأس بعثة أخرى تذهب إلى مسافات أبعد .

وفي النهاية تسلم كولمبس قرارا يقضى بمحاكمته ، وبعد ذلك أصبحت حالته النفسية سيئة، ونتيجة لذلك، أرسل كولمبس عددا من الإلتماسات ، التماس يلي التماس إلى ملكي أسبانيا ، كما أنه

(١) نفس المصدر . ص ٢١٣ .

(٢) Stella Davis: Op. cit. pp 129-132 .

بحث عن مقابلة تلى مقابلة ، وأخيرا تمكن من الحصول على البعض منها ، حتى أن صبر الملك والملكة قد نفذ ، وبهذا أصبح كولمبس شخصا مزعجا متسكعا أى أنه كان مزعجا للبلاط ومضايقا لأى شخص من الذين يستطيع إستمالتهم للإستماع إليه .

بعد ذلك عاش كولمبس فى عزلة تامة لعدة سنوات أى أنه كان يعيش فى حجرة صغيرة فى نزل صغير (منزل) فى فالادوليد Valladolid ، وعلى حوائط هذه الحجرة ، علق كولمبس السلاسل التى وصل بها إلى أسبانيا ، وفى أرضية هذه الغرفة عمل كولمبس ثقب لكى يستطيع أن يشاهد البغال الرفقاء المستقرين أسفل منه . فمن الواضح أن كولمبس إصطحب معه أثناء رحلاته بعض البغال لإستخدامها فى الأماكن المستكشفة . وبعد ثلاث سنوات من عودته من الرحلة الرابعة وبعد أن عاش فى هذه الغرفة الصغيرة فترة من الوقت ، مات كولمبس عام ١٥٠٦ م ، وهو لا يزال يعتقد بأنه وصل إلى جزر الهند الشرقية ^(١) .

ورغم كل ما قيل عن كولمبس ، ورغم موقف المعارضين لمشروعه من أمثال فيجنود H.Vignaud الذى شكك فى هدفه ، وفى خريطة توسكانيلى ، والذى إعتبر هذا المشروع الكشفى ضربا من الخيال ، حيث قال إن خريطة توسكانيلى، مبنية على أساس من الحجج غير الصحيحة ، إلا أن كولمبس كان من أعظم المغامرين الأبطال الذين نجحوا فى عبور المحيط الأطلسى ، والوصول إلى ما يعرف بالعالم الجديد ، الذى إكتشفه مصادفة . فقد تمكن كولمبس من عبور المحيط الأطلسى ، وربط بين ساحله الشرقى وشاطئه الغربى . وعلى أثر هذه الرحلات الناجحة ، التى قام بها كريستوفر كولمبس، بدأت أفواج المهاجرين الأوربيين فى الوصول إلى هذا العالم الجديد . ومن المعروف أن هؤلاء المهاجرين كانوا من السياسيين المعارضين للأنظمة الأوربية فى ذلك الوقت ، إضافة إلى هجرة جماعات من اللصوص وقطاع الطرق ، فضلا عن

هجرة المعارضين للكنيسة الغربية " إنن يمكن القول بأن الدولة التي تعرف في وقتنا المعاصر بالولايات المتحدة دولة ليس لها تاريخ . فقد تكونت تلك الدولة من مشاكسي المجتمع الأوربي ، لذلك نلاحظ أن غالبية الشعب الأمريكي يفتقد إلى الأصالة ، لهذا نلاحظ أن هذه الدولة إرتكبت في تاريخنا المعاصر من الأعمال ما تقشعر منه الأبدان ، فقد قامت هذه الدولة بأعمال إجرامية ضد البشرية نذكر منها على سبيل المثال ضرب مدينتي نجازكي " وهيروشيما اليابانيتين بالسلاح النووي ، مما خلف أثارا سيئة على حياة الشعب الياباني ، ولم يقف إجرام هذه الدولة البربرية عند هذا الحد ، بل أنها قامت بغزو الشعب الفيتنامي ، فدمرت بذلك مدنه وقراه ، وخربت مزروعاته ، ومع ذلك فإن الشعب الفيتنامي صمد ، وتمكن من هزيمتها ومرمغ أنفها في الوحل .

ورغم ذلك واصلت حكومة أمريكا أعمالها غير المشروعة في كل مكان ، فهي تعوث فسادا في الفلبين والصومال وأفغانستان والعراق ، فتقوم هذه الحكومة بقتل العراقيين وتدمير منازلهم ومزروعاتهم وترويع السكان ، تحت شعار الحرية والديمقراطية أي حرية وأى ديمقراطية هذه ! ؟ فهذه الدولة التي يحكمها رئيس متخبط يتشدد بالقول بأنه يحكم دولة من دول العالم الحر . كيف تكون دولة من دول العالم الحر ، وهي ترتكب من الأعمال المخالفة للقانون الدولي ما لم ترتكبه دولة غيرها من دول العالم عبر عصور التاريخ المختلفة ، فهي دولة ترفع شعار حقوق الإنسان ، ونشر الحرية والديمقراطية بين شعوب دول العالم - باستثناء العالم الأوربي - ولكن في الواقع فإن هذا الشعار ، شعار مزيف مضلل لا أساس له من الصحة ، فهذه الدولة تريد الهيمنة بصفة خاصة على شعوب العالم العربي والإسلامي ، واستغلال ثروات تلك الأقطار ، وبالفعل بدأت بشبه الجزيرة العربية ، فقد نجحت بالأساليب المضللة في إقناع حكام هذه الدويلات بفتح بلادهم أمام قواتها العسكرية ، وتحويل تلك الدويلات إلى قواعد عسكرية لا يمكن التخلص منها أجلا أم عاجلا ، ومن المحزن حقا أن حكام تلك

الدويلات إعتقدوا فيما يقوله حاكم هذه الدولة ، فربما يرجع ذلك إلى أن هؤلاء الحكام يريون حماية خارجية ، تضمن لهم الإستمرار فى الحكم والبقاء فيه. وتم ذلك بالفعل تحت شعار واهى مزيف وكاذب ألا وهو شعار محاربة الإرهاب .

بعد هذا العرض ، وبعد أن ألقينا الضوء على جهود الأسبان الكشفية لجزر الكاريبي ننتقل إلى الحديث عن الكشف الأسباني لخليج المكسيك وفلوريدا ، أى أن الكشف الأسبانية لم تتوقف فى إتجاه الغرب بعد موت كريستوفر كولمبس عام ١٥٠٦ م .

كشف أمريكا الوسطى والجنوبية:

لقد فشلت الرحلة الرابعة لكولمبس فى حل مشكلة إيجاد طريق مائى يؤدى إلى الشرق عبر الأراضى الجديدة المكتشفة حديثا ، ولكن على الرغم من ذلك فإن هذه الرحلة حددت المنطقة التى من الممكن إيجاد طريق يمر من خلالها ، وكان الهدف الرئيسى للكشف الأسباني هو الفتح ، لهذا واصل الأسبان إستكشافاتهم فى خليج المكسيك ، ففى غضون فترة قصيرة للغاية من العمل حلوا خلالها مشكلة خط ساحل المكسيك. وكان من هؤلاء الذين قاموا بكشف خليج المكسيك جوان دى لاكوسا Juan de Lacosa الذى ذكر أنه فى الإمكان الحياة فى جزيرة كوبا فى السنوات الثمانية التالية ، وفى عام ١٥١٣ م ، إكتشف بونس دى ليون Ponce de leon فلوريدا^(١) وكان لا يدرك أنها تمثل جزءا من الأرض الرئيسة ، ومن هذا المنطلق نشير إلى جهود أسبانيا الكشفية فى منطقة جنوب أمريكا الشمالية ، ففى عام ١٥١٣ م أيضا نجح فاسكو نانيز دى بلباو Vasco Nanez de Balboa فى عبور برزخ بنما، ورأى من خليج سان ميغويل المحيط الهادى ، وعن طريق الإشاعات ، أغرت الثروة الموجودة فى هذه المناطق الأسبان ، لذا أرسلوا عددا آخر من البعثات الكشفية لكشف الشريط الضيق من

الأرض ، الذى يربط بين المكسيك وأمريكا الجنوبية ، وواجهه الأسبان مصاعب كبيرة أشار إليها بلباو . وفى خطاب إلى الملك الأسباني ، رفض بلباو تولى حكم الأراضى التى تم كشفها (أمريكا الوسطى) لأن هذه الأرض تؤرق الرجل الذى يحكمها ، فكان من الصعب على الإنسان السفر من خلال هذا القطر الملىء بالأنهار العديدة والمستنقعات والجبال ، وقد أدى ذلك إلى موت أعداد كبيرة من أفراد البعثة ، الذين تحملوا أعمالا شاقة للغاية ، ففى كل يوم كان الأسبان يتعرضون للموت بألف طريقة .

وفى عام ١٥١٤ م ، وصل بيدرارياس Pedrarias إلى أمريكا الوسطى ، فوجد الأسبان مستقرين فى دارين Darine ، ومن هناك كانوا يجلبون الذهب ، الذى يستولون عليه من المناطق المجاورة لدارين ، وبهذا الأسلوب دمر الأسبان هذا القطر ، وبعد كشف دارين تمكن الأسبان من كشف الأرض الواقعة نحو الغرب مباشرة ، فوصل واحد منهم يدعى جسبار دى مورالس Gaspar de Morales إلى جزر اللآلى ، ومن بعده تتبع أسباني آخر الساحل الشمالى ، فوصل هذا الأسباني إلى بورتوبيلو الحديثة The Modern Portobello . وكان بلباو قد نقل السفن من أكلا Acla ، عبر برزخ بنما Isthums ، وأبحر بها فى خليج سان ميغيل The Gulf of San Miguel ، وفى تلك الأثناء تآمر بلباو ضد بيدرارياس الذى عرف بالمؤامرة فأعدم بلباو .

وفى عام ١٥١٧م ، كان المغامرون الذين خرجوا من كوبا قد إكتشفوا أجزاء من ساحل يوكاتان Yucatan وكتبوا تقريرا جاء فيه " أنهم وجدوا أقطارا مكتظة بالسكان ، وكانت منازلها من المبانى ، وفى هذه الأقطار كان السكان يرتدون ملابس قطنية ، وكانوا يمتلكون الذهب وحقول الذرة " . وفى عام ١٥١٨ م ، إكتشفت إحدى البعثات الأسبانية ساحل أمريكا الشمالية أى لمسافة ١٠٠ فرسخ بدءا من بنما وحتى رأس بلانكو Cape Blanco ، ثم عادت هذه البعثة بطريق البر إلى نقطة البداية ، وبعد ثلاث سنوات

تتبع هذه البعثة الساحل حتى وصلت إلى كل من ليون وجرانادا lean and Granada ، وخليج فونسيكا Fonseca . وبعد مدة أرسلت بعثة أخرى مستقلة استولت على نيكاراغوا ، واستقرت فيها ومن نيكاراغوا ، إتصل الأسبان بفلاحهم الذين قدموا من الشمال أى من مكسيكو . وبعد فترة أرسل عدد من البعثات الأخرى من كل من بنما وهندوراس إلى ساحل المحيط الهادى ، وبالتدريج وبمرور الوقت ، وبمواصلة عملية الفتح ، أصبحت الملامح الرئيسية لأمريكا الوسطى معروفة .

وفى عام ١٥١٩ م تتبع بنيدا Pineda الشاطئ من فلوريدا حتى وصل إلى حدود المكسيك ، وبعد ذلك أرسلت البعثات الكشفية الأولى للبحث عن طريق مفتوح يمر عبر هذا الجزء من الأرض ، وفى تلك الأثناء ، وجه الأسبان انتباههم إلى الساحل الشرقى لفلوريدا ، فمن خلال جهودهم لإيجاد طريق يمر عبر الأطلنطى تفحصوا القطر الواقع على مسافة بعيدة من خليج تشيسابيك - Chesapeake bay الذى وصل إليه الأسبان عام ١٥٢٦م . وفى عام ١٥١٩م أيضا ، أرسلت بعثة كشفية منظمة تنظيمًا جيدًا ، وبأوامر محددة ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة هيرناندو كورتيز Hernando Cortez ، ليكتشف أرض أمريكا الوسطى ، وقد أكدت هذه البعثة الإنطباعات الأولى والآمال الجامحة للمغامرين ، لأنهم اعتقدوا أنهم وصلوا إلى الأراضى التى تحتوى على ثروات كبيرة، مثل البلاد التى يقال عنها بأن سليمان Soloman ، حصل منها على معدن الذهب الذى استخدمه فى بناء معبده ^(١) ، ومن بعد كورتيز قام فيراكروز Cortez Veracruz على رأس بعثة كشفية أخرى مكثت فترة قصيرة فى مناطق ساحلية غير صحية ، واقعة بالقرب من المناطق المكتشفة حديثا ، ثم بدأ مسيره إلى الداخل فى اتجاه مدينة مكسيكو Mexico City ، وفى أثناء تلك الرحلة أقدم أحد قباطنته على إرسال مجموعة من الأفراد الذين صعدوا إلى قمة جبل بركانى مغطى بالثلج The Snows Clad Volcano ويسمى

بوبوكيت بيتل popocate petl ، وتمكن هذا القبطان - من فوق قمة هذا الجبل - من رؤية البحيرة الكبيرة التي أنشئت عندها العاصمة الجديدة مكسيكو سيتي ، واختار كورتس الطريق الذي سيسلكه ، والذي سيمكنه من الإقتراب من المدينة من ناحية الجنوب. وفي أوائل نوفمبر من عام ١٥١٩ ، حقق كورتس هدفه الكشفي .

في عام ١٥١٩ أيضا ، أكمل بيدرارياس بنفسه الرحلة إلى بنما ، وأسس هناك مدينة ، وفي نفس الوقت ، تفحص كل من جونزالو دي باداجوس Gonzalo de Badagos ، وإينوسو Einoso وهما من الأسبان - القطر الواقع في الجنوب من بنما - وقبل ذلك بسنوات قليلة ، كان الميناء الجديد قد أسس ، وأصبح في ذلك الوقت نقطة إنطلاق لعدد من البعثات الأسبانية الجديدة .

وفي أغسطس من عام ١٥٢١ م ، فتح كورتس الأراضي الواقعة على كل جوانب مدينة مكسيكو سيتي ، وكان هذا الفتح نتيجة لسقوط تلك المدينة نفسها ، ولم يكن الدافع هو رغبته في إحراز معرفة ، ولكن كان الدافع هو الحصول على ثروة ، لأن معرفة الأسبان بالجغرافيا في ذلك الوقت كانت كبيرة جدا ، وفي هذا الصدد سجل المؤرخ برنال دياز Bernal Diaz ما نصه : كان كورتس على الدوام مغرورا في أفكاره ، وكان له طموح في القيادة والحكم ، وكان يرغب في أن يكون نسخة من الإسكندر المقدوني Alexander of macdon ، وكان قد أرسل بعثات في جميع الاتجاهات ، وأسس مدنا كبيرة ، مثل أوزاكا Oaxaca ، وزاكاتولا Zacatula في ولاية جيوريرو Guerrero ، وكولима Colima ، وفيراكروز Veracruz ، وبانكو Panuco ، وكواتزا كولكس Coatza Coalcos ، وبيورتو مكسيكو الحديثة ، وبعد ذلك أرسل كورتس جيوشه فيما وراء حدود ولاية مكسيكو الحديثة ^(١) . بعد كل هذا أرسل كورتس الفارادو Alvarado إلى جواتيمالا Guatemala ، التي فتحها بشكل جزئي ، كما أرسل كورتس أيضا كريستوبال دي أوليد

^(١) Baker .B . : Ibid . p . 86 .

Cristobal de Olid إلى كوبا ، وأمره أن يتخذ طريقه من هناك إلى هندوراس Ho duras ، وحاول أوليد تأسيس مدينة عند ميناء جيد ، وأن ينشر السلام بين مواطني الإقليم ، وأن يبحث عن الذهب والفضة ، وأن يقوم بجمع المعلومات المفيدة عن هذا الإقليم ^(١) .

وعند الوصول إلى تلك المناطق حاول أن يكتشف مضيقا وأن يتعرف على الموانئ الموجودة في الساحل الجنوبي من كوبا ، وكان كريستوبال أوليد قد وصل إلى الشاطئ الجنوبي لخليج هندوراس . ومن هناك أرسل أوليد بدوره وعلى التوالي مجموعات لكي تكتشف القطر الداخلي ، وهناك أيضا دبر مؤامرة ضد فيراكروز كورتس ، تمثلت هذه المؤامرة في إرسال أوليد بعثة لإغتيال كورتس ، ولكنها فشلت ، وبعد فشلها طلب أفرادها محاكمة أوليد . وفي هذا الوقت كان كورتس قلقا على مصير بعثة الفارادو ، لهذا بحث بصفة شخصية إتخاذ موقف حيال هذه البعثة .

وبحلول عام ١٥٢٢^٢ ، وصل الفاتحون الأسبان إلى الساحل الباسفيكي ، وأسسوا هناك ميناء زاكاتولا . وفي الإتجاه المقابل من هذا القطر ، كانت جيوشهم تتجول على طول مسافة بعيدة من نهر بانوكو Panuco River . وفي نفس الوقت تقدموا في إتجاه الشمال ببطء حتى وصلوا إلى المقاطعات الحديثة في الولايات المتحدة من كاليفورنيا الواقعة على الشاطئ الشرقي للمحيط الهادي وحتى تكساس الواقعة على خليج المكسيك . وفي نفس الوقت كان نونو دي جوزمان Nono de Guzman قد إتخذ خطوة على جانب كبير من الأهمية ، تمثلت في تقدمه من المكسيك وفتحته لأقاليم جاليسكو Jalisco وسينالوا Sinaloa . وكان هذا التقدم الأسباني كبيرا وهامما ، بحيث أنه كان يمثل حادثة ملفتة للنظر مع أنه لم يكن متتابعا .

وفي أكتوبر من عام ١٥٢٤^٢ ، إنطلق كورتس من مدينة مكسيكو سيتي عبر إقليم تاباسكو Tabasco ، ووصل إلى خليج

^١ Baker. B. : Ibid. P. 86.

هَندوراس ، وأوضحت خطابات أحد القادة المعلومات الخاصة بهذه البعثة ، ففي كل مكان كانت البعثة تواجه مصاعب جمة ، لهذا لم تتحقق أية نتائج تذكر رغم وصولها إلى خليج المكسيك وعلى الرغم من ذلك أنجزت بعثات كورتس الكشفية قدرا كبيرا من العمل وكان كورتس هذا قد أسس مدينة تعرف في ذلك الوقت بإسمه "بيورتوكورتس" التي كانت البعثات الكشفية تنطلق منها . وبعد فترة أبحر كورتس إلى تروجيلو ، التي أصبحت نقطة البداية للبعثات الكشفية ، والتي أشبعت رغبة فيراكروز كورتس في الكشف عن القطر الواقع فيما وراء تروجيلو . وكان تابعه ساندوفال Sandoval يقوم بالكشف في وادي تشاميليكون Chamelecon ، وكان ساندوفال هذا قد التقى مع جماعة من الأسبان في تشاميليكون ، الذين إتخذوا طريقهم عبر نيكاراغوا للكشف والإستطلاع . وفي غضون ثلاث سنوات كان الأسبان يحملون أسلحتهم ويسيرون عبر أمريكا الوسطى ، أى من مكسيكو إلى بنما ، بعد ذلك عاد كورتس عن طريق البحر إلى مكسيكو ، وفي نفس الوقت كان جزء من قواته يتقهقر إلى الورا ، بحيث أنه سار مسافة طويلة صعبة عبر السلفادور ، وجواتيمالا الحديثتين ، وكان من الضروري فى ذلك الوقت ، خاصة بعد عودة كورتس إلى مكسيكو سیتی ، أن تتقدم الكشوف الأسبانية فى شمال المكسيك . وهناك وكما حدث فى الجنوب ، فإن سقوط مدينة مكسيكو سیتی سيؤدى بدوره إلى إرسال عدد من البعثات الكشفية من العاصمة فى أسبانيا إلى تلك الجهات المجهولة ، وفى تلك الفترة أيضا واصل الأسبان الكشف عن ساحل المكسيك ، ففي عام ١٥٢٧ م وصل الأسبان إلى بنما ، وفى عام ١٥٢٨ م ، قام كابيز دى فاكا Cabez de Vaca على رأس بعثة كشفية إلى فلوريدا ، وفى عام ١٥٢٨م كذلك قام بافيو دى نارفيز Pafio de Narveaz على رأس بعثة كشفية إلى فلوريدا بناء على التكليف المخول إليه بفتح واستعمار القطر الواقع فيما بين المكسيك الشرقية وفلوريدا . وقد رست هذه البعثة على الساحل الغربى من فلوريدا الواقعة على مقربة من خليج تامبا Tamba bay ، وعلى الفور سارت البعثة فى خط متوازى مع الساحل حتى وصلت إلى خليج

الأبالاشى Appalachee bay ، وفى هذا الوقت، فقد أفراد البعثة الإتصال مع السفن الأخرى ، ووجدوا أنفسهم منساقين إلى قطر مجهول ، وهناك بنوا خمس مراكب ، ثم بدأوا الرحلة من جديد ، مع أن كل واحد منهم كان قد فقد الإتصال بالآخر ، بسبب الأدغال والأحراش، وبسبب عدم معرفتهم لجغرافية تلك المناطق الجديدة .

وفى عام ١٥٢٨ أيضا تجمع حوالى ٨٠ أسبانيا على الجزيرة المشنومة the Island misfortune ، الواقعة بعيدا عن ساحل تكساس ، وفى أثناء فصل الشتاء تناقص عدد هؤلاء الأسبان إلى حوالى ١٥ أسبانيا فقط ، بسبب ما تعرضوا له من مخاطر وأمراض ، فقد ذهب أحد هؤلاء الأحياء ويدعى - كابيز دى فاكا - إلى الأرض الرئيسة ، وقضى هناك خمس سنوات مقيما مع الوطنيين . وفى النهاية عاد وبصحبه أحد الرفقاء واتخذا طريقهما نحو الجنوب ، وعبرا نهري برازوس Brazos ، وكلورادو Colorado ، ثم وصلا إلى خليج سنت أنتونيو Saint Antonio Bay .

وفى آخر الأمر أى فى أبريل من عام ١٥٣٦ م ، هرب الشخصان إلى المكسيك ، ثم وصلا إلى سنت ميغيل Saint Miguel الواقعة على مسافة ١٠٠ فرسخ من كمبوستيلا Combostella ، ومن بعدها وصلا إلى مدينة المكسيك، ومنها عادا إلى أوربا . وفى ١٠ من أغسطس عام ١٥٣٧ م رسيا فى لشبونة ، وفى هذا الصدد قالوا: " نحن عبرنا من بحر إلى بحر ، وجمعنا معلومات بجهد جهيد، وكانت المسافة بين كل بحر عند الجزء الأكثر إتساعا ٢٠٠٠ الفى فرسخ ، وعلمنا أنه يوجد على ساحل البحر الجنوبى لآلى وثروات كبيرة فالأقطار الأفضل والأكثر إتساعا توجد هنا " . وكما شرح من قبل ، فإن هذه البعثة الملفتة للنظر كان لديها قدرة كبيرة على الإحتمال أكثر من بعثة كورونادو ، وعندما وصل كابيز دى فاكا إلى أسبانيا ، كان يأمل فى أن يتلقى مكافآت كبيرة ، مقابل الأخبار التى أتى بها ، لكنه وجد أن منصبى حاكم كوبا وفلوريدا ، قد منحا إلى هيرناندو دى سوتو Hernando de Soto ، الجندى الذى خدم بتفوق فى أمريكا الوسطى ، وفى بيرو . لهذا رفض كابيز دى فاكا

أن يفشى كل ما عرفه من أسرار عن الأرض التي شاهدها، وكل ما قاله لأصدقائه عن هذا القطر هو أنه أغنى قطر في العالم .

وفي عام ١٥٣٩ م . قام فرانسكو ماركوس دي نيزا Francisco Marcos de Niza برحلة صوب الشمال في الولايات الحديثة أي فيما بن أريزونا Arizona ومكسيكو الجديدة ، وكان قد رأى من على مسافة ، إحدى مدن سييولا السبع Seven Cities Cibolla فبواسطة تقاريره المثيرة أكد القصة المبكرة لكابيز دي فاكّا Capez de Vaka التي تشير إلى هذه المدن ، وفي عام ١٥٣٩ أيضا، أبحر دي سوتو إلى كوبا ومنها إلى فلوريدا .

وفي عام ١٥٣٩ ، كذلك وصل فرانسكو دي ألوا Francisco de ulloa إلى خليج كاليفورنيا ، وبعد ذلك واصل مسيره على طول ساحل شبه جزيرة كاليفورنيا ، ثم دار بعد ذلك حول رأس سان لوكار ، واكتشف مسافة قصيرة من الشاطئ الغربى لكاليفورنيا أي فيما وراء جزيرة سيدروس Cedros Island .

وفي عام ١٥٤٠ م ، أرسلت بعثة كشفية تحت قيادة فرانسكو فاسكيز دي كورونادو Francisco Vasquez de Coronado إلى منطقة مدن سييولا السبع. وكانت بعثة فاسكيز هذا على جانب من الأهمية، بل كانت بالغة الأثر من وجهة النظر الجغرافية، بسبب اندماجها مع بعثة دي سوتو لتعطى بعدا أكبر عن الداخل الشاسع للقارة الشمالية، التي ظلت مجهولة حتى ذلك التاريخ ، وكونت بعثة دي كورنادو الأساس لفن رسم الخرائط لتلك المنطقة ^(١) واكتشف أن لدى قبائل البيوبلو Pueblo - المعروفة والمقيمة في الجنوب الغربى للولايات المتحدة - ثروة كبيرة تعج بها الوديان، ومنطقة الجراندي كانون the Grand Canon أي الممر الضيق لنهر الكلورا دو، والألسنة الرملية الممتدة في مجرى هذا النهر، وتمثلت هذه الثروة في قطعان ثور المسك ، الذي يعتمد عليه الصيادون من الهنود

^(١) Baker. B. Ibid. p.88.

الحرر إعتقادا يكاد يكون كليا ، وقبل الوصول إلى سييولا الواقعة على ساحل المحيط الهادى ، أرسلت بعثة مكونة من الرجال الأكفاء جدا فى إتجاه الشمال والغرب بحثا عن ساحل هذا المحيط ، ووصل أفراد هذه البعثة إلى نهر عند نقطة تقع على بعد ١٥ فرسخا من مصبه ، ووجد أفراد البعثة نقشا على جزع شجرة يقول وصل الأركون إلى هذا المكان . يبدو أن هذا الاسم كان لمستكشف أسبانى سابق كان قد وصل إلى نهر الكلورادو The Colorado River وسار فيه صاعدا مسافة أميال قليلة .

يشير هذا النقش إلى أن بعثة أسبانية متكاملة ، أبحرت من سان بلاس San Blas ، ووصلت إلى خليج كاليفورنيا ، ثم عادت بعد ذلك من هناك ، لأنها لم تستطع التقدم أكثر من ذلك . وكتب الأركون تقريرا جاء فيه " إن كاليفورنيا السفلى شبه جزيرة " وسارت البعثة بعد ذلك برا حول رأس الخليج ، ثم تتبعت الساحل صوب الجنوب لمسافة قصيرة فى داخل كاليفورنيا السفلى . وهناك انفصلت من هذه البعثة بعثة أخرى ، لتزور النهر الموجود فى هذه المنطقة . وقد كتبت البعثة تقريرا يشير إلى وجود قطر مهجور يقع فيما وراء هذا النهر ^(١) .

بعد أن قضت هذه البعثة عشرين يوما فى الإستكشاف وصل أفرادها إلى شواطئ النهر ، الذى يبدو أن طوله كان أكثر من ٣ أو ٤ فرسخ (١٠ أميال تقريبا) ، وتتدفق مياهه بين شاطئيه المفتوحين ، وكانت تضاريس هذا القطر مرتفعة وواسعة ويتميز بالبرودة ، ومملوءا بأشجار الصنوبر القصيرة الملتوية ، ويمتد هذا القطر فى إتجاه الشمال . وفى ذلك الوقت حل الفصل الدافئ ورغم ذلك لم يستطع أى فرد المعيشة هناك بسبب شدة البرودة ، وكان هذا هو الوصف للمشهد الأول للجراند كانون ، الواقع فى منطقة نهر الكلورادو the Grand Canon of Colorado ، وفى هذه المنطقة بدأ الأسبان يبحثون عن الثروة فى إتجاه الجنوب عبر نهري

^(١) Baker B : op. cit. p.89 .

الريوجراند والبيكوس the Rio Grand and pecos R ، وبعد عشرة أيام من البحث عبر أفراد البعثة نهر البيكوس ، ووصلوا إلى مستوطنات مسكونة بالسكان الذين يعيشون حياة بدوية ، وعلى مدى يومين من البحث والتجوال رأى أفراد البعثة الأبقار التى كان يمتلكها هؤلاء الناس ، الذين كانوا يعيشون فى خيام مصنوعة من جلود الأبقار المدبوغة ، ودائما كان هؤلاء السكان يتبعون الحيوانات (الأبقار) لقتلها عندما يكونون فى حاجة إلى الطعام .

وتقريبا اجتاز الأسبان القارة من جورجيا إلى كاليفورنيا . ومن الجدير ذكره أن دى سوتو قام بأول كشف على نطاق واسع لجنوب الولايات المتحدة ، وزودتنا إستكشافاته بظروف الحياة البدائية والأساليب الخاصة بالهنود الحمر الجنوبيين . وكان من نتائج كشوفات دى سوتو كشفه لنهر المسيسيبى .

ومن المستحيل التعقيب فى تفصيل عن الطريق الذى اتخذه دى سوتو ، ولكن يمكن أن نبين ملامح هذا الطريق من التقارير المختلفة التى حفظت عن الرحلة ، فقد جاء فى إحدى التقارير الخاصة برحلة دى سوتو فى خليج تامبا أنه فى الإمكان وجود الذهب والفضة بوفرة فى أى قطر يوجد فى هذه المنطقة ، وكان الناس فى تلك الأصقاع أغنياء ، حيث كانوا يذهبون إلى الحرب . وهم مرتدين خوذات مصنوعة من الذهب ؛ أى أنها ربما تكون شارات للتمييز بين الجنود والضباط، وكان الأسبان قد وصلوا إلى رأس خليج أبالاشى Appalachee bay ، حيث ساروا عبر ولاية جورجيا الحديثة ، فهناك إنتشرت الإشاعات عن الأرض الغنية ، الواقعة فى إتجاه شروق الشمس ، مما دفعهم ذلك إلى الإتجاه نحو المحيط الأطلسى ، فقاموا برحلة إستغرقت يومين . وفى تلك الأثناء إنتشرت إشاعات عن وجود الذهب فى إتجاه الشمال ، فأرسل الأسبان جيشهم إلى الداخل فوصل هذا الجيش إلى كل من جبال الأبالاشيين The Appalachian Mountains ، ونهر الألاباما Alabama River ، ثم تتبعوا الطريق حتى وصلوا إلى قطر مانىلا

Manilla ، الواقع بالقرب من مصب نهر الألاباما ، وبعدئذ اضطروا إلى الذهاب للبحث عن قطر يقطنون فيه في فصل الشتاء، ثم يواصلون بعد ذلك إستكشافاتهم .

وبعد فترة إتجه الأسبان إلى الشمال الغربى ، ثم عبروا نهر المسيسيبي ، الذى من المحتمل أن يكون هذا النهر واقعا بالقرب من ممفيس الحديثة the Modern Memphis ، ثم ساروا بعد ذلك مسافة قصيرة مع الشاطئ الغربى لنهر المسيسيبي ، على أمل كشف طريق يوصل إلى الشمال ، ليذهبوا إلى جنوب البحر (المحيط الأطلسى) ثم عادت المجموعة بعد فشلها فى الذهاب صوب الجنوب . وبعد ذلك اتخذ أفراد البعثة طريقهم نحو الغرب ، حتى وصلوا إلى هضبة أوزارك Ozark - هى عبارة عن قطر من التلال غير المستوية - وفى نهاية الأمر اضطرت البعثة إلى العودة إلى نهر المسيسيبي . وبعد إجراء إستكشاف فى أماكن أخرى صوب الغرب أى عند أحد خطوط العرض ، لم يتحقق للأسبان أى نجاح.

وأخيرا صمم دى سوتو على الذهاب نحو الجنوب إلى البحر (المحيط الأطلسى) لكنه ضل طريقه فوصل إلى مكان آخر ، ورغم ذلك لم يجد أى طريق يجتاز من خلاله المستنقعات الكبيرة ، التى تمتد من الـريوجراند (المسيسيبي) وما وراءه . وفى تلك الأثناء مرض دى سوتو ومات ، وبموته إنتقلت القيادة إلى لويس دى موسكوسو Luis de Moscoso ، الذى سار فى إتجاه الغرب أملا فى الوصول إلى المكسيك ، فمر من خلال أراضى القبائل الهندية . لهذا واجهت بعثة موسكوسو مجاعة أجبرتها على العودة إلى المدينة التى كانت ملائمة لبناء السفن والتى بواسطتها يمكن مغادرة هذا القطر .

ومن هناك هرب الأسبان بعد أن شاهدوا مصب نهر المسيسيبي، ومكثوا على مقربة من الساحل أى من ساحل (المحيط الأطلسى) لكنهم واصلوا المسير بعد ذلك، فوصلوا إلى نهر بانوكو.

وهناك أستقبلوا إستقبالا طيبا من جانب المسيحيين المستقرين فى تلك الأصقاع . وهكذا إنتهت شهرة دى سوتو بالفشل، وكان المقاوم الرئيسى لنجاحه يكمن فى كثرة الطرق التى سلكها ، وفى التقرير الذى كتبه عن بعثته فيبدو أنه أشار إلى كل العقبات التى واجهته بدقة وأمانة .

بعد ذلك وصل موسكوسو إلى أرض الكويفيرا التى عادت منها البعثة والتى كانت تحت قيادة كورونادو ، الذى فشل مثلما فشل دى سوتو فى تحقيق هدفه ، مع أن بعثة دى سوتو هذه كانت قد أضافت الكثير إلى المعرفة الجغرافية عن العالم . وفى عام ١٦٠٧م، نشر تقرير عن بعثة دى سوتو ، كان هذا التقرير قد ترجم إلى الإنجليزية ، بمعرفة ريتشارد هاكليوت Richard Hakluyt .

وبوصول الأسبان إلى تلك المناطق خاصة منطقتى الكلورادو ومكسيكو الشرقية ، يكون الأسبان قد عادوا إلى نقطة البداية . وفى تلك الأثناء تقدم كورونادو على رأس بعثة كشفية صغيرة إلى كويفيرا Quivira ، ومن هناك كتب تقريرا عن منطقة الكويفيرا هذه جاء فيه :

" أنها منطقة ثرية يقترب فيها نهري أركنساس Arkansas ، وكانساس Kansas كل منهما بالآخر ، ومرة ثانية خابت آمال الأسبان ، فلم يجدوا ذهباً ولا فضة فى هذه المنطقة ، ولا أى شئ آخر عند هؤلاء الناس . وفى صيف عام ١٥٤٢ م كتب كورونادو تقريرا عن هذه المستوطنة عند عودته إلى أسبانيا ، وأشار فيه إلى أن بعثته قوبلت باهتمام أقل عما كانت تستحق ، مع أن نتائجها كانت على جانب كبير من الأهمية^(١) .

وفى عام ١٥٤٣ م ، كشفت بعثة جوان رودريجويز كابريلو Juan Rodrigues Cabrillo ، الساحل الغربى من أمريكا الوسطى بدءاً من رأس مندوكينو Cape Mendocino ، وحتى خط العرض ٤٤° شمالاً^(٢) . وفى نفس هذا القرن ١٦ الميلادى كرر الأسبان

(١) Baker, B. : Ibid. pp. 90-93 .

(٢) Baker, B.: Ibid . pp. 89-90 .

جهودهم الكشفية فاکتشفوا فلوريدا ، رغم الكوارث التى إكتنفت جهودهم المبكرة . وفى عام ١٥٥٨ م جهز الأسبان بعثة لتتفحص خط الساحل خاصة معاينة المستوطنة ، التى كان الأسبان قد أنشأوها على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، ولكن هذه المستوطنة كانت قد انهارت وتلاشت قبل وصول تلك البعثة . وفى عام ١٥٦٠ م ، جذبت هذه المنطقة الفرنسيين الذين مكنوا لأنفسهم فيها ، فكانوا مصدر إزعاج مستمر للأسبان لأن الفرنسيين احتلوا موقعا إستراتيجيا هاما ، تمثل هذا الموقع فى الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، فكان من الممكن بالنسبة لهم أى للفرنسيين القيام بهجمات على المستعمرات الأسبانية وأيضا الإنقضاض على السفن التى تحمل معدنى الذهب والفضة ، وكان من نتيجة هذا العمل من جانب الفرنسيين ، أن دعم الأسبان وسائل دفاعاتهم من أجل حماية أنفسهم فى تلك المناطق المكتشفة حديثا .

وفى عام ١٥٦٥ م أرسل الأسبان بعثة على جانب كبير من الأهمية ، كانت تحت قيادة منديز Mendez لمحاربة الفرنسيين ، وقامت هذه البعثة بعمل إستطلاع على الساحل بدءا من فلوريدا ، وحتى القطر الواقع فى أقصى الشمال ، وهناك أسس منديز مدينة سنت أوجستين Saint Augustine . ورغم المشاق والصعوبات التى واجهت الأسبان إلا أنهم كان لديهم القدرة على الدخول فى أى مكان ، مع أنهم كانوا يتمتعون بسوء التصرف خاصة فى نهاية القرن الـ ١٦ م ، مما جعلهم يفقدون الكثير من ممتلكاتهم . فمن المعروف أن كل من دى سوتو وكورونادو ، قد أضافا لأسبانيا أراضي جديدة فى شمال أمريكا الشمالية ، لكن هذه الأراضي كانت غير مجدية ، لهذا وجهت أسبانيا جهودها نحو أمريكا الجنوبية بسبب الثروة الموجودة فى مملكة الإنكا .

ويمكن القول بأن الأسبان نجحوا فى إستكشافاتهم لكل من جنوب أمريكا الشمالية والوسطى ، خاصة أنه فى ذلك الوقت لم يكن يوجد منافس على جانب من الأهمية ، ولهذا كان فى إمكانهم

التوغل فى أى مكان من هذا العالم المستكشف حديثا دون أية معارضة تذكر من أى جانب . وهذا ما مكنهم من الحصول على ثروات كبيرة خاصة من معدنى الذهب والفضة، فكان جل إهتمامهم يكمن فى البحث عن المواقع التى يمكن أن يوجد بها الذهب . ونشير إلى أنه لم يكن للأسبان أى نشاط دينى يذكر فى كل المناطق التى فتحوها ، يدل ذلك على أن هدفهم كان هدفا إقتصاديا بحثا إضافة إلى فرض الهيمنة على كل المناطق التى نجحوا فى كشفها قبل غيرهم من دول أوربا . وبهذا يكون الأسبان قد حققوا هدفهم الكشفى فى منطقة خليج المكسيك، وشرق أمريكا الشمالية، ويكونوا بذلك قد ساهموا فى فتح هذه المناطق للدول الأوربية مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا وإيطاليا .

كشف الأسبان لأمريكا الجنوبية:

بعد أن انتهت أسبانيا من إرثيادها لكل من البحر الكاريبي وخليج المكسيك والساحل الشرقي لأمريكا ، فكرت وبشكل جدى فى كشف أمريكا الجنوبية للبحث عن معدنى الذهب والفضة ، وفرض سيطرتها على هذه المناطق الجديدة ، والقضاء على سكانها من الوطنيين الأصليين ، واستغلال أسبانيا لكل موارد هذه البلاد . وهذا ما سوف نعرض له بشئ من التفصيل .

فى تلك الأثناء ، كان هناك صراع بين البرتغال وأسبانيا بسبب نشاطهما الكشفى ، ومن أجل وقف هذا التنافس والصراع بين الدولتين الجارتين عقدت معاهدة توريسيلاس The treaty of Tordesillas بين الجارتين ، ونصت بنود هذه المعاهدة على منح البرتغاليين أجزاء من أمريكا الجنوبية ، خاصة التى تقع إلى شرق خط طول ٤٧° جنوبا تقريبا . ومن الجدير ذكره أن تقرير كابوت قد حث البرتغاليين بعد الإطلاع على النشاط والهمة فى مجال الكشف الجغرافى، وكان من نتيجة ذلك تأسيس سنت فنسنت Saint Vincent الواقعة على مقربة من موقع مدينة سانتس الحديثة The Modern Sants للإشراف على خط التقسيم بين الدولتين . وحاول الأسبان التمكين لأنفسهم فى الإقامة على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية . وفى عام ١٥١٠ م قام كل من أوجيدا Ojida ونيكويسا Nicuesa على رأس بعثة كشفية وصلت إلى خليج دارين، وفى منطقة دارين إشتبك أفراد هذه البعثة مع الوطنيين فى هذا القطر ، ورغم ذلك تمكنت البعثة من الكشف عن مناطق متفرقة من هذا الإقليم الواقع على طول الشاطئ الشرقى للمحيط الهادى . وبالتدريج تمكن الأسبان من التغلب على كل الصعاب الأولية التى واجهتهم ، وعاشوا هناك فى مستوطنات صغيرة تقع على طول الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية .

لم يقف جهد الأسبان عند هذا الحد بل نجدهم يرسلون بعثة كشفية إلى شرق أمريكا الجنوبية عام ١٥١٥ م تحت قيادة جـوان دياز دى سوليس Juan Dias de Solis ، الذى تمكن من كشف أحد فروع نهر البليت The Estuary of The plate River .

وفى عام ١٥١٩ م قام كل من مورالس Morales وأنـداجيا Andagya على رأس بعثة كشفية ، أكتشف أثناءها أرض بيرو Biru الواقعة فى الجنوب الغربى من دارين . ومن المعروف أن بيرو قد أكتشفت من قبل بواسطة بارتولومى رويـز Bartolome Ruiz و وضابطه الهمام المدعو فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizarro .

وفى عام ١٥٢٠ م أسس الأسبان مستوطنة كيومانا Cumana . وفى عام ١٥٢٤ م أبحر فرانسيسكو بزارو ، ليكتشف بيرو ، واستمرت بعثته تتجول فى تلك المناطق إلى ما يزيد على ثلاث سنوات ، وقد نجحت هذه البعثة فى الوصول إلى نهر سنت جـوان Saint Guan ، ومع ذلك لم تتمكن بعثة بيزارو هذه من كشف أراضى جديدة باستثناء بيرو ، لأن كل الأراضى التى سارت فيها هذه البعثة كانت مستنقعية ومغمورة بالمياه ، ولا يسكنها أحد ، ولكن على الرغم من ذلك واصل بيزارو تجواله فى منطقة نهر سنت جـوان على متن سفينة صغيرة عبر بها خط الإستواء . وفى تلك الأثناء شاهد مناطق غنية بالذهب والفضة ، وكانت تلك المناطق مسكونة بأناس أكثر ذكاء وأكثر تحضرا من الناس الذين قابلهم بيزارو من قبل .

عادت بعثة بيزارو من منطقة البيرو ، وهى تحمل معها عينات Samples من كل من معدنى الذهب والفضة، إضافة إلى عدد من سكان تلك المناطق . ومع ذلك كان بيزارو يطمح فى المسير إلى مسافة أبعد حتى يصل إلى توماكو Tomaco ، ولكنه عاد إلى بنما ، ومنها إلى أسبانيا ، حيث رحب بجهده وكشفه الحديث كما رحب بفتح هذا القطر .

لم يكتف بيزارو بكل ما قام به فى مجال الكشف بل نجده فى عام ١٥٣١ م يبدأ مشروعه الكشفى الجديد ، وكان توقعه الأول الوصول إلى جزيرة بيونا Puna ، لكنه وصل إلى منطقة تمبيز Tumbez . ومن هناك قام بأعماله الكشفية ، كما أنه أسس مستوطنة فى وادى بيورا The Pura Valley ، ومن بيورا وصل بيزارو إلى إقليم كاجاماركا Cajamarca (مملكة الثروات) . ومن بعدها وصل إلى حدود المناطق القاحلة ، وهناك وجد كل القرى التى تقع فى أودية نهر ، حيث تتوفر المياه اللازمة للرى . إضافة إلى وجود ثروة معدنية ، أكثر مما كان متوقعا ، كما علم بيزارو بوجود أقاليم غنية تقع فى الجنوب ، مما دفعه ذلك إلى إرسال بعثات كشفية فى منطقة كوزكو، وما حولها . وهناك وجد بيزارو مدينة كبيرة غنية بالثروات المعدنية ، وقد عادت البعثات التى أرسلها بيزارو بكميات كبيرة من الغنائم ، التى حصلوا عليها من هذه المدينة ، وكانت هذه الغنائم تمثل دليلا على نجاح بعثات بيزارو الكشفية . وبنهاية عام ١٥٣٣م، سار بيزارو بنفسه إلى كوزكو الواقعة على الشاطئ الشرقى للمحيط الهادى وجعل نفسه حاكما عليها . وفى عام ١٥٣٥م أسس بيزارو مدينة ليما التى وصفها سيزا دى ليون Ciza de Lean فى حينه بأنها المدينة الأعظم فى كل مملكة بيرو، بل هى الأكثر أهمية بعد كوزكو Cuzco . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت بيرو نقطة البداية لعدد من المغامرات الجديدة ، التى دفعت بالأسبان بعيدا إلى داخلية أمريكا الجنوبية .

وكان الأسبان قد أسسوا مستوطنة سانتا مارتا Santa Marta عام ١٥٢٢ م وبعد بضعة سنين أسسوا مستوطنة كورو Coro . وفى عام ١٥٣٢ م أسس الأسبان مستوطنة كارتا جنا Carta gena ، التى أصبحت نقطة إنطلاق لعدد من البعثات الكشفية داخل الأرض التى عرفت فيما بعد جرانادا الجديدة New Granada . وفى عام ١٥٣٠ ، أرسلت أسبانيا بعثة كشفية أخرى إلى أمريكا الجنوبية كانت تحت قيادة الفنجر Alfinger ، وذلك للبحث عن مدينة الذهب الخرافية The fabulous golden city ، التى اعتقد بأنها تقع فى إتجاه

الجنوب . ومن الجنوب ذهبت بعثة الفنجر هذا إلى وادى مجدالينا ، ومن بعده توغلت البعثة فى الجبال الواقعة فى إتجاه الشرق ، وقد واجهت هذه البعثة الكثير من المصاعب خاصة بعد موت قائدها . وفى عام ١٥٣٢ م ، وصلت البعثات الأسبانية الكشفية إلى الوديان الكبيرة لنهرى الماجدالينا Magdalena ، والكوكا Coca ، ووصلت أيضا إلى هضبة بوجوتا Bogota . وفى عام ١٥٣٣ م ، أرسل الأسبان بعثة كشفية أخرى تحت قيادة بنالكازار Benalcazar كانت قد خرجت من بيرو ، ووصلت إلى كويتو Quito ، ومن هناك قام بنالكازار بالفتح المنظم للإكوادور Ecuador . وكانت إكتشافات بنالكازار تنصب حول البحث عن مدينة الذهب الدورادو El-Dorado^(١) .

لم تتوقف بعثات الأسبان الكشفية إلى أمريكا الجنوبية ، ففي عام ١٥٣٣ م ، قام ألونسو دى هيرارا Alonso de Herrera على رأس بعثة كشفية ، صعدت فى نهر أورينكو Orinco ثم دخلت بعد ذلك إلى نهر الميتو The Meto River ولكن لم يكمل ألونسو دى هيرارا مهمته لأن الهنود الحمر قاموا بقتله . وفى عام ١٥٣٤ م قام المغامر الأسباني هيرديا Herdia على رأس بعثة كشفية إلى كارتاجنا ومنها إلى نهر سينو Sinu ليكتشفه . ولم تقف جهود أسبانيا الكشفية عند هذا الحد بل واصلت إرسال بعثاتها الكشفية إلى أمريكا الجنوبية لما لهذه القارة من أهمية عند الأسبان ، ففي عام ١٥٣٥ م قام بدرو مندوزا Pedro Mendoza على رأس بعثة كشفية وصلت إلى مصب نهر البليت ، وعلى الفور بدأ بدرو دى مندوزا العمل فى تأسيس مدينة بيونوس ايرس Buenos Aires . وكانت هذه المدينة على عدااء مستمر مع الهنود الحمر ، مما أدى إلى تلاشيتها من الوجود . وفى عام ١٥٣٥ م أيضا قام المستكشف الموجدو Almogro على رأس بعثة كشفية عبر خلالها بوليفيا الحديثة ، ووصل بعدها إلى شيلي Chile ، ومن هناك إتخذ طريقه عبر قطر يغلب عليه تضاريس صعبة للغاية ، حيث توجد الجبال المرتفعة ، التى لم

تكن شديدة الانحدار فقط بل شديدة الوعورة أيضا، وذات أخاديد مغطاة بالثلج . وقد قضت هذه التضاريس على حياة عشرة آلاف شخص من الهنود الحمر ، ١٥٠ شخص من الأسبان ، أثناء مرور هؤلاء الأفراد من هذا القطر . وفي النهاية وصل الأحياء من أفراد بعثة الموجرو إلى سهول شيلي ، وهناك لم تجد البعثة قطر به أية ثروات معدنية ، وقد سار الموجرو مسافات بعيدة في داخل هذا القطر بحيث وصل إلى خط العرض ٣٧° جنوبا ، ولكنه عاد مسرعا إلى بيرو بسبب الحرب التي اندلعت فيها ، لهذا لم يتمكن من إنجاز أى عمل كشفى على جانب من الأهمية . وفي عام ١٥٣٦ م قام جوان دى أيولاس Juan de Ayolas على رأس بعثة كشفية سارت صاعدة في نهر بارانا Parana ، وأسس أفرادها مستوطنة بالقرب من مدينة سانتا الحديثة ، واستمر جوان دى أيولاس في مسيره ، حتى وصل إلى موقع أسونكيون Asuncion .

وفي عام ١٥٣٦ م ، قاد كويسادا Quesada بعثة كشفية أخرى إنطلق بها من سانتا كارتا Santa Carta ، لكشف جرينادا ، ووادي كوكا ، وكان كويسادا قد قسم أفراد بعثته إلى قسمين قسم يسير بالبر والآخر يسير في نهر مجدالينا ، وقد واجه القسم الأخير للبعثة الكوارث ، ولكنه في النهاية تمكن من التغلب عليها ، وحقق أهدافه الكشفية في تلك المناطق التي سار فيها . وتمكنت بعثة كويسادا من ربط نهر مجدالينا بكوكا . وكان كويسادا هذا قد مرض خلال قطر مهجور تغلب عليه تضاريس وعرة ، ولكنه اضطر إلى استخدام طريق أوبون . وفي أوبون إكتشف كويسادا دلائل على وجود جماعة متحضرة من السكان الذين كانوا يقطنون هضبة بوجوتا ، التي أسماها هو " وادي القصور The Valley of palaces . ومن بعدها أخضع كويسادا أقاليم تشيباتشاس Chibachas .

وفي عام ١٥٣٦ م ، أيضا إنطلقت بعثة كشفية أخرى إلى أمريكا الجنوبية كانت تحت قيادة جورج إسبيرس George of Spires ، وكانت هذه البعثة تتجنب الجبال أثناء سيرها ، وبعد فترة من

المسير توغلت في داخل الغابات والمستنقعات والوديان العليا لكل من نهري أورينوكو Orinoco R ، والأمازون Amazon R . وبهذا يكون الأسبان قد وصلوا إلى نهر كاكويتو Caqueto . وفي عام ١٥٣٧ م كان جوان دي إيولاس قد قاد بعثة كشفية خرجت من أسونكيون ، ومن بعدها وصلت إلى براجواي Paraguay ، ومن المحتمل أن تكون هذه البعثة قد وصلت إلى تخوم بيرو ، ولكنه اضطر إلى العودة إلى براجواي ، وفيها أغتيل بواسطة الهنود الحمر بسبب تخلي نائبه عنه المدعو دومنجو دي إيرالا Domingo de Irala . وبعد إغتيال جوان دي إيولاس حل محله في مواصلة الكشف كابيز دي فاكا Cabez de Vaca الذي قاد بعثة كشفية وصلت إلى جزيرة سانتا كاترينا Santa Catherina ، واعتقد كابيز دي فاكا بأنه لكي ينقذ الأسبان بالسرعة الممكنة ، كان عليه أن يقيم في مدينة أسونكيون إلى جانب إقامته في ميناء بيونس إيرس ، وهناك اكتشف طريق يمر عبر تيرا فيرما Terra firma .

وفي عام ١٥٣٨ م ، عاد جورج أسبيرس إلى كورو ، وهناك قامت بعثته بالكشف عن المملكة الغنية ، وفي نفس العام قام كويسادا على رأس بعثة كشفية أسس أثناءها مدينة سانتا في بوجوتا . ومن المعروف أن منطقة كورو كانت المركز الثاني لانطلاق بعثة كويسادا ، وقد ساعد الكشف الذي حققه كويسادا تجار شركة فلسر أوجسبرج Felser Augsburg في أعمالهم . وفي عام ١٥٣٨ م أيضا قام المغامر الأسباني فدريمان Fedreman على رأس بعثة كشفية إكتشف أثناءها نهري كسنير Casnare وميتا Meta ، ثم وصلت بعد ذلك إلى بوجوتا Bogota ، وفي نفس العام كذلك التقى ثلاثة رجال من أصحاب الخبرات السابقة في كل تاريخ الكشف الجغرافي في بوجوتا ، وكان من هؤلاء الثلاثة كويسادا الذي وصل إلى بوجوتا من سانتا ماريا عن طريق وادي مجدالينا ، ومنهم أيضا فدريمان الذي قدم من الأراضي المنخفضة ، والذي وصل عن طريق شرق الأنديز ، ومنها إلى بوجوتا ، ومن هؤلاء الثلاثة أيضا بنالكازار الذي وصل بوجوتا عن طريق بيرو وكويتو والبوبيان

Bopayan ، وبعد أن التقى الثلاثة رجال في بوجوتا عام ١٥٣٨ م ، قاموا على رأس بعثة كشفية مشتركة سارت في نهر مجدالينا ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى كارتاجانا Cartagana ، ومن بعد تلك البعثة أرسلت بعثة أخرى نجحت في تأسيس مركز كالي Cali .

وفي عام ١٥٣٨ م أيضا عبر فاديللو سان سبستيان دي أورابو Vadillo San Sabastian de Ourabo جبال الأيبب The Abibe Mountains ، ووصل إلى وادي كوكا Cauca Valley ، ورغم تناقضه إلا أنه واصل مسيره حتى وصل إلى كالي، ومن بعدها واصل سيره عبر كل من بوبيان وكويتو، ومنها وصل إلى ساحل بيرو عند بايتا Payta ؛ أي عند مخرج وادي بويرا The Puira Valley. وهكذا ساهم كل من بنالكازار وفاديللو في جعل المستوطنة الأسبانية الأولى في بيرو مرتبطة بالإستكشافات المبكرة، التي تمت في خليج دارين ، كما جعلها مرتبطة أيضا بمدينة كارتاجانا . وفي عام ١٥٣٩ م ، وصلت بعثة فاديللو من الساحل الغربي إلى ميناء كالي ، وهناك إكتشف أحد أفرادها المدعو ، إنداجويا بيونا فنتورا " Andagoya Buena Ventura " وفي نفس السنة إنطلقت بعثة بنالكازار عبر جبال غابية ثلجية ، أدت إلى فقد بنالكازار خيوله في وادي كوكا . كان هذا بمثابة مشهد للنشاط الأسباني الكشفي في الشمال الشرقي لأمريكا الجنوبية ، وهناك انتشرت إشاعات عن الدورادو ، ونتج عن ذلك فحص شامل لتلك المنطقة التي يعتقد بأنها تضم منطقة الدورادو . ولم تتوقف عمليات الكشف عند الدورادو ، بل نجد أن ديغو دي أورداز Diego de Ordaz قد صعد في نهر أورينوكو، ووصل إلى شلال الوردس The Cataract of Alures . ورغم ذلك فلم يكن في استطاعة ديغو دي أورداز مواصلة المسير أكثر من ذلك ، بسبب العوائق الطبيعية ، وبسبب وجود الشلال، إضافة إلى معارضة الهنود الحمر له . وفي عام ١٥٣٩ م أيضا قام جونزالو (أخو بيزارو) على رأس بعثة كشفية خرجت من كوزكو ، ومنها إلى كويتو عبر أرض كل من بويرا Puira وجوياكويل Guayaquil وبعد ستة أسابيع من بدء الرحلة

اكتشف جونزالو أرض القرفة Cinnamon ، وبعد أن أنهت بعثة جونزالو مهمتها عادت عن طريق كورديليرا الثلجية Cordillera Snowy ، حيث كان الثلج يسقط بكميات كبيرة فى هذه المناطق . ويتميز قطر القرفة بالبرودة الشديدة ، ففي هذه المنطقة كان الهنود الحمر يتجمدون ويموتون من شدة البرد .

وبحلول عام ١٥٤٠ م ، كان الأسبان قد أتموا فتح بيرو ، وكان فالديفيا قد كشف شيلى ووادي كوكويمبو Coquimpo ، وإقليم كيويو Cuyo الموجود فى الأرجنتين ، ولم يكمل فالديفيا خططه الكشفية ، لأن الهنود الحمر قاموا بقتله . وكان فالديفيا قد قدم جهودا طيبة فى تلك المناطق ، فقد حاول نشر الرخاء فى كل أرجاء أمريكا الجنوبية ، التى كان يسكنها الهنود الحمر المعادين للأسبان ، الذين ازداد عدائهم عندما تحرك الأسبان نحو الجنوب داخل الجبال الثلجية . ولم تقف الجهود الأسبانية عند هذا الحد بل نلاحظ أنه فى عام ١٥٤١ م ، أعدت بعثة كشفية أسبانية بمعرفة فيليب فون هوتن Philip Von Hutten ، التى بدأت مهمتها من كورو عبر البحر ، واستمرت فى سيرها حتى وصلت إلى بوربوراتا Burburata - ميناء يقع على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية - التى فيها سمع أفراد البعثة عن وجود بعثة كشفية أخرى ، كانت قد جاءت هابطة مع هذا النهر ، حتى وصلت إلى الأرض المنخفضة فى بوجوتا . وفى النهاية وصل فون هوتن إلى نهر الجوفير Guavaire River ، وبعد ذلك تقدمت البعثة صوب المدينة المسماة ماكاتوا Macatoa - المدينة التى لا يوجد بها ثروة كبيرة - وفى هذه المدينة سمع فون هوتن عن وجود قبيلة هندية غنية تعرف باسم أوماجواس التى كانت تستوطن منطقة تقع على مسافة بعيدة نحو الجنوب . وهناك حدث صدام بين فيليب فون هوتن وقبيلة الأوماجواس التى تمكنت من هزيمة هوتن ، الذى عاد إلى كورو بعد أن كتب تقريرا عن أوماجواس ، أشار فيه إلى المناطق التى كشفها، والتى لم يستطع أى أوربى الوصول إليها بعد ٢٠٠ عام . وقوبلت تقارير فون هوتن بالتصديق من جانب المسئولين فى

أسبانيا لذلك أعد عدد من البعثات الكشفية التى كان من أهمها بعثة بدرو دى أوراسوا Pedro de Ursua ، التى نجحت فيما أوكل إليها من مهام . ورغم ذلك فإن هذه البعثة لم تصل إلى المناطق المجهولة .

وفى عام ١٥٤١ م أيضا كان كابيز دى فاكا يقوم على رأس بعثة كشفية عبرت الجبال الوعرة ، وشق أفراد البعثة لأنفسهم طريقا خلال تلك الغابات ليتمكنوا من المرور هم ودوابهم . وشاهدت البعثة أن هذه الأماكن المكتشفة حديثا لم تكن مسكونة بالناس ، بل كانت خالية ، وبعد المسير ١٩ يوما تقريبا قاربت التموينات الخاصة بالبعثة على النفاد ، وشاهد أفراد تلك البعثة السكان الأوائل الذين يقطنون تلك المنطقة النائية ، وفى بداية ديسمبر من نفس العام ، وصلت بعثة كابيز دى فاكا إلى الإكواسو Iquassu وهو أحد الروافد الكبيرة لنهر البارانا Parana . بعد ذلك تتبع أفراد بعثة كابيز المسير فى هذا الفرع الرئيسى حتى وصلوا إلى نهر البارانا نفسه . ولم تكن خيبة الأمل بالنسبة لبعثة كابيز تكمن فى إيجاد السفن التى أعدها فى إسونكيون ، بل كانت الخيبة تكمن فى إستيلاء الحاكم الأسبانى على هذا النهر ، تحت إسم صاحب الجلالة His Majesty ، وقد سارت بعثة كابيز دى فاكا فى هذا النهر بنجاح حتى وصلت إلى المستوطنة الأسبانية فى ١١ مارس عام ١٥٤٢ م . وبعد شهرين من المسير وصل كابيز دى فاكا إلى أسونكيون ، وكان فى حالة مرض شديد ، ومن هناك إنطلق كابيز لعمل على إعادة تأسيس الإستراتيجية والقوة لأسبانيا ، فأرسل مجموعة لتعيد بناء ميناء بيونس ايرس ، كى يصبح مكانا أكثر ملائمة لمستعمرة جديدة تكون أكثر أمنا ورخاء لجميع الأسبان فى الإقليم ، واشترط أن يكون الميناء ملائما أيضا لهؤلاء الذين سيأتون إلى هذا المكان فى المستقبل ، وكانت بعثة كابيز دى فاكا قد حاولت إقامة علاقة مودة مع الهنود ، ولكن عندما باعت جهودها بالفشل أرسل إليهم الحملات التأديبية ، التى جعلتهم يقيمون علاقات مودة بينهم وبين الأسبان .

بعد ذلك ذهب كابيز إلى براجواي ، وبحسب تقرير دي منجو دي إيرالا ، فإن كابيز دي فاكا ، قد سلك أفضل طريق يؤدي إلى الداخل ، ويصل إلى أرض الإكسارايي المستنقعي The marsh Country of xarayes . وقد كتب الرحالة الأسبان عن هؤلاء السكان بأنهم مزارعون يزرعون مساحات صغيرة من الأرض بسبب عدم صلاحيتها للزراعة ، فغالبية الأرض كانت مغمورة برمال مجدية . لهذا كان هؤلاء السكان فقراء يعيشون أساسا على الصيد في البحيرات القريبة من قراهم . وفي هذا الوقت ، كان القيام بعمل استكشاف أمرا صعبا بالنسبة لكابيز بسبب قلة التموينات التي كادت أن تنفذ ، وبسبب عدم دقة المعلومات ، إضافة إلى عدااء الهنود الحمر ، لكل هذه الأسباب تخلى كابيز عن مهمة الكشف . وطبقا لذلك انسحب إلى ميناء لوس ريس Los Reyes . وعلى الرغم من ذلك لم يستكن كابيز دي فاكا لكل هذه الصعاب ، بل قرر مواصلة البحث والاستكشاف ، فقام على رأس بعثة كشفية أخرى ليصل بها إلى ما وراء المناطق التي وصل إليها في السابق ، فسارت بعثته عبر قطر كثيف الأشجار والأدغال ، التي كان من المستحيل التقدم من خلالها دون شق طريق ، وإن لم يفعل ذلك كان عليه الإنتظار حتى تجف المياه . وفي النهاية أجبر المرض والناموس كابيز على العودة إلى أسونكيون ، فضلا عن تمرد ضباطه الذين ألغوا القبض عليه وأرسلوه إلى أسبانيا عام ١٥٤٥ م .

وفي عام ١٥٣٩م ، قاد بيزارو Pezaro بعثة كشفية وصلت إلى قطر مهجور يسقط فيه المطر بغزارة ، وباستمرار بحيث لم يتوقف نزوله حتى ولو ليوم واحد ، لهذا ترك بيزارو غالبية أفراد بعثته في وادي نابو Napo ثم واصل مسيره بعد ذلك مع عدد قليل من أفراد خاصة من الأفراد الأكثر جدية . وكان يهدف من وراء ذلك إلى إيجاد طريق آخر يسير فيه إلى الأمام ، لأن هذا القطر كان مليئا بالغابات ، فكان على أفراد البعثة - في أجزاء كثيرة من هذا الطريق - القيام بفتح ممرات باستخدامهم للفئوس التي كانت بصحبته ، ورغم ذلك كان تقدمهم بطيئا وصعبا ، وقد أشارت

تقارير جميع البعثات التي مرت من هذا القطر ، بأن أرضه كانت غابية ومملوءة بالبحيرات Lagoons والمستنقعات Swamps ، التي لم تستطع البعثات الكشفية المسير من خلالها، لهذا اضطروا بيزارو للتوقف ليبنى سفينة ، وعند الإنتهاء من بنائها ، واصل أفراد البعثة رحلتهم فالبعض منهم كان على متن هذه السفينة والبعض الآخر كان يسير على الشاطئ ، وبعد شهرين من السفر سمعوا عن أرض مسكونة بأناس ، وبها مؤن غذائية كثيرة ، وغنية بالذهب ، الذي كانت أسبانيا في ميسيس الحاجة إليه . لهذا أرسل بيزارو فرانسيسكو دي أورالانا Francisco de Orallana إلى الأمام في إحدى السفن لشحنها بالمواد الغذائية من هذا القطر ، ثم يعود بعد ذلك صاعداً مع النهر ليخفف عن أفراد البعثة معاناتهم ، بما يحمله من مواد غذائية .

وقد وصل أورالانا إلى هذا القطر في غضون ثلاثة أيام، وعند وصوله إليه لم يجد أورالانا أية تموينات غذائية ، لذا رجع هابطاً مع نهر الأمزون حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، ويبدو أنه وجد نفسه في مكان كان من المستحيل عليه العودة إلى نقطة البداية ، ومقابلة بيزارو . من الواضح أن بيزارو لم يغفل تتبع أخبار أورالانا ، فقد أرسل بعثتين للبحث عنه ، كان هو على رأس إحداها ، ولكن تلك البعثتين لم تحققاً أية نجاح يذكر في العثور عليه، وكان بيزارو قد وصل في بحثه إلى ملتقى نهر الناو، وهناك عثر على أحد الأشخاص الذين كانوا برفقة أورالانا ، واستمرت بعثة بيزارو في البحث عن أورالانا لمسافة ١٠٠ فرسخ أخرى ، وبعد ذلك إتضح لأفراد بعثة بيزارو أنه من المستحيل مواصلة الملاحة صاعدين في نهر الأمزون ، ربما يرجع ذلك إلى كثرة العوائق المائية .

وفي النهاية دخل بيزارو إلى غابة ، وفتح خلالها طريقاً بواسطة الفئوس والمناجل Axes and Bills حتى يتمكن وبعثته من مواصلة المسير ، وفي تلك الأثناء مات الكثير من أفراد بعثة

بizarro أثناء تلك الرحلة ، وكل من تبقى من أفراد بعثته على قيد الحياة كان عاريا وحافي القدمين ، ورث المظهر ونحيل الجسم ، وكان من النادر ما يعرف أحدهم الآخر . وفي بداية عام ١٥٤٢ م دخل أفراد بعثة Bizarro كويتو quito ، ومع ذلك لم يفكر أفراد البعثة والبعثات الأسبانية السابقة - التي وصلت إلى هذا القطر المتجمد الواقع إلى الشرق من جبال الأنديز - في الأنهار الكبيرة في العالم الجديد . وفي النهاية إستنتج Bizarro أن المناطق الغنية بالمعادن في هذه الأصقاع ، كانت محدودة للغاية ، لهذا باعت كل جهوده الكشفية بالفشل .

وفي عام ١٥٤٨ م قام دومنجو مارتينيز دي إيرالا Domingo Martinez de Irala على رأس بعثة كشفية أخرى ضمت الأسبان الذين كانوا يرغبون في الذهاب إلى داخل براجواي ، وذلك للبحث عن الذهب والفضة واتخذت هذه البعثة طريقا عبر أعالي نهر الماديرا Madeira River ، ووصلت إلى مكان يوجد به أسبان ، واعترف هؤلاء الرجال لأفراد البعثة بأنهم من رعايا برانزورس Peranzures الذي كان قد اكتشف من قبل هذا الجزء من بيرو . وكان إيرالا هذا قد تلقى رسائل من ليما Lima ، كما أنه أرسل أربعة رجال إلى بيرو ، عن طريق بوتوسي Potosi ، وكوزوكو Cuzoco وأخيرا وصلوا إلى ليما ، وبهذا يكون إيرالا قد أسس طريقا يسير شرق بيرو ، ومع أن هذا الطريق لم يستعمل على وجه السرعة كطريق دائم للمواصلات ، إلا أن كشفه كان على جانب كبير من الأهمية .

وفي عام ١٥٥٢ م أسس فالديفيا مدينة عرفت باسمه " مدينة فالديفيا Valdivia City " في شيلي ، وبذلك كان النفوذ الأسباني قد إمتد إلى خط عرض ٤٠° جنوبا . وكانت البعثات الكشفية الأسبانية قد وصلت إلى مضيق ماجلان ، ورغم ذلك كان المغامر فالديفيا يطمح في كشف خط ساحل المحيط الأطلسي الجنوبي . وكتب أحد قادة فالديفيا ويدعى الجنرال جوان بوتستا دي باستين

Lieutenant General Juan Bautista de Pastene . تقريراً جاء فيه " أن الخرائط الخاصة بهذه المنطقة غير دقيقة . " وفي أبريل من عام ١٥٥٢ م ، كتب فالديفيا تقريراً جاء فيه " أسست مدينة فيلاريكا Villarica في شمال البحر الذي كان من الممكن إستكشافه ، وكان على فالديفيا الذهاب ليفتح ويكتشف حتى يصل إلى مصب مضيق ماجلان في المحيط الهادى . وكان من المعتقد أن هذا المضيق يوجد عند خط عرض ٥٠° جنوباً أى عند موقع مدينة فالديفيا ، الذى كان من المتوقع أن يصلها فالديفيا ، فى صيف عام ١٥٥٢ م . وهناك إكتشف فالديفيا نهر تتدفق مياهه ويزيد عرضه عن ميل واحد ، ومن هذه المنطقة أرسل فالديفيا بعثة كشفية إتجهت إلى الشرق من مدينة فلاريكا ، لتكتشف القطر الواقع على الجانب الآخر من جبال الأنديز Andes Mountains .

وفى هذه المنطقة وجد فالديفيا نهراً كبيراً ، من المحتمل أن يكون هذا النهر هو نهر النجرو Nigro River أو الكلورادو . وبالإضافة إلى ذلك فتح فالديفيا إقليم كايو Cayo . لم تتوقف الجهود الأسبانية الكشفية إلى داخل أمريكا الجنوبية بل نجد أنه فى عام ١٥٥٣ م ، أرسلت بعثتان كشفيتان لتعزيز الإتصال بين السواحل الشرقية والغربية لأمريكا الجنوبية ، فقد خرجت البعثة الأولى من بيرو ، ونتج عنها تأسيس سنتياجو دل إسترو Santiago del Estero ، وخرجت الثانية من شيلي chile ونتج عنها تأسيس مدينة مندوزا Mendoza عام ١٥٥٩ م . وفى السنة التالية أسس الأسبان مستوطنة عرفت بسانتاكروز دى لاسيرا Santacruz de Lasiera وقد عززت هذه الإستكشافات الإتصال بين روافد نهر البليت the Plate Estuary River وبيرو ، فبواسطة هذا الطريق مرت تجارة وادى بارانا - براجواى Parana- Paraguay إلى أوروبا . وفى عام ١٥٦٠ م خرج أورسوا Ursua على رأس بعثة كشفية من ليما ، وصلت إلى الهولاجا Huallaga - هى واحدة من المناطق الواقعة فى أعالي نهر الأمزون - للبحث عن قطر يوجد به معدنى الفضة والذهب ، ولكن فى نهاية شهر سبتمبر سارت تلك البعثة فى قطر

مسطح بحيث أنها لم تشاهد أى جبل أو أية تضاريس ، وكان الهدف من هذه البعثة تحديد موقع القطر الثرى ، ولكن كل جهود أورسوا باءت بالفشل ، لأن هذا القطر لم يكن معروفا . وبنهاية عام ١٥٦٠ م أصبح بعض أفراد بعثة أورسوا غير راضين عن عملهم ، لأنهم ساروا مسافة طويلة بلغت ٧٠ فرسخا ، دون أن يعثروا على أية أقاليم غنية ، فادى هذا الإستياء إلى تمرد جنود البعثة .

فى يناير عام ١٥٦١ م ، أغتيل أورسوا وعهد بقيادة البعثة إلى فرناندو دى جوزمان Fernando de Guzman ، وبعد أن بدأت هذه البعثة مهمتها فقدت عددا من أفرادها ، وقد تمكنت من إكتشاف قريتين خاويتين ، وفى تلك الأثناء ، كان أفراد هذه البعثة منقسمون فى ولائهم لكل من أورسوا وجوزمان ، وأدى هذا الإنقسام إلى إنتشار المؤامرات والصراعات فيما بين أفراد البعثة ، فمنهم من كان يفضل قيادة أورسوا ، ومنهم من كان يفضل قيادة جوزمان لتلك البعثة ، وقد أدت هذه الصراعات والمؤامرات إلى الإطاحة بفرناندو دى جوزمان وحل محله فى قيادة هذه البعثة الكشفية القائد إجوير Iguire وقد اتخذت هذه البعثة طريقها عبر الأمزون صاعدة عبر نهر الريونجرو ، ثم وصلت بعد ذلك إلى نهر الأورينوكو Orinoco ومن بعده وصلت إلى المحيط الأطلنطى ، وقد واجهت هذه البعثة مصاعب كثيرة تحت قيادة أجوير ، لأنه زج بنفسه فى مشاكل وفتن بين أفراد البعثة فضلا عن إستخدامه للقسوة مع سكان فنزويلا حيث دفعهم ذلك إلى قتله والتخلص منه .

لم يقف جهد أسبانيا فى مجال الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد عند هذا الحد ، بل نجدها ترسل بعثة كشفية عام ١٥٦٩ م تحت قيادة بدرو ملافير دى سيلفا Pedro Malaver de Silva وكانت هذه البعثة قد خرجت من بوربوراتا Burburata متجهة إلى السهول الداخلية فى فنزويلا ، لكنه فشل فى إنجاز أهداف بعثته ، ولكن بعد مضى خمس سنوات على رحلة بدرو ملافير دى سيلفا الأولى ، قام

على رأس بعثة ثانية ، وصل بها إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ورسى بسفنه بين دلتا نهري أورينوكو والأمزون ، هناك مات جميع أفراد بعثته باستثناء جوان مارتن دي البوجار Juan Martin de Albuja ، الذي ظل على قيد الحياة بين الهنود الحمر مدة عشر سنوات وأخيرا إتخذ طريقه إلى مارجاريتا Margarita ، حيث حمل معه القصص العجيبة عن المملكة الغنية (الدورادو) the Wealth Kingdom of Eldorado .

بعد ذلك واصل الأسبان جهودهم الكشفية في العالم الجديد ، ففي عام ١٥٧٧ م ، قام مندوزا على رأس بعثة كشفية ، إكتشف خلالها أرخبيل تشيلوي the Archipelago of Chiloe ، وقد عانى هذا الأرخبيل من كثرة المشاكل التي إنتابته بسبب قلة عدد القوات الأسبانية الموجودة فيه . ويبدو أن الأسبان كانوا يفضلون إقليم بوليفيا لأنه كان يوجد به مناجم للفضة خاصة في منطقة بوتوسي ، وكان الأسبان قد إحتلوا شيلي عن طريق الحروب المتقطعة التي خاضوها ، وبعد ذلك إستقر الناس في بوتوسي ، وفي وقت قصير للغاية ، حلت بوتوسي محل كوزكو كأغنى مدينة في أمريكا الجنوبية ، بينما كانت بيرو تنتشر فيها الحروب الأهلية ، بسبب عبث الجنود غير القانونيين ، وبسبب إنعدام الأمن وانتشار الفوضى . وفي نفس تلك الفترة قام نائب ملك أسبانيا المدعو مركويز سانيت بدرو أورسوا The Marquis of Canete Pedro de Ursua على رأس بعثة كشفية ، وصلت إلى وادي الأمزون ، وفي أغلب الظن فإن نائب الملك كان قد تأثر بالإشاعات التي إنتشرت في كل من ليما ، وأقاليم بيرو . وقد تمثلت هذه الإشاعات في وجود المعادن المختلفة في تلك الأصقاع ، وكان وراء تلك الإشاعات الهنود الحمر في البرازيل ، فقد أخبر هؤلاء الهنود الأسبان بأنهم شاهدوا أشخاصا مطليون بالذهب على ساحل البرازيل ، وقد جذبت هذه الإشاعات إنتباه الأسبان لمدة ٣٠ سنة ^(١) .

^(١) Baker. B. : OP . cit , pp. 94, 98, 100-104 .

لم تقف جهود أسبانيا الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد أنه في الفترة الواقعة فيما بين ١٥٨٢ - ١٥٨٣ م ، قام المستكشف أنتونيو دي بريو Antonio de Berreo برحلة ملفتة للنظر بدأت مهمتها من جرانادا New Granada ماراً بكل من أنهر الكاسانير والميتا والأورينوكو ، ووصل إلى ترينيداد Trinidad وأصبح أنتونيو دي بريو حاكماً لها ، وأضيفت تقاريره الخاصة إلى تقارير جوان مارتين Juan Martin الذي قاد بعثة كشفية إلى أمريكا الجنوبية عام ١٥٩٥ ، وذلك لاستكشاف ما تبقى من مناطق مجهولة في تلك القارة.

الفصل الرابع

رحلة ماجلان التاريخية حول العالم

الفصل الرابع

رحلة ماجلان التاريخية حول العالم فى ٢٠ سبتمبر عام ١٥١٩ م

من مظاهر عصر النهضة إنبعثت حركة الكشف الجغرافية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، فيرجع الفضل فى قيام حركة الكشف الجغرافية للإنجازات الملموسة لثلاثة رجال هم على النحو التالى :

كريستوفر كولمبس Chrestopher Columbus ، وفاسكو دي جاما Vasco de Gama ، وفرديناند ماجلان Ferdinand Magellan ، على الرغم من أن نتائج رحلات كل من كريستوفر كولمبس ، وفاسكو دي جاما كانت على جانب كبير من الأهمية ، إلا أن مجهودات ماجلان كانت أكثر أهمية ، فقد تمكن هذا المغامر من ربط العالم الجديد بالشرق الأقصى ، عن طريق الإبحار حول الكرة الأرضية ، فتمكن ماجلان من كشف طريق بحرى يربط بين المحيطين الأطلنطى والهادى .

فمنذ السنة الأولى من القرن ١٦ م ، أولى المستكشفون اهتماماً كبيراً بالساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية ، فبحلول عام ١٥١٩ ، كانت القارة الأمريكية الجنوبية قد تعرضت لموجات عديدة من الحملات الكشفية من قبل أسبانيا ، وهذا ما تعرضنا له فى الفصل السابق بشيئ من التفصيل ، ففي مطلع القرن ١٦ م ، وجد دليل موضوعى يخدم المعرفة الجغرافية ، تمثل هذا الدليل فى النموذج الخاص للكرة الأرضية التى رسمها إسكونر Schoner فى الفترة ما بين عامى ١٥١٥ ، ١٥٢٠ م . وقد إهتم التجار والمستكشفون الأول بهذا النموذج ، الذى كان من الواجب على كل شخص فى ذلك الوقت أن يعرفه ، فعلى أثر ذلك قام الدكتور جويلمارد Guillemard بتفحص نموذج الكرة الأرضية التى رسمها إسكونر ، وتمكن جويلمارد بعد الدراسة المتأنية لنموذج الكرة الأرضية من معرفة قارة مجهولة توجد فى المحيط الشاسع الواقع

فى اتجاه الغرب ، وعرفت هذه القارة فيما بعد بأمريكا ، وفيما يلى سنتناول الدور الذى قام به ماجلان ونبذة عن حياته .

ولد ماجلان فى حوالى عام ١٤٨٠ م ، وكان قد خدم تحت سيادة البرتغاليين فى جزر الهند الشرقية، ومن المحتمل أنه شارك فى كشف جزر التوابل ، التى تم فتحها بعد إنهيار ملقا Malaca عام ١٥١١ م . ويقال أن ماجلان قضى بعض الوقت فى مراكش Moroco ، ثم ترك بعد ذلك خدمة ملك البرتغال مفضلا العمل فى خدمة تشارلس الخامس ملك أسبانيا ، كى يقوم بعمل إستكشافات جغرافية لحساب هذا الملك الأخير ، وتعهد ماجلان بأنه سوف لا يرتكب أى إثم أو أى عمل مشين فى منطقة نفوذ البرتغال . ورغم أن أقوال ماجلان كانت غامضة إلى حد ما ، لكنها كانت واضحة فى هذه النقطة ، فقد أصدر ملك أسبانيا مرسوما لماجلان يخول له القيام برحلة كشفية حول الأرض جاء فيه :

أولا : عليك يا ماجلان الذهاب لتكشف جزءا من المحيط الواقع داخل حدودنا التى تتفرد أسبانيا بها ، و عليك أيضا يا ماجلان إستكشاف أى جزء من هذه الأرض الواقعة فى اتجاه الغرب .
ثانيا : عليك يا ماجلان كذلك عدم قيامك بأى إستكشاف فى داخل حدود ملك البرتغال الواضحة للعيان ، بحيث لا تتسبب ياما جلان فى ضرر البرتغال .
ثالثا : عليك يا ماجلان أن تقوم بعملياتك الكشفية داخل تخومنا .

رابعا : عليك ياما جلان ، وبقدر معرفتى لأى جهة فإنه يوجد توابل فى جزر المالوكو Maluco ، وأنت يا ماجلان ستذهب لتبحث عن أماكن هذه التوابل ، وتكمن رغبتى يا ماجلان فى وصولك إلى تلك الجزر المذكورة آنفا .

فى ٢٠ سبتمبر عام ١٥١٩ م ، أبحر ماجلان على رأس أسطول مكون من خمس سفن قديمة للغاية ، لكنها كانت قد رمت

بمعرفة داكوستا Dacosta البرتغالى . ويمكن الإشارة إلى خط السير الذى إتخذته البعثة ، فكان على رجال البعثة أن يتخذوا طريقا مستقيما بعد خروجهم من أسبانيا ، حتى يصلوا إلى رأس فريو Cape Frio ، حيث كانت البرازيل على يمين خط سير بعثة ماجلان ، وواصلت البعثة سيرها حتى وصلت إلى خط مستقيم يصل إلى جزيرة مالوكو . وكانت خبرة ماجلان فى المسير فى المناطق الإستوائية مشابهة لخبرة فاسكو دي جاما ، فكانت السفن تسير هنا وهناك فى البحر تحت الطقس الجميل ، الذى ساعد البعثة على المسير . وأخيرا ، وفى ٢٩ نوفمبر من نفس العام ، وصلت سفن البعثة إلى رأس سنت أوجستين Saint Ougustine ، ومن هناك تتبعت سفن البعثة المسير بمحاذاة الساحل فى إتجاه الجنوب حتى وصلت إلى ميناء سنت جوليان Port Saint Julian ، عند خط عرض ٤٩,٢٠ ° جنوبا . وفى نهاية شهر مارس من عام ١٥٢٠ م ، ظل أفراد البعثة هناك طوال شهرين كاملين دون أن يروا أى إنسان ، وفى نهاية تلك الفترة تمكن أفراد بعثة ماجلان من رؤية بعض الباتاجونيّانز Patagonians ، واعتبر أفراد البعثة رؤيتهم لهؤلاء الناس ، بمثابة المكافأة الكبيرة على هذا العمل العملاق ، الذى خلق لدى بيجا فيتا إنطباعا كبيرا . وكان بيجا فيتا Pegafetta قد كتب تقارير مطولة عن هذه الرحلة ، وبالجملّة فإن أفراد البعثة قضوا خمسة شهور فى ميناء سانت جوليان Saint Julian .

وفى خلال هذه الفترة تأمر قادة الأربع سفن الأخرى ضد القبطان ماجلان ، بسبب طول الرحلة ، وبسبب الخوف من المستقبل والأمواج العاتية ، والشك فى تحقيق الهدف ، وقد فقدت إحدى هذه السفن الأربع المعروفة باسم Saint James عند ذهابها إلى الجنوب لكشف الساحل فى هذه المنطقة ، وتمكن طاقمها من العودة بها مرة ثانية ، وفى نهاية أغسطس من نفس العام تقدمت البعثة إلى الأمام فوصلت سفنها إلى منطقة فيرجنس Virgins ، وبذلك تكون البعثة قد حققت بعض إنجازاتها . وفى هذا الصدد يقول البحارة " نحن وجدنا المضيق الإعجوبة ، الذى يبلغ طول ١١٠ فرسخ أى ما

يعادل ٤٤٠ ميلا ، وتتدفق مياهه فى بحر آخر أوسع يعرف باسم المحيط الهادى Pacific Ocean . ولم يكن العبور من هذا الممر سهلا ، فالرحلة من خلاله تستغرق ٣٨ يوما ، وقبل دخول البعثة إلى مياه المحيط الهادى تعطلت إحدى سفنها أثناء قيامها بالإستكشاف ، وبذلك تكون سفن البعثة قد نقصت سفينة واحدة .

وبعد ذلك تتبع ماجلان ساحل أمريكا الجنوبية فى إتجاه الشمال لمسافة قصيرة ، ثم سار بعد ذلك فى إتجاه الشمال الغربى ، متخذا طريقه عبر المحيط الهادى مستغلا هبوب الرياح التجارية التى كانت تهب من خلفه وتدفعه للأمام ، وتمثل هذه الرياح المزاييا الواضحة ، لكنها دفعت بالقائد بعيدا عن الجزر الكثيرة المتناثرة فى المحيط الهادى . لهذا واجه رجال ماجلان صعوبات جسيمة ، وصفها بيجافيتا بوضوح بالقول " أنه فى يوم الأربعاء ٢٨ من شهر نوفمبر ١٥٢٠ م ، خرجوا من المضيق المذكور ، ومن بعده دخلت البعثة فى المحيط الهادى ، وظلت فى هذا المحيط ثلاثة شهور وعشرين يوما دون الحصول على مؤن أو مشروبات وكان أفراد البعثة أثناء هذه الفترة يتناولون فقط البسكويت القديم ، المملوء باليرقات والرائحة الكريهة ، وقد شرب أفراد البعثة مياه غير نقية ، أى صفراء اللون ، وذات رائحة كريهة أيضا وأكلوا أيضا جلود الثيران المبطن بها أحواض السفن من شدة الجوع ، مع أن هذه الجلود كانت صلبة بسبب حرارة الشمس والمطر والرياح ، لذا كان من الصعب عليهم تناول هذه الجلود ، لهذا كانوا يتركونها لمدة أربعة أو خمسة أيام فى المياه ، بعد ذلك يضعونها لمدة قصيرة على جمرات قليلة من النيران ، ثم يتناولونها بعد ذلك ، وبالإضافة إلى ذلك كله فإن رجال البعثة كانوا يأكلون نشارة الخشب والفئران ، فكان ثمن الفأر الواحد يعادل نصف شلن ، ورغم ذلك لم يكن الحصول على الفئران أمرا هينا بسبب قلة عددها .

والى جانب هذه المساوئ التى ذكرناها يشير تقرير البعثة إلى مساوئ أخرى كثيرة كان منها تقطيع اللثة العليا والسفلى

للبحارة، بحيث لم يتمكن البحارة من تناول أية أطعمة أو أكل شئ آخر ، لهذا إنتاب الكثير منهم المرض ، فمات منهم ١٩ بحارا ، ومرض ما بين ٢٥ إلى ٣٠ بحارا بأمراض مختلفة ، ولم يتبق منهم على قيد الحياة إلا عدد قليل من الأصحاء . وظلت البعثة مدة ثلاثة شهور وعشرين يوما في بحر مفتوح (المحيط الهادى) بعد أن قطعت مسافة بلغت أربعة آلاف فرسخ بالتمام والكمال ، وسمى هذا المحيط بالمحيط الهادى نظرا لهدوء مياهه ، فلم تواجه البعثة بأية عاصفة، ولم ير أفرادها أية أرض باستثناء جزيرتين غير مسكونتين أو مهجورتين . وفى ٢٤ من شهر يناير عام ١٥٢٠ م شاهد أفراد بعثة ماجلان أول يابسة عرفت بالبوكا بوكا Puka-Puka التى تقع فى أرخبيل البوموتو The Paumotu Archipelago الواقع عند خط عرض ١٤,٤٥° جنوبا . وفى بداية شهر مارس من نفس العام، وعند خط طول ١٣٨,٤٨° كان أفراد البعثة قد وصلوا إلى لادرونس Ladrones، وقبل أن ينتصف هذا الشهر من نفس العام ، كانت بعثة ماجلان الكشفية قد أنجزت فى الواقع أول إستكشاف على جانب كبير من الأهمية ، ويتمثل هذا الكشف فى وصولها إلى جزيرة سمار Samar Island - وهى واحدة من مجموعة جزر الفلبين - ومكثت بعثة ماجلان وقتا قصيرا فى هذه الجزر من أجل إسترداد البحارة لصحتهم وتجديد نشاطهم . وفى ٧ من شهر أبريل من نفس العام ، وصل ماجلان إلى ميناء سيبو Sebu ، أهم وأعظم ميناء فى مجموعة جزر الفلبين ، ولسوء الحظ فإن ماجلان قد تورط يوم ٢٧ من شهر أبريل عام ١٥٢١ م ، فى صراع محلى أدى إلى مقتله ، وقد وقع هذا الصراع بين سكان جزيرة ماكتان وسكان جزيرة أخرى مجاورة لها.

ورسم بيجافيتا شخصية ماجلان بقوله " أن واحدة من فضائله التى كانت راسخة فى عقله هى معاداته للحظ أى أن الحظ لا يحالفه ، فعند إبحاره فى عرض البحر كان يتحمل الجوع أكثر من أى شخص آخر، كما أنه تفوق على أقرانه فى معرفة الخرائط البحرية ، وفى معرفة ألفن الحقيقى للملاحة أكثر من أى شخص

من أفراد بعثته . فبعبريته وجراته تمكن من الدوران حول الكرة الأرضية ، دون أن يعطيه أى شخص المثال على ذلك " ويستطرد بيجافيتا فى قوله " إكتشف ماجلان الطريق الموصول إلى جزر التوابل the spices Island ، ونجح فيما فشل فيه كولمبس ، وبرهن على أن العالم كروى ، وأنه يمكن الإبحار حول العالم . فماجلان كان رجلا عظيما بصفته بحارا وجغرافيا ومكتشفا ، وربما كان لديه إمكانية أكبر من كولمبس أو فاسكو دي جاما ، فهو أعظم الملاحين قديما وحديثا " أجبر موت ماجلان وخيانة حاكم سيواسبان على مغادرة جزر الفلبين ، فمن بعدها أبحرت بعثته إلى بورناو Borneo ، التى كتب عنها بيجا فيتا تقريرا جيدا جاء فيه " إن منازل مدينة بورناو قد بنيت فى المياه المالحة ، باستثناء منازل ملك المدينة وبعض الأمراء . وكانت هذه المدينة تحتوى على ٢٥ ألف أسرة بنيت منازلها جميعا من الخشب على أكوام كبيرة من التراب ، وذلك لرفع البنايات إلى أعلى أى بعيدا عن المياه، وعندما يرتفع المد أى مد البحر ، يذهب النساء فى قوارب عبر المدينة ليبتنن المؤن الغذائية والضروريات الأخرى.

ومن بورناو إتخذ الأسبان طريقا قادهم إلى الشمال الشرقى ، فوصلوا إلى منداناو Mindanao . وهناك تلقى الأسبان تعليمات عن كيفية الوصول إلى جزر المولوكاس Molucas . بعد ذلك أبحر رجال البعثة فى الطريق الجنوبى الشرقى مارين بعدد من الجزر ، فكانوا قد مروا بجزر المولوكاس ، التى تحدث عنها بيجا فيتا بالقول " نحن نشكر الله فقد رفهنا عن أنفسنا وأطلقنا نيران مدافعنا فى كل أنحاء جزر المولوكاس ، ولم تدهشنا مدافعنا بقدر ما كنا مبهجين " وكنا قد قضينا ٢٧ شهرا إلا يومين فى البحث والتجول المستمرين بين عدد كبير من الجزر ، للوصول إلى المولوكاس . وتقع جزر المولوكاس فى البحار التى لا يمكن الإبحار فيها بسبب الجو المظلم المضرب ، وبسبب ضحالة المياه . ولم تهتم البعثة بالمناطق التى إنتشر فيها النفوذ البرتغالى .

ومن الجدير ذكره ، الإشارة إلى أن البرتغاليين كانوا كالفينيقيين في حجب إستكشافاتهم المهمة عن غيرهم ، بل كانوا يجعلونها في حالة من الغموض التام . وقد نجح الأسبان في إنجاز أهدافهم الكشفية ، بل تمكنوا من قضاء بعض الوقت الممتع في هذه الجزر . وشاهد البحارة منتجات تلك الجزر المتمثلة في القرنفل Cloves والزنجبيل Ginger ولب الساجو Sagu والأرز rice ، وجوز الهند coco nuts وموز الجنة Plantains ، واللوز Almonds ، الذي كان أكثر ما حصل عليه أفراد البعثة ، بالإضافة إلى الرومان المر والحلو Sweet and bitter Pomegranates وقصب السكر Sugar cane ، وزيت الكوكا Oil of coca ، والسسمم Sesame ، والبطيخ Melons ، والخيار Cucumbers ، واليقطين Pumpkins ، والأناناس Comilicia - نوع من الفاكهة الطازجة وهي في حجم البطيخ - والخوخ Peach ، والجوافة Guave . وقد وجدت البعثة خضروات Vegetables ، كما وجدت الأطعمة Eatable .

وشاهد أفراد البعثة أيضا في تلك الجزر الكثير من الحيوانات مثل الماعز Goats ، ومن الطيور الديوك البرية Fowis ، ومن الحشرات النحل Bees ، فالنحلة أكبر من النملة ، وكان النحل يبني بيوته في جذوع الأشجار Trunks of trees ، وشاهدت البعثة كذلك الببغاوات البيضاء والحمراء White and Red Parrots ؛ أي أن البعثة وجدت الببغاوات من جميع الأنواع والأشكال المطلوبة عند الأسبانيين ، ليس لجمالها ولكنها تتحدث كثيرا وبوضوح . وفي تلك الأثناء ، كانت السفن الأسبانية رديئة ، وفي حاجة إلى إصلاح . ففي ٢١ من شهر ديسمبر عام ١٥٢١ م ، أبحرت السفينة فيكتوريا إلى أسبانيا ، وتركت من خلفها السفينة الثالث المقدس Trinity مع طاقمها ، وعدد من الرجال الذين لم يرغبوا في المخاطرة بالسفر في السفينة فيكتوريا ، وقد شحن البحارة السفينة الثالث المقدس بالقرنفل بعد إصلاحها ، ثم ذهبوا بها إلى تيمور Timor ، ومنها إتخذت السفينة الثالث طريقها نحو الجنوب الغربي لخوف البحارة الأسبان من وقوعهم فريسة سهلة في أيدي البرتغاليين ، ومن

الجدير ذكره أن البرتغاليين كانوا قد سبقوا الأسبان في الوصول إلى شرق آسيا .

بعد ذلك أبحرت السفينة الثالوث في المحيط الهندي ، وتجنبت الدخول إلى موزمبيق ، لكنها مرت بجزر الفيرد . ومن الواضح أن سفن بعثة ماجلان كانت في حالة من الارتباك والفوضى ، ففي جزر الفيرد أعتقل ١٣ من أفراد هذه البعثة خاصة من الذين حاولوا الذهاب إلى شواطئ تلك الجزر ، وقد تناقص أفراد بعثة ماجلان منذ مغادرتهم لجزر المولوكاس من ٦٠ فردا إلى ١٨ فردا فقط ، هؤلاء الثمانية عشر بحارا هم الذين وصلوا إلى أسبانيا في يوم ٦ سبتمبر عام ١٥٢٢ م . ومن الواضح أن ثلاث سفن من سفن البعثة قد دمرت لعدم ملائمتها للسير أو للملاحة مسافة طويلة ، ولم يعد منها إلى أسبانيا إلا السفينة الثالوث والسفينة فيكتوريا .

قاد القبطان سبستيان دلكانو Sebastian Delecano السفينة فيكتوريا ووصل إلى أسبانيا بكل فخر واعتزاز ، وهناك كوفئ على رحلته التي طاف أثناءها حول العالم . وقد مدح الكاتب رامسيو Ramusio القبطان سبستيان دلكانو بقوله " في الواقع أن الـ worthier - بحارة أسبانيا - الذين كان لهم شهرة لاحدود لها ، وأكثر من شهرة الأرجونوتس Argonauts - البحارة اليونانيين - وهم المغامرون الجادون في البحث عن أي شيء . ورغم كفاءة المغامرين اليونانيين إلا أن سفنهم the Old Argos السفن اليونانية القديمة كانت أقل كفاءة من السفن الأسبانية حديثة البناء ، مع أن السفن اليونانية القديمة كانت تعتبر من السفن المهمة في زمنها ، فهي التي إكتشف بحارتها البحر الأسود . وكانت هذه السفن اليونانية قد وصلت إلى منطقة البونتوس Pontus ؛ والبونتوس إسم قديم لمنطقة في آسيا الصغرى الشمالية، تقع إلى الشمال من كبادوكيا Cappadocia وتمتد بطول ساحل البحر الأسود . أما سفن أسبانيا فكانت تبحر من هسباليس Hispalis (أشبيلية) - الواقعة في

الجنوب الأسباني - فى إتجاه الغرب، وفى إتجاه نصف الكرة
الجنوبى the southern hemisphere ، وأخيرا تبحر إلى الشرق ثم تعود
مرة ثانية إلى أسبانيا " .

ومن الجدير ذكره أن ماجلان كان من أكثر المغامرين شهرة خاصة من الذين أبحروا حول العالم ، فكان ماجلان قد أوضح بأن المحيط الهادى ينبغى أن يستعمل كطريق يؤدي إلى الشرق ، مع أن هذا المحيط لم يكن قد اكتشف بشكل نهائى خلال القرن الذى أعقب رحلة ماجلان . فمن الواضح أن بعثة ماجلان لم تكتشف كل المحيط الهادى ، فكل ما قامت به بعثته أن السفينة الثالث (أى الأب والأبن والروح القدس) ، قامت بجهد كشفى كبير ، فقد وصلت هذه السفينة إلى المحيط الهادى عند كل من خطى عرض ٤٢° شمالا ، وخط طول ١٤٣° شرقا تقريبا، ورغم ذلك لم يكن فى مقدور تلك السفينة التقدم إلى الأمام ، فاضطرت نتيجة إلى ذلك إلى العودة إلى المولوكاس ، وكانت هذه السفينة قد إستكشفت عددا قليلا من الجزر، وكانت الأهمية الأساسية للرحلة تكمن فى برهنتها على وجود محيط واسع (المحيط الهادى الذى وصل إليه ماجلان).^(١)

ومما لا شك فيه فإن رحلة ماجلان كانت على جانب كبير من الأهمية ، فقد أثبتت هذه الرحلة بما لا يدعو مجالا للشك كروية الأرض ، فبذلك تكون هذه الرحلة قد أراحت الناس من التفكير حول كروية الأرض من عدمه .

- نتائج حملة ماجلان:

كان من أهم نتائج حملة ماجلان إثبات كروية الأرض ، هذا اللغز الذى ظل يحير العلماء لقرون عدة . وكان من نتائج تلك الرحلة أيضا ربط المحيط الأطلنطى بالمحيط الهادى ، وفتح طريق جديد يربط بين العالم القديم والجديد ، وكان منها أيضا شجعت الأسباب على مواصلة إرسال حملاتهم الكشفية إلى المحيط الهادى ، ففي العشرين من شهر يونيو عام ١٥٦٥ ، قام أندروس دى أوردانيتا Andres de Urdaneta على رأس بعثة كشفية عبر أثناءها المحيط الهادى من الغرب إلى الشرق ، وقد ذكر دى مورجا

De Morga ، إن بعثة أوردانيتا واجهت عاصفة هبت عليها من الجنوب الغربى خاصة عندما دخلت إلى وسط المحيط الهادى ، ووصلت هذه البعثة إلى خط عرض ١٥ ° . وهناك بدأت الرياح الشمالية الشرقية فى الهبوب ، وهى رياح عكسية ، لهذا غيرت تلك البعثة خط سيرها ، واتجهت إلى الشمال الشرقى . وبذلك تكون هذه البعثة قد عبرت خطوط عرض كثيرة وبعد نجاح أوردانيتا فى رحلته ، أستخدم خط سير حملته كطريق منظم عرف بطريق "أوردانيتا " هذا الطريق الذى ربط بين مستعمرات أسبانيا فى العالم الجديد ، وبين مستعمراتها فى شرق آسيا ، ورغم ذلك لم يكن أوردانيتا معروفا معرفة جيدة كخبير جغرافى .

إضافة إلى ذلك فإن أسبانيا أرسلت عام ١٥٦٧م . بعثة كشفية أخرى تحت قيادة الفارو دى مندانا Alvaro de Mendana ، وفى عام ١٥٦٨ تمكنت تلك البعثة من إستكشاف جزر الأليس Ellice Islands ، وفى فبراير من نفس العام قطعت هذه البعثة مسافة كبيرة من الأرض ، كانت عبارة عن مجموعة من الجزر ، التى عرفت بجزر سليمان Solomon Islands ، وقد مكث أفراد تلك البعثة بعض الوقت فى هذه الجزر . وفى منتصف شهر أغسطس من نفس العام غادرت البعثة تلك الجزر ، وتركت عددا من أفرادها فيها ، بسبب وجود معدن الذهب فى تلك الجزر . وبعد ذلك أبحرت، بعثة مندانا صوب الشمال فعبرت جزر المارشال The Marshal Islands ، ووصلت إلى خط عرض ٣٠ ° شمالا ، بعد أن أدى أفرادها عملهم بنجاح . وفى النهاية وصلت تلك البعثة إلى كاليفورنيا ، ومنها إلى ليما، وذلك بمتابعتها ساحل أمريكا الجنوبية ، وعلى الرغم من أن بعثة مندانا كانت واحدة من أهم البعثات ، إلا أنها لم تكن ناجحة لأنها لم تحقق الأهداف المرجوة منها ، سواء أكان ذلك فى مجال المعادن الثمينة أم فى مجال السلع التجارية . وكان من أهم أهداف بعثة مندانا زيارة جزر سليمان ، وفى عام ١٥٩٥م ، أبحرت بعثة مندانا هذه من ليما وكان برفقتها بدرو دى كويروس Pedro de quiros الذى عمل مرشدا لهذه البعثة ثم وصلت

بعد ذلك إلى جزيرة صغيرة عرفت باسم مجدالينا Magdalena . وفي تلك الأثناء دب صراع بين أفراد البعثة بسبب الخلاف في وجهات النظر ، لأنهم لم يكونوا على علم بالمخاطر التي ستواجههم . وفي النهاية وصل أفراد تلك البعثة إلى جزيرة بركانية ، كان سانتا كروز قد أسس عليها مستوطنة أسبانية ، وفي تلك المستوطنة دب الخلاف من جديد بين أفراد هذه البعثة ، لأن البعض منهم كان راغب في التخلي عن المستوطنة ، ورأى البعض الآخر المكوث فيها ، وقد لاحظ كويروس - أحد أعضاء هذه البعثة - أعمال فجور وأخرى وقحة وسلوكيات خاطئة غير ملائمة من جانب أفراد بعثة مندانا هذه . وفي تلك الأثناء مات مندانا وعدداً آخر من القادة في هذه الجزيرة . بعد ذلك قاد كويروس البعثة إلى جزر اللادرونس Ladrones . وفي النهاية وصلت البعثة تحت قيادة كويروس إلى مانيلا ، وقد ظلت مستوطنة سانتا كروز شاهد عيان على مدى الكوارث والأحزان التي وقعت فيها ، وكان ذلك بسبب الصراع الذي نشب بين أفراد بعثة مندانا ، وبين الهنود ، لهذا فشلت خطة هذه البعثة في تحقيق مهامها في هذه المستوطنة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذه البعثة قامت ببعض المساهمات في مجال المعرفة الجغرافية .

وفي عام ١٥٨٢م ، أبحر المستكشف الأسباني فرانسيسكو دى جالى Francisco de Gali عبر المحيط الهادى ، أى من المكسيك وحتى الفلبين ، وكتب تقريراً جاء فيه " أن الفلبين تقع إلى الشرق من اليابان ، وهناك يفيض تيار المحيط الهادى متجهاً إلى شمال كاليفورنيا . ويبدو أن رحلة دى جالى قادتة إلى الاعتقاد بأن كاليفورنيا السفلى كانت جزيرة ، رغم أن استكشافاته الأولى برهنت على عكس ذلك واستمر هذا الغموض حتى القرن ١٨ م .

وفي عام ١٥٩٢م ، أرسلت أسبانيا بعثة كشفية أخرى تحت قيادة جوا ن دى فوكا Juan de Fuca ، وذلك للبحث عن ممر مائى يربط بين المحيطين الأطلسى والهادى . وقد نجحت هذه البعثة في

الوصول إلى خط العرض ٤٧° شمالاً، وأخيراً ضم تقرير جوان دي فوكا إلى مجموعة بورشاس the collection of purchas، وعمل الأسبان على تحصين هذا الطريق كي يبعدوا عنه المغامرين الإنجليز . وفي السنوات الأخيرة ذهب أشخاص كثيرون في الطريق الذي سار فيه جوان دي فوكا من أجل البحث عن هذا الممر .

وفي عام ١٥٩٥م ، خرجت بعثة كشفية أسبانية أخرى من بيرو لكشف المحيط الهادى ، وكانت هذه البعثة قد نظمت على غرار بعثة بدرو أورسوا ، وذلك لتخليص المستوطنة الأسبانية من الطبقة الأرستقراطية الأسبانية الكسولة ، والقضاء على التوتر في هذه المستوطنة ، ووضعها تحت قيادة بعثة مندانا ، إضافة إلى إخضاع الجزر الغربية الواقعة في البحر الجنوبي إلى سيطرة تلك البعثة .

بعد هذا العرض ، يمكن القول بأن أسبانيا قد نجحت إلى حد كبير في الكشف عن داخلية قارة أمريكا الجنوبية . وقد حققت أسبانيا من وراء ذلك أرباحاً مادية طائلة جعلتها أغنى وأقوى دولة في الغرب الأوروبى ، ولا نبالغ إذا قلنا أن أسبانيا كانت من الدول الرائدة في مجال الكشف الجغرافى ، فلم تسبقها أية دولة من دول أوربا باستثناء دولة البرتغال ، التى كانت منافسة لأسبانيا في ذلك الوقت والتى وجهت جهودها الكشفية إلى الشرق بهدف الوصول إلى أسواق توابل شرق آسيا ، فاتخذت حملاتها الكشفية طريقها صوب الجنوب وصولاً إلى الهند .

دور بريطانيا وهولندا الكشفي

بعد تتبعنا لجهود أسبانيا الكشفية في كل مكان من أمريكا الشمالية والوسطى وأمريكا الجنوبية والمحيط الهادى ، وما نتج عن ذلك من نتائج ايجابية بالنسبة لأسبانيا، ونشير هنا إلى منافسة بعض الدول الأوروبية لأسبانيا في مجال الكشف الجغرافى فيما وراء البحار .

بريطانيا :

قررت بريطانيا ألا تترك أسبانيا تصول وتجول في المناطق الجديدة ، ففي عام ١٥٢٧م ، قام سبستيان كابوت Sebastian Cabot على رأس بعثة كشفية إكتشف أثناءها نهر البراجواى The Paragua River ، وسار في عكس اتجاه المياه ليكتشف حوض هذا النهر ، واستمر سبستيان في مسيره حتى وصل إلى مصب نهرى البرميگو the Bermego River والبارانا the Parana R. ومن بعدهما وصل إلى شلالات الأبيب the Apipe River . وفي تلك الأثناء وجد سبستيان ثروة معدنية لدى السكان ، ولكنه لم يستطع الحصول على أى شئ منها ، لهذا إنتهت بعثته بالفشل . وإلى جانب بحث بريطانيا عن المعادن الثمينة كانت تهدف إلى الكشف عن مناطق جديدة تضمها إلى ممتلكاتها ، فضلا عن عرقلة الجهود الأسبانية ، ووقف مشروعها التوسعى ، وعرقلة خطوط مواصلاتها بل تدمير سفنها التجارية ونهبها .

وفي عام ١٥٧٨م وصل المغامر البريطانى فرانسيس دريك Francis Drake إلى مياه المحيط الهادى . فمن الجدير ذكره أن الجغرافى هاكروت أشار فى مذكراته Notes Hakluyt's المعنونة بـ "Hakluyts principal Navigation" إلى قول فرانسيس دريك " أنه فى اليوم السابع من شهر سبتمبر أعاقتنا عاصفة شديدة من الدخول إلى بحر الجنوب the South Sea ، وكنا بعيدين عن مضيق ماجلان،

الواقع نحو الجنوب ، ويضيف دريك بأنه مر من الخليج الذى أسماه معاناة الأصدقاء " بعد ذلك إندفع دريك فى الإتجاه الجنوبى من المضيق بحيث وصل إلى خط عرض ٥٧° . ومن هناك تتبع المسير حتى وصل إلى المرسى الواقع بين الجزر الجنوبية .

وحاول أفراد بعثة دريك الوصول إلى ما وراء رأس الهورن Cape Horn ، وبذلك يكون دريك قد حقق معرفة جغرافية دقيقة ، عن مجموعة صغيرة من الجزر الواقعة إلى الجنوب من القارة الجديدة . وتوضح الخريطة المرسومة باليد والموجودة فى المتحف البريطانى بأن القارة الجنوبية تتكون من جزر قليلة وتحمل اسم أسطورى هو ترو أوستراليس Terro Australis .

ونظرا للأعمال الجريئة التى قام بها فرانسيس دريك نجد أن أحد الهولنديين يقوم عام ١٥٨٦م برسم لوحة تذكارية plaque لتكريم فرانسيس دريك على أعماله فى مجال المغامرة ، وأيضاً فى مجال الكشف الجغرافى . وكان دريك قد إدعى بأنه عرف معظم الأراضى الجنوبية فى العالم ، فقد ذكر أنه وصل إلى الساحل الغربى من أمريكا الجنوبية أى عند خط عرض ٤٣° ، الذى لم يصل إليه أسبانى واحد من قبل ، وهناك إكتشف دريك خليجا رائعا وجيدا ، لكنه لم يذكر اسمه لعدم معرفته به .

وفى عام ١٥٧٨م هدد فرانسيس دريك القوة الأسبانية الموجودة فى المحيط الهادى ، وذلك عن طريق شمال وجنوب المحيط الأطلسى ، ورغم ما قام به دريك من أعمال كشفية ، إلا أن أعماله لم تكن على جانب من الأهمية ، لأن المناطق التى سار فيها كانت معروفة من قبل . وفى الفترة ، ما بين ١٥٨٦ وحتى ١٥٨٨م قام المغامر الإنجليزى توماس كافندس Thomas Cavendis بعمل مشابه لعمل دريك خاصة فى مجال المغامرة والكشف . وفى عام ١٥٩٥م . قام المغامر البريطانى رالى Raleigh على رأس بعثة كشفية إلى أمريكا الجنوبية ، ولكنه فشل فى مهمته التى كانت تتمثل فى الكشف عن الدراو " مدينة الذهب الخرافية "

ومن الملاحظ أن بريطانيا لم يكن فى مقدورها منافسة أسبانيا فى مجال الكشف الجغرافية فى ذلك الوقت ، فلم نر لها مغامرين فى نفس الفترة ، إلا كل من سبستيان كابوت ، وفرانسييس دريك ، ورالى وتوماس كافندى ، ويرجع ذلك فيما يبدو إلى أن بريطانيا لم تكن بالقوة التى كانت عليها أسبانيا فى ذلك الوقت .

هولندا

دخلت هولندا المنافسة فى مجال الكشف الجغرافية إلى جانب كل من أسبانيا وبريطانيا ، فقد كان للأسطول الهولندى نشاطا ملموسا فى المحيط الهادى فى السنوات الأخيرة من القرن الـ ١٦م. فمن المعروف أن الهولنديين كانوا قد حصلوا على إستقلالهم من الأسبان عام ١٥٩٨م ، وفى نفس العام أرسلت هولندا أسطولا إلى المحيط الهادى مكونا من خمس سفن تحت قيادة جيمس ما هيو James Mahu ، فقد خرج هذا الأسطول من ميناء روتردام ، وسار فى المحيط الأطلسى حتى وصل إلى مضيق ماجلان . بعد ذلك تشّتت سفن هذا الأسطول بسبب العواصف الرعدية ، وقد وصلت إحدى هذه السفن بعد التشّتت إلى جزر الفوكلاند التى إكتشفها جون دافيس البريطانى John Davis عام ١٥٩٢م .

واصل الهولنديون جهودهم الكشفية بعد ذلك ، وفى نفس تلك الفترة خرجت بعثة كشفية هولندية إلى خط العرض الجنوبى العالى ، ومن المحتمل أن تكون هذه البعثة قد شاهدت جزر الشتلاند الجنوبية the South Shetland Islands ، ومن بعدها عبرت بعثة هولندية أخرى المحيط الهادى بنجاح ، ووصلت إلى اليابان ، ولكن مد البحر عرقل مرشدها المدعو وليام أدامز Wiliam Adams ، الذى أصبح مألوفاً لدى اليابانيين ، والذى عاش بينهم حتى موته عام ١٦٢١م . وفى عام ١٥٩٨م ، أرسلت هولندا بعثة كشفية أخرى تحت قيادة فان نورث Van North ، وكانت هذه البعثة مكونة من أربع سفن ، وبعد أن تم إعداد البعثة أبحر فان نورث مدة أربع

سنوات حول العالم ، وفي أغسطس * من عام ١٦٠١م عاد فان نورث إلى أمستردام مضيفا بذلك النذر اليسير إلى المعرفة الجغرافية . وكانت هذه البعثة تمثل علامة من علامات بداية السيادة الهولندية ، وانهيار النفوذ الأسباني في المحيط الهادى^(١) .

* تعريف بالشهور العربية ومقابلتها بالشهور الأفرنجية : يناير = كانون ثان ، فبراير = شباط ، مارس = آذار ، أبريل = نيسان ، مايو = أيار ، يونيو = حزيران ، يوليو = تموز ، أغسطس = آب ، سبتمبر = أيلول ، أكتوبر = تشرين أول ، نوفمبر = تشرين ثان ، ديسمبر = كانون أول .

الخاتمة الثانية

بعد هذا العرض يمكن القول بأن حركة الكشف الجغرافية البرتغالية والأسبانية والبريطانية والهولندية ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، فقد تمكنت هذه الدول من المساهمة في كشف معظم المحيطات ، وبعض الأجزاء من قارات العالم القديم في هذه الفترة ، حيث ظل هذا العالم مجهولا طوال تاريخه القديم والوسيط. وكان من نتائج تلك الكشف الجغرافية معرفة طرق مائية جديدة ساهمت في نمو التجارة العالمية بل ساهمت في بناء السفن وتطويرها ، كما كان منها الوقوف على الأنظمة السياسية لتلك الأقطار التي وصل إليها الأوروبيون ، وكذلك الوقوف على الثروات المعدنية والزراعية والحيوانية التي تنتجها تلك الأقطار .

وكان من نتائج هذه الحركة الكشفية الدولية نشوب التنافس بين تلك الدول الذي أدى بالتالي إلى صراعات دموية . وقد نجم عن حركة الكشف الجغرافية هذه تأسيس الإمبراطوريات الإستعمارية البغيضة ، التي قامت أساسا على الإستغلال واستعباد الشعوب المستعمرة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل شمل إستغلال الموارد الإقتصادية المختلفة ، وتحويل هذه الأقطار إلى أسواق إستهلاكية. وفرضت تلك الدول القوية الإستعمارية التخلف على سكان تلك الشعوب ، بحيث لم تقدم لهم أية وسيلة من وسائل التطور المعاصر . فالشعوب المتخلفة التي لم تعرف واجباتها نحو التقدم والتحضر يمكن قيادتها بيسر وسهولة ، ويمكن القول بأن فترة الإستعمار التي سادت أرجاء العالم المتخلف كانت بكل تأكيد نكبة أملت بتلك الشعوب المقهورة داخليا وخارجيا .

ومن الملاحظ أن تلك الحكومات الأوروبية لم تقم بأى دور رسمى فى نشر المسيحية بين سكان الأقطار التي تم كشفها ، ولكن إذا كان هناك نشر للمسيحية بين سكان بعض الأقطار فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، فإن ذلك يعود إلى الجهود غير الرسمية

التي قام بها أشخاص غير رسميين ، وهذا ما عرف بالجهود غير الرسمية التي قامت بها الكنائس العالمية ، وبعض المبشرين الهامين مثل هنري موفات وديفيد ليفنجستون في أفريقيا .

وفي الختام يمكن القول بأن التاريخ يكرر نفسه ، فما هو حادث الآن في الشرق الأوسط هو خير دليل على ذلك ، فأمريكا لم تأت إلى الشرق الأوسط من أجل نشر المسيحية ، ولكن جاءت من أجل السيطرة والهيمنة على الموارد الإقتصادية للبلدان العربية . فنلاحظ أن أمريكا لم تقم ببناء كنيسة في العراق أو في أية دولة من دويلات الخليج لأن هذا ليس من أهدافها . فهذا العصر هو عصر التكنولوجيا والتقدم العلمي ، فالهدف الفعلي والحقيقي لأمريكا في الشرق الأوسط يكمن في بسط الهيمنة العسكرية والسياسية على العراق ودويلات الخليج وتحويلها إلى قواعد عسكرية ومحطات تموين لسفنها وطائرات أساطيلها ، فضلا عن سيطرتها على ثروات العراق البترولية وغير البترولية ، وكذا فرض الهيمنة على دويلات الخليج واستغلال بترول تلك الدويلات وتحديد أسعاره خدمة للمواطن في كل من أمريكا وأوربا على حساب الشعوب المقهورة في العراق ، ودويلات الخليج .

ومن الواضح أن السياسة التي تتبعها أمريكا في الشرق الأوسط هي سياسة فرض التخلف على شعوب المنطقة حتى تظل تلك الشعوب عاجزة عن التقدم ومسايرة بقية دول العالم المتحضر . فالشعوب المتخلفة المتحجرة من السهل قيادتها وتوجيهها بخلاف الشعوب المتحضرة المثقفة المالكة لوسائل التقدم والتحضر. فمن المعروف أن منطقة الشرق الأوسط هي منطقة تتوسط العالم ، فالقوة التي تهيمن عليها تصبح لها القدرة على التحكم في طرق الملاحة العالمية والجوية والبحرية .

وعلاوة على كل ذلك فإن أمريكا تحاول بكل جهد جعل دويلات الخليج والسعودية خاصة ، والبلدان العربية والإسلامية

الأخرى بعمامة أسواقا إستهلاكية ذات قيمة عالية بالنسبة للمنتجات الأمريكية خاصة والأوربية عامة . فمن المعروف أن دويلات الخليج ومعها السعودية تستورد الغتر والعقال والجلباب والثوب الداخلى والمسبحة والمصلى وخلافه . فحول شبه الجزيرة العربية تتعدم فيها الصناعة تماما فهي تستورد كل شئ وأى شئ . فكيف لا تحرص أمريكا على إحتلال منطقة كمطقة الشرق الأوسط ، خاصة وأن دول تلك المنطقة بتفككها الحالى لا تستطيع مواجهة أمريكا ولا إسرائيل ، لكن لو اتحدت هذه الدويلات العربية البترولية الصغيرة ومعها السعودية مع الدول العربية الكبيرة ، لاستطاع العرب فى هذه الحالة مواجهة التحديات الخارجية ، وحتى يحسب لها ألف حساب ، ولمثلت قوة عصرية كبيرة . ومن المعروف أن دويلات الخليج العربى ومعها السعودية تقف حجر عثرة أمام قيام أى إتحاد عربى ، والسبب فى ذلك يعود إلى الإختلاف الشاسع فى مستوى معيشة الفرد ، فالشخص العربى فى دويلات الخليج العربى مستوى معيشته أفضل من مستوى معيشة الإنسان العربى فى الدول العربية الكبيرة ، ولهذا السبب نجدها ترحب بالتواجد الأمريكى على أرضها من أجل حمايتها والحفاظ على ما تبقى لها من الثروات البترولية .

وكان على الدول العربية جميعها أن تقتدى بدول الإتحاد الأوروبى الذى فتح أبوابه أمام دول أوروبا الشرقية الفقيرة ، فنظرة الأوروبيين إلى الإتحاد نظرة عميقة ومتفحصة بخلاف نظرة العرب السطحية . ففى القريب العاجل ستصبح أوروبا أكبر قوة إقتصادية وعسكرية تنافس أمريكا وغيرها من القوى المعاصرة الناشئة .

ومن الجدير ذكره أن أمريكا ومعها دول الإتحاد الاوروبى تريد تقسيم الشرق الأوسط إلى دويلات صغيرة بحيث لا تستطيع حماية مصالحها أو الدفاع عن نفسها ، وفى ذات الوقت تحاول تلك الدول الأوروبية ، ومعها " أمريكا " جعل دولة إسرائيل دولة عظمى تمتلك أسلحة الدمار الشامل حتى تصبح هذه الدولة هى المهيمنة بل

المسيطرة على كل منطقة الشرق الأوسط . ومن المعروف أن أمريكا ودول أوروبا تحاول تكرار تاريخ القرن التاسع عشر ، بحيث تقوم تلك الدول باحتلال منطقة الشرق الأوسط ، وتقسيمها فيما بينها ، وتستند في ذلك على أن أمريكا دولة متقدمة ، ومعها أوروبا ، وتريد أن تنشر الديمقراطية بين شعوب تلك المنطقة وهذا وهم لا أساس له من الصحة .

ومن الملاحظ أن هذه الدول الأوروبية ومعها أمريكا وقفت على حجم الباقي من مواردها الطبيعية في بلادها ، إذن لابد لهذه الدول من الحصول على ما تحتاج إليه من هذه الموارد الأولية من تلك الدول الفقيرة المتخلفة المقهورة ، وتستخدم هذه الدول المتحضرة كافة الوسائل التي تمكنها من تحقيق أطماعها البغيضة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن هذه الدول المتحضرة المتقدمة يزيد إنتاجها الصناعي سنة بعد أخرى ، ويتطلب ذلك إيجاد أسواق جديدة لتصريف هذا المنتج ، ولا يثنى ذلك إلا بفتح أسواق في هذه البلدان المتخلفة ، وذلك باستخدام القوة العسكرية ، وهذا ماحدث في الماضي ، ولا يستبعد أن يستخدم في الوقت الحالى .

ومن الملاحظ أيضا أن عدد السكان في هذه البلدان في تزايد مستمر بسبب التقدم الصحى الكبير لدى هذه الدول ، لذلك يتحتم عليها البحث عن أماكن جديدة لتصريف هذه الزيادة السكانية . عندئذ يتطلب ذلك وجود مستعمرات لاستيعاب هذه الأعداد الزائدة عن حاجة الدول الأوروبية وأمريكا ، وتقوم هذه الدول بتسهيل تسفيرهم إلى هذه المستعمرات الجديدة التي ستكون قد استولت عليها لممارسة نشاطهم الإقتصادى في هذه البلدان المتخلفة ، وتحويلها إلى ضياع كما كان الحال في ظل العصور الوسطى ، وتحويل أبناء هذه المستعمرات إلى عبيد ، وهذا ما نخشاه .

هذا ممكن حدوثه في هذا الوقت لأن البلدان العربية أصبحت ضعيفة وفقيرة ومتخلفة ومفككة ، وتفقد إلى زعامة قوية تقودها ،

ومن المعروف أن هذه الشعوب تحكمها أنظمة إستبدادية منذ ربع قرن ويزيد ، ولا يهم هذه الأنظمة النهوض بشعوبهم ومسايرة العصرية بل تركت هذه الأنظمة شعوبها تغرق فى التخلف والفقر والمرض . ومن المعروف أن هذه الأنظمة لا يعنىها نهضة شعوبها ولا تقدمها. فهذا هو حال الشعوب العربية المقهورة فى عصرنا المعاصر .

وإضافة إلى ذلك فإن هذه الدول الأوروبية ومعها "أمريكا " ترفض أن يكون فى الشرق الأوسط دولة قوية تمتلك سلاح الردع لحماية شعوبها ومصالحها . وخير دليل على ذلك محاصرة إيران لكونها بدأت تفكر مجرد التفكير فى إقامة مفاعل نووى للإستخدام السلمى ، فقامت قائمة هذه الدول الإستعمارية بمحاصرة إيران وتآليب الأمم المتحدة ضدها ، وكذلك دول العالم أجمع وكما لو كانت إيران ستدمر العالم كله بالسلاح النووى . ولكن الحقيقة تكمن فى أن هذه الدول تتزعج من إمتلاك أية دولة شرق أوسطية عربية كانت أم إسلامية ، لأى نوع من أنواع السلاح، خشية أن يمثل إمتلاك هذه الدولة لهذا النوع من السلاح خطراً إستراتيجياً وعسكرياً يهدد مستقبل أمريكا وإسرائيل فى الشرق الأوسط .

ونقول لجميع المسئولين فى الشرق الأوسط أن يضعوا فى إعتبارهم هذه الحيل الأوروبية الماكرة ، وعليهم أن يفهموا إن كانوا يرغبون فى الفهم أن الصورة أصبحت جلية وواضحة ، والمخطط أصبح واضحاً أيضاً ، فعلى حكام الشرق الأوسط ان يستيقظوا من ثباتهم ، ولا يأمنوا لهذه الدول حيلهم الماكرة ، فخططها أصبحت واضحة ومعروفة للجميع . وفق الله حكام الشرق الأوسط لما فيه خير بلدانهم .

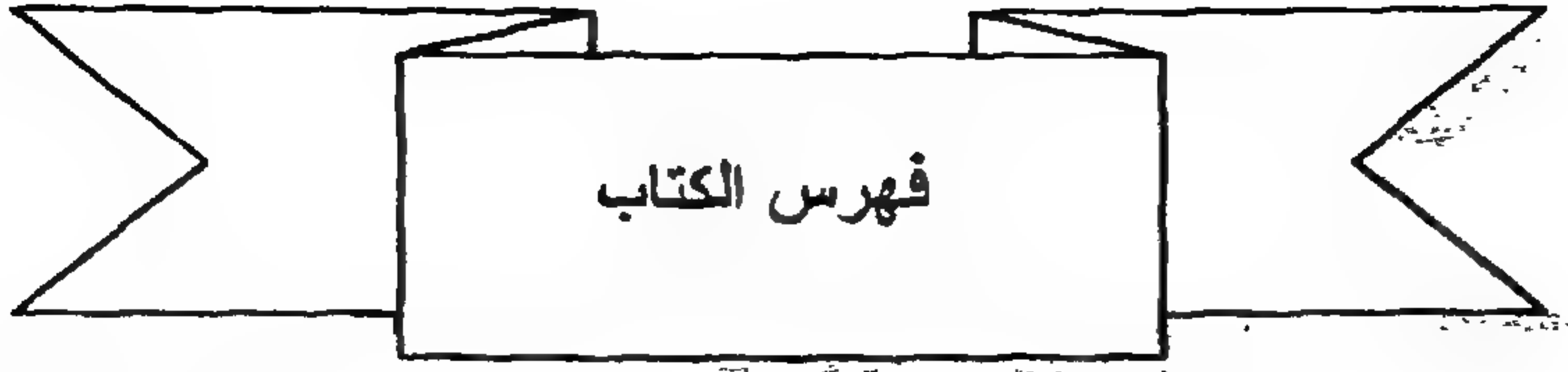
المصادر العربية والأجنبية

المصادر العربية:

- ١- د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي (الحضارة الإسلامية) ج ٦ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م .
- ٢- د. جوزفين كام : المستكشفون في أفريقيا ، ترجمة د . السيد يوسف نصر ، القاهرة ١٩٩٠ م .
- ٣- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، التاريخ السياسى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٨٣ .
- ٤- د. سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى (النهضة ، والحضارة ، والنظم) ، القاهرة ١٩٨٠ .
- ٥- صمويل اليوت موريسون : كريستوفر كولمبس، ترجمة فوزى قبلوى، بيروت عام ١٩٥٩ م .
- ٦- د. عبد العزيز الشناوى : أوروبا فى مطلع العصور الحديثة ج ١ الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ٧- فيج . دى . جى : تاريخ غرب أفريقيا ترجمة د. السيد يوسف نصر بدون تاريخ .
- ٨- د. محمد فؤاد شكرى : محاضرات فى تاريخ أوروبا الحديث من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية . بدون تاريخ .
- ٩- لافينا دبلىر، وويليام برون : الحكام العظام فى أفريقيا ترجمة د. السيد يوسف نصر ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .

The foreign references:

- 1- Baker B. : A history of Geographical discovery and explorations, New York, 1967.
- 2- British seamen, in the sixteenth century, without date.
- 3- Doubleday and company Inc.: Exploring Africa and Asia the Encyclopedia of discovery and exploration. Garden city, New York. 1975.
- 4- Esmond wright: the Medieval and Renaissance world , A history of civilization from the dark Ages to the Renaissance, New York. 1979 .
- 5- Emily Davie and others: profile of America . U. S. A. 1954.
- 6- Eugenec. Baker and others : the building of our nation , New York, 1948.
- 7- George shattel: Decision in United States history, Lexigton, 1975 .
- 8- George Fadlo Haurani, Arab sea faring in the Indian Ocean in ancient and early medieval times , New York , 1975.
- 9- George Guest: the marsh of civilization, London, 1977.
- 10- Frank Mcquilkin : think black, the bruce, publishing company, New York, 1970.
- 11- Herman Bondi: Towards New frontiers, London, 1969.
- 12- James Henry and others: history of Europe ancient and medieval, New York, 1929.
- 13- John glubb pasha: the Middle East Crisis, great Britain, 1969.
- 14- Jonhan L. Goldman and Andrew sparks, webster's new world student, dictionary Macmillan, U. S. A. New York . 1997.
- 15- Stella Davies: exploring the world, London, 1968.
- 16- Mahajan. V.D: India, since, 1526. without date.
- 17- Norman . A. Graebner, Gilbert.C. fite and Philip.L.white.: A history of the American people, U.S.A. 1975 .
- 18 – The medieval and Renaissance world , London , 1979 .
- 19 – The New Oxford Encyclopedia Dictionary, Bay books in association with oxford press part 2 . without date .
- 20 – Wallace W . A . Wood : the growth of nations , U . S . A , 1944 .



رقم الصفحة	الموضوع
	مقدمة
	الفصل الأول
١٧ - ٥٦	الكشوف الجغرافية البرتغالية في مطلع التاريخ الحديث
٥٩	الفصل الثاني
٨٢ - ٥٩	تأسيس النفوذ البرتغالي في الهند
٨٤ - ٨٣	الخاتمة الأولى
٨٦	الفصل الثالث
١٤٤ - ٨٦	الكشوف الجغرافية الأسبانية في مطلع التاريخ الحديث
١٤٥	الفصل الرابع
١٦٤ - ١٤٥	رحلة ماجلان التاريخية حول العالم
١٦٩ - ١٦٥	الخاتمة الثانية
٥٥	خريطة رحلة فاسكو دي جاما
٥٦	خريطة الطريق البحري إلى الهند
١٠٤	خريطة الرحلة الأولى لكريستوفر كولمبس
١٠٥	خريطة رحلات كريستوفر كولمبس
١٢٧	خريطة الكشف الأسباني لأمريكا الوسطى والشمالية
١٤٤	خريطة كشف أمريكا الجنوبية
١٥٤	خريطة البعثات الكشفية في المحيط الهادي
١٥٩	خريطة التوسع البرتغالي الأسباني فيما وراء البحار
١٧١	المصادر العربية
١٧٢	المصادر الأجنبية
١٧٣	الفهرس

المصطفى كمبيوتر سنتر

0128232439







دكتور / السيد يوسف نصر

- ليسانس آداب من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- ماجستير في الآداب من قسم التاريخ « تاريخ حديث ومعاصر » من معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.
- دكتوراه في الآداب من قسم التاريخ « تاريخ حديث ومعاصر » كلية الآداب - جامعة المنيا.
- مدرس بقسم التاريخ « مادة التاريخ الحديث والمعاصر » كلية الآداب - جامعة أسيوط - فرع سوهاج.
- عمل أستاذاً مساعداً بقسم التاريخ لتدريس مادة التاريخ الحديث والمعاصر - بكلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم بالسودان.
- عمل أستاذاً مساعداً بكلية العلوم العربية والاجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية.
- له عدد من المؤلفات والتراجم على النحو التالي:-
- ١- جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن ١٩م.
- ٢- مستعمرة كارولينا.
- ٣- كشف العالم الجديد.
- ٤- الدور الحضاري للجيش المصري في آسيا وأفريقيا.
- ٥- الوجود المصري في أفريقيا في الفترة ما بين: ١٨٢٠م - ١٨٩٩م.
- ٦- الكشوف البرتغالية والأسبانية حول العالم بين الاستعمار والاستغلال.
- ٧- الحكام العظام في أفريقيا.
- ٨- البحارة البريطانيون في القرن ١٦م.
- ٩- أزمة الشرق الأوسط.
- ١٠- مكتشفو أفريقيا.
- ١١- تاريخ غرب أفريقيا.
- ١٢- الوثائق التاريخية لسياسة مصر الإفريقية.
- مقالة بعنوان: الخرطوم تحت الحكم المصري.
- ومقالة بعنوان: Historical and natural factors which affected the african man
- أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

